د. محمد منير حجاب

سبيل الرشاد في الدعوة والإرشاد

دار المعارف

سبيل الرشاد

فاضلى

في

الدعوة والإرشاد

دكتور محمود على حماية

أستاذ ورئيس قسم الدعوة

جامعة الأزهر بأسيوط

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .. وبعد :

فالدعـوة إلى الله - سبحانه - وظيفة الرسل - عليهم الصلاة والسـلام - الذين كانوا أنصارًا للحق يحملون لواءه ، ويذودون عن حياضه ، وقد تحملوا فى سبيل ذلك ما لا يطيقه إلا أولو العزم من الرسل الكرام .

ولا شك أن العلماء هم ورثة الأنبياء فى حمل الدعوة وهداية الناس إلى ربهم عز وجل .

يقول الله تعالى مخاطبًا رسوله محمدًا ﷺ ﴿قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعَنى﴾[1] .

ثم إن العالم الإسلامى فى الآونة الأخيرة قد سرت فيه صحوة إسلامية واعية تنادى بالعودة إلى جوهر الإسلام والأخذ بمبادئه فى التشريع والسلوك .

---

(١) سورة يوسف الآية ١٠٨ .

وهذا شيء حسن يبشر بالخير ويدعو إلى التفاؤل .. بيد أننا لاحظنا أن (بعض) شباب تلك الصحوة والقائمين عليها ينقصهم الإدراك الواعى للمنهج الصحيح فى الدعوة إلى الله .

فمنهم من نفر العامة بتشدده وجفائه ، ومنهم من أثار عليه قوة أكبر منه بتهوّره واندفاعه .

فالصنف الأول انفضّ الناس من حوله ، ونفضوا أيديهم منه ، والصنف الثانى حكم على نفسه بالقهر وعلى مبادئه بالكتمان .

ولا ريب أن الأخطاء التى وقع فيها هؤلاء الشباب فى المنهج والتطبيق جعلت الدعوة تتعثر وكان حظها من النجاح فى مختلف البلدان الإسلامية ضئيلاً .

وهذه بحوث كنت ألقيت بعضها على طلاب كلية الدعوة وأصول الدين بجامعة الأزهر الشريف ، حاولت فيها أن أوضح المنهج الصحيح فى الدعوة إلى الله سبحانه ، وهو منهج يستمد أصوله من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .. إنه المنهج الذى سار عليه محمد رسول الله والذين معه ، فدخل الناس فى دين الله أفواجًا .

والله نسأل أن يجعل عملنا هذا خالصًا لوجهه ، نافعًا لعباده ، إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب . وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة فى ١٩/٥/١٤١١هـ

دكتور
محمود على حماية

الفصل الأول

تعريف الدعوة

١ – تعريف الدعوة :

الدعوة لغة الصيحة والنداء :

جاء فى لسان العرب : « دعا الرجل دعوًا ودعاء : ناداهُ ، والاسم الدعوة ودعوت فلانًا أى صحت به واستدعيته[١] « ودعوت زيدًا ناديته وطلبت إقباله »[٢] .

وتأتى الدعوة – أيضًا – من الدعاء إلى الشيء بمعنى الحث على قصده، ومنه قول الله تعالى : ﴿قال رب السجن أحب إلىّ مما يدعوننى إليه﴾[٣] .

جاء فى المعجم الوسيط : « دعا إلى الشيء حثه على قصده .. ودعاه إلى الدين وإلى المذهب : حثه على اعتقاده[٤] .

وفى العرف : حث الناس على الخير والهدى ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ليفوزوا بسعادة العاجل والآجل »[٥] .

---

(١) لسان العرب ١٣٨٥/٩ .
(٢) المصباح المنير ١٩٤ .
(٣) سورة يوسف : الآية ٣٣ .
(٤) ٢٨٦/١ .
(٥) هداية المرشدين ١٧ .

وقد عرفها شيخنا الأستاذ البهى الخولى بقوله : «هى نقل أمة من محيط إلى محيط.. ومن ظنها غير ذلك فقد جهل نفسه ورسالته »[1] .

والدعاية : مرادفة للدعوة ، حيث وردت فى رسائل النبى ﷺ إلى الملوك ، ففى كتابه ﷺ إلى هرقل : « أدعوك بدعاية الإسلام » أى بدعوته وهى كلمة الشهادة التى يدعى إليها أهل الملل الكافرة[2] .

وعلى الرغم مما يقصد بها اليوم من ترويج للباطل وتمويه للفاسد ، على سبيل قلب المعنى ، فإن الدعاية تظل قائمة على المعنى الأصلى الذى هو ترويج للحق ، وإذا استعملها الغربيون للباطل ، فلا يمنعنا ذلك أن نستعملها للحق[3] .

ومن الكلمات التى ترادف الدعوة بفروق يسيرة ما يأتى :

١- الوعظ : وهو النصح بالخير على وجه يرق له قلب السامع ، وفى أسلوب يحمله على قبول الحق والعمل به .

٢- والإرشاد : هو هداية الناس إلى الطريق المستقيم ، والحث على الخير[4] .

٣- الحسبة: - بالكسر- وقد عرفها ابن خلدون فى مقدمته بقوله: « أما الحسبة فهى وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر»[5].

---

(١) تذكرة الدعاة ٤٤ (طبعة الاتحاد الإسلامى العالمى ١٤٠٠هـ) .

(٢) انظر : لسان العرب ١٣٨٥/٩ .

(٣) آدم عبد الله الألورى : تاريخ الدعوة إلى الله ص ١٧ .

(٤) المرجع السابق .

(٥) مقدمة ابن خلدون ٦٣٦/٢.

وهناك فريق من العلماء عرف الحسبة فقال : الحسبة أمر بالمعروف إذا ظهر تركه ، ونهى عن المنكر إذا ظهر فعله[1] .

وهذا هو التعريف الراجح للحسبة لأنه جامع مانع وسار عليه كثير من المتقدمين والمتأخرين[2] .

٢ – حكم تبليغ الدعوة :

اتفق أهل العلم على وجوب الدعوة الإسلامية ، وكان ذلك الاتفاق إجماعًا انعقد فى عصر الصحابة ، ثم عصر التابعين ، والإجماع لا ينقض إذا تخاذل المسلمون عنه ، فلم يقوموا بحقه[3] .

والأدلة على وجوب الدعوة ما يلى :

١ – قال الله تعالى : ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾[4] .

فقد أوجب الله على المسلمين أن تقوم منهم طائفة بوظيفة الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . يقول ابن كثير فى تفسير هذه الآية : « والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن وإن كان ذلك واجبًا على كل فرد من الأمة ،

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ٢٧٠ (المكتبة التوفيقية ١٩٧٨) وانظر – أيضًا – الأحكام السلطانية لأبى يعلى الحنبلى ٢٨٤ ومعالم القربة لابن الإخوة ٥١ ، وعمر بن محمد السنامى فى كتابه : نصاب الاحتساب ١٣ .

(٢) انظر : بدر عبد الرازق الماص : الاحتساب فى دعوة الإمام حسن البنا ١٣ .

(٣) محمد أبو زهرة : الدعوة إلى الإسلام ٣٤ .

(٤) سورة آل عمران : آية (١٠٤) .

كل بحسبه : كما ثبت فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » وفى رواية : « وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل »[1] .

٢ – ولقد شدد بالإنكار على قوم أغفلوا هذه الفريضة ، وتركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فقال جل شأنه : ﴿لُعِن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهَون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾[2] .

عن ابن مسعود – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ[3] : « إنَّ أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ثم قال : ﴿لُعِنَ الذين كفروا﴾ إلى قوله : ﴿ فاسقون﴾ ثم قال ﷺ : « كلا والله لتأمرنّ بالمعروف وتنهون عن المنكر ثم لتأخذن على يد الظالم ولتأطرنّه على الحق أطرًا ولتقصرنه على الحق قصرًا أو ليضربن الله على قلوب بعضكم ببعض ثم يلعنكم كما يلعنهم »[4] .

---

(١) مختصر ابن كثير ٣٠٦/١ .
(٢) سورة المائدة : الآيتان (٧٨ ، ٧٩) .
(٣) رواه أبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه وغيرهم .
(٤) لتأطرنه : بكسر الطاء وضم الراء لتردنه وبابه ضرب ، وأصل الأطر العطف ، ولتقصرنه بضم الصاد والراء ، تمنعه من مجاوزته وبابه نصر .

وعن حذيفة – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال : « والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم »(١) .

٣– وعن أبى سعيد الخدرى – رضى الله عنه – قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان »(٢) .

ويبين الحديث الشريف أن الاستطاعة شرط فى تغيير المنكر باليد ، فإن لم يقدر وجب التغيير باللسان ، وهو غير قاصر على نهى الغاش ووعظه ، بل يدخل فيه رفع أمره إلى الحاكم الذى هو أقدر منك ، أما التغيير بالقلب : فهو عبارة عن مقت الفاعل وعدم الرضا بفعله ، بل ومقاطعته وترك مجالسته ومعاملته .. يدل على ذلك ما فعله ﷺ وأصحابه مع الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك بغير عذر وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية(٣) .

٤– ولا ينافى الوجوب قوله تعالى : ﴿يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾(٤) . لأن معنى الآية إنكم إذا فعلتم ما وجب عليكم فلا يضركم تقصير غيركم . مثل قوله تعالى : ﴿ولا تَزِرُ وازرةٌ وزر أخرَى﴾ ومما وجب علينا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، إذ لا يكون المرء مهتديًا مع تركه لهذه الفريضة ، فإذا قام

---

(١) رواه مسلم .

(٢) هداية المرشدين ص٢٠ وما بعدها .

(٣) رواه الترمذى وقال حديث حسن .

(٤) سورة المائدة الآية (١٠٥) .

بها ولم يمتثل المخاطب فلا جناح عليه بعد ذلك لأنه أدى ما عليه ، والذى عليه القول لا القبول ، وهذه شبهة قديمة العهد عرضت للناس فى الصدر الأول ، فقد روى أحمد والترمذى وأبو يعلى وغيرهم من حديث قيس بن حازم قال : قام أبو بكر خطيبًا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية : ﴿يَأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ وإنكم تضعونها على غير موضعها ، — أى يتوهمون منها أن الإنسان إذا فعل ما أمر به ، وترك ما نهى عنه فى نفسه ، ورأى غيره بضد ذلك فلم يأمره ولم ينهه ، لا حرج عليه ، وليس كذلك — وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا رأى الناس المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب » .

هذا .. وقد يسأل سائل : هل الدعوة إلى الله واجبة على الخاصة ، أم هى على الكافة ؟ وبعبارة أدق : أهى فرض عين أم فرض كفاية ؟

أقول : هنا اختلف العلماء إلى فريقين :

فريق يقول : إن الدعوة إلى الله فرض كفاية إذا قام بها البعض سقط التكليف عن الباقين .. واستدلوا على ذلك بقول الله تعالى : ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾[1] .

على أن مِنْ فى هذه الآية « للتبعيض » أى لتكن منكم طائفة منتصبة للدعوة إلى الله تعالى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

---

(١) آل عمران آية ١٠٤ .

وهنا يجب على الأمة أن تقوم بإعداد هذه الطائفة المعينة ، لكى يتحقق الفرض الكفائى ، ومما يؤيد هذا الرأى قوله تعالى : ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾(١) . والآية تدل على أن التبليغ واجب على طائفة من كل فرقة .

ويؤيد هذا القول أيضًا قوله تعالى :﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن﴾ فالله يأمر نبيه ومن تبعه من المؤمنين بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن ، ولا ريب أن هذه أساليب لا يتقنها كل إنسان ، وإنما تحتاج إلى علم ومعرفة تحقق نجاح الدعوة .

وقد أيد الزمخشرى هذا القول حيث بين أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من فروض الكفايات ، وأنه لا يصلح له إلا من علم المعروف والمنكر ، وعلم كيف يُرتّب الأمر فى إقامته ، وكيف يباشر ، فإن الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر وربما عرف الحكم فى مذهبه وجهله فى مذهب صاحبه فنهاه عن غير منكر، وقد يغلظ فى موضع اللين ويلين فى موضع الغلظة ، وينكر على من لا يزيده إنكاره إلا تماديًا، أو على من الإنكار عليه عبث .. كالجلادين وأضرابهم »(٢) .

ويقول فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود – شيخ الأزهر السابق – فى قوله تعالى : ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير﴾ .

---

(١) سورة التوبة : الآية ١٢٢ .

(٢) تفسير الكشاف ٢٠٨/١ .

إن كلمة « مِنْ » فى قوله تعالى : ﴿منكم﴾ إنما هى للتبعيض أخرجت من لا يستطيعون الدعوة إلى الخير ، ولا يستطيعون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لعجزهم أو جهلهم أو ضعفهم[1] .

وأما الذين ذهبوا إلى أن الدعوة إلى الله واجب عينى على كل مكلف حسب طاقته فدليلهم على ذلك نفس الآية السابقة – أيضًا – ﴿ولتكن منكم أمة﴾ على أن (مِنْ) بيانية وليست تبعيضية فالمسلم مكلف بالدعوة حسب إمكاناته ، والدليل على ذلك قول الرسول : « من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان »[2] .

ومما يؤيد هذا القول أيضًا قول الله تعالى :﴿كنتم خير أمة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتَنْهَون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرًا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾[3] .

فالأمة الإسلامية أمة دعوة ، وقد نالت هذه الخيرية بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإيمـــان بالله تعالى . والخطـــاب عـــام لكل الأمة .

ويؤيده أيضًا قول الرسول ﷺ : « بلغوا عنى ولو آية »[4] .

---

(١) من مجلة البحوث الإسلامية المجلد الأول – العدد الثانى ص ١٤٥ و١٤٦ من زوايا الدعوة إلى الله لفضيلة الدكتور عبد الحليم محمود .
(٢) رواه مسلم .
(٣) آل عمران آية ١١٠ .
(٤) فتح البارى – كتاب الأنبياء ٦/٤٩٦ (المطبعة السلفية) .

هذا أمر من رسول الله ﷺ لأمته بالتبليغ عنه ولو آية واحدة والخطاب عام لكل إنسان حسب استطاعته ومقدرته .

وبعد هذا العرض لأدلة الفريقين فإنى أرجح القول الأول القائل بأن الدعوة إلى الله واجب كفائى ، لأن الدعوة لابد لها من علم ومعرفة ، لأن الجاهل إذا قام بالدعوة ربما أمر بالمنكر ونهى عن المعروف فيضر أكثر مما ينفع فلابد من التفقه قبل الدعوة وعلى هذا يرى أن تبليغها فرض كفاية .

والأولى أن يقال - إنه واجب كفائى وعينى معًا - كما يقول الشيخ محمد أبو زهرة(١) - حسب ما يقتضيه الحال .

يقول الشيخ عبد العزيز بن باز : صرح العلماء أن الدعوة إلى الله عز وجل فرض كفاية بالنسبة إلى الأقطار التى يقوم فيها الدعاة ، فإن كل قطر وكل إقليم يحتاج إلى الدعوة وإلى النشاط فيها ، فهى فرض كفاية إذا قام بها من يكفى سقط عن الباقين ذلك الواجب وصارت الدعوة فى حق الباقين سنة مؤكدة وعملاً صالحًا جليلاً ، وإذا لم يقم أهل الإقليم أو أهل القطر المعين بالدعوة على التمام ، صار الإثم عامًّا ، وصار الواجب على الجميع ، وعلى كل إنسان أن يقوم بالدعوة حسب طاقته وإمكانه ، أما بالنظر إلى عموم البلاد فالواجب أن توجد طائفة منتصبة تقوم بالدعوة إلى الله جل وعلا فى أرجاء المعمورة تبلغ رسالات الله ، وتبين أمر الله عز وجل بالطرق الممكنة .. ثم قال : وبهذا يعلم أن كونها فرض عين وكونها فرض كفاية أمر نسبى يختلف ، فقد

---

(١) راجع محمد أبو زهرة : الدعوة إلى الاسلام ٣٤ -٥٢ .

تكون الدعوة فرض عين بالنسبة إلى أقوام وإلى أشخاص ، وسنة بالنسبة إلى أشخاص وإلى أقوام ، لأنه وجد في محلهم وفي مكانهم من قام بالأمر وكفى عنهم .. قال : ونظرًا إلى انتشار الدعوة إلى المبادىء الهدامة وإلى الإلحاد وإنكار رب العباد ، وإنكار الرسالات وإنكار الآخرة ، وانتشار الدعوة النصرانية في الكثير من البلدان ، وغير ذلك من الدعوات المضللة نظرًا إلى هذا ، فإن الدعوة إلى الله عز وجل اليوم أصبحت فرضًا عامًا ، وواجبًا على جميع العلماء ، وعلى جميع الحكام الذين يدينون بالإسلام .

ذلك لأن أعداء الله قد تكاتفوا وتعاونوا بكل وسيلة للصد عن سبيل الله والتشكيك في دينه ودعوة الناس إلى ما يخرجهم من دين الله عز وجل ، فوجب على أهل الإسلام أن يقابلوا هذا النشاط المضل الملحد بنشاط إسلامي ، وبدعوة إسلامية على شتى المستويات ، وبجميع الوسائل وبجميع الطرق الممكنة ، وهذا من باب أداء ما أوجب الله على عباده من الدعوة إلى سبيله[1] .

٣ – فضل الدعوة :

١ – الدعـوة إلى الله – تعالى – أرقى وأشـرف مهنة ، لأنهـا وظيفة الرسل – عليهم الصلاة والسلام – وهم أشرف الخلق على الإطلاق .

---

(١) انظر : الشيخ عبد العزيز بن باز : الدعوة إلى الله وأخلاق العلماء ١٤ ، ١٧ ، ١٨ (الدار السلفية ط الأولى ١٤٠٤هـ) .

٢- ويكفى الدعاة شرفًا وفخرًا أن الله سبحانه قال فى حقهم ثناء وتنويهًا: ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحًا وقال إننى من المسلمين﴾[١] .

فهذه الآية الكريمة فيها التنويه بالدعاة والثناء عليهم وأنه لا أحد أحسن قولاً منهم . والمعنى لا أحد أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وأرشد إليه وعمل بما يدعو إليه ، ومع ذلك صرح بما هو عليه لم يخجل بل قال : إننى من المسلمين مغتبطًا وفرحًا بما منّ الله به عليه ، قال المفسرون : ﴿وقال إننى من المسلمين﴾ أى قال ابتهاجًا بالاسلام وفرحا به واتخاذًا له دينا ومذهبا[٢] .

وهذا ليس كمن يستنكف عن ذلك ويكره أن ينطق بأنه مسلم أو بأنه يدعو إلى الإسلام لمراعاة فلان أو مجاملة فلان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، بل المؤمن الداعى إلى الله القوى الإيمان البصير بأمر الله يصرح بحق الله ، وينشط فى الدعوة إلى الله .. ويغتبط بذلك ويفرح به كما قال عز وجل : ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خيرٌ مما يجمعون﴾[٣] .

٣- وقال الرسول ﷺ فى الحديث الصحيح : « من دلّ على خير فله مثل أجر فاعله »[٤] .

---

(١) سورة فصلت : الآية ٣٣ .
(٢) الفتوحات الإلهية ٤/٤٢ .
(٣) سورة يونس : الآية ٥٨ .
(٤) رواه مسلم .

وقال ﷺ : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا يَنْقُصُ ذلك من أجورهم شيئًا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا يَنْقُصُ ذلك من آثامهم شيئًا »(١) .

وهذا أيضًا يدلنا على فضل الدعوة إلى الله وما فيها من الخير العظيم وأن الداعى إلى الله جل وعلا يعطى مثل أجور من هداه الله على يديه ولو كان آلاف الملايين . فيالها من نعمة عظيمة فهنيئًا لك أيها الداعية إلى الله بهذا الخير العظيم(٢) .

٤ - وصحّ عنه ﷺ أنه قال لعلى رضى الله عنه وأرضاه « فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً واحدًا خيرٌ لك من حُمْر النعم »(٣) .

٥ - والدعاة - أيضًا - ورثة الأنبياء لقول الرسول ﷺ : « العلماء ورثة الأنبياء »(٤) . فهل أدرك الدعاة إلى الله فضلهم وعرفوا فى هذه الحياة منزلتهم(٥) .

٦ - ومما يدل على فضل الدعاة إلى الله تعالى أن أهل السماء والأرض يستغفرون لهم ، فقد روى الترمذى عن أبى أمامة مرفوعًا .. « إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة فى جحرها والحيتان فى البحر يصلون على معلم الناس الخير » .

---

(١) رواه مسلم .
(٢) الشيخ عبد العزيز بن باز : الدعوة إلى الله ٢٢ .
(٣) متفق على صحته .
(٤) رواه الخمسة وصححه ابن حبان والحاكم .
(٥) عبدالله علوان : فضل الدعوة والداعية ٦٠ .

والصلاة – كما هو معلوم – من الله رحمة ، ومن الملائكة استغفار ، ومن العبد دعاء ، وهذه منزلة قلما يدركها أحد إلا من تصدى للدعوة وسار فى طريق الهداية والإصلاح والتبليغ ، ألا فليعلم الدعاة مقامهم ، ويدركوا فى هذا الوجود منزلتهم ، فهنيئًا لهم ، ولمن يسير على دربهم كم ينالهم من شرف ؟ وكم يسطّر لهم فى صحائفهم من أجر ومثوبة[1] ؟

ورحم الله الخليفة الراشد عليًّا رضى الله عنه حين قال :

ما الفضل إلا لأهـل العلم إنهم على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرىء ما كان يحسنه والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففـز بعلـم تعش حيًا بـه أبدًا الناس موتى وأهل العلم أحياء

٤ – أهداف الدعوة :

للدعوة إلى الله – سبحانه – أهداف نذكرها فيمايلى :

١ – دعوة غير المسلمين إلى الدخول فى الإسلام ، وقد سن لنا النبى ﷺ هذه السنة الحسنة عن طريق مكاتبة الملوك والأمراء وأمرهم أن يبلغوا أممهم ، وهذه الدعوة تؤدى إلى هدفين رئيسين :

أحدهما : الكشف عن مبادىء الإسلام الحسنة ، وتعريف الأمم بما فيه من خير ورحمة وعلاج لكثير من المشاكل التى تعانى منها الشعوب المختلفة فى كثير من أرض الله .

والآخر : محو الصورة السيئة التى ألصقها أعداء الإسلام من المبشرين والمستشرقين وغيرهم بالمسلمين ورسالتهم ، أجل ! لقد حاول القسس

(١) السابق ٦٢ .

والمنصِّرُونَ منذ أمد بعيد أن يعملوا باستماتة على تشويه صورة الإسلام وتقديمه للناس على أنه دين يدعو إلى التخلف والخرافة ، وأن تعاليمه تقوم على الغلظة والوحشية وأن كتابه – وهو القرآن – مجموعة من النصوص التى أخذها محمد من تعاليم التوراة وأسفار الإنجيل ثم أضاف إليها بعض خرافات الوثنية والأمم المجاورة ، ولذلك فإنه – من وجهة نظرهم – ليس دينًا سماويًا من الله – سبحانه – لهذا كله كان واجبًا على الدعاة والعلماء أن يوضحوا للعالم محاسن الإسلام وسماحة تعاليمه وسمو تشريعاته بالكتب أو الخطب أو المناظرات العلمية بين علماء الأديان المختلفة مثال ذلك المناظرة الكبرى التى قامت بين الشيخ أحمد ديدات والقس جيمى سواجارت فى الولايات المتحدة الأمريكية وكان موضوعها : (هل الإنجيل كلمة الله) ؟ لقد شاهد الناس بأعينهم على اختلاف أديانهم أن ما يقوله المستشرقون عن القرآن الكريم أكذوبة أملاها الحقد والهوى والتعصب الذميم ، كما شاهدوا – أيضًا – فى تلك المناظرة أن الكتاب المقدس – كما يسمونه – فيه من قصص الجنس ما يستحى الرجل الفاضل أن يقصه على ابنته أو أخته أو زوجته – لو كانت امرأة فضلى – وقد ذكر الشيخ ديدات أمثله على ذلك[1] .

٢ – ومن أهداف الدعوة – أيضًا – دعوة المسلمين بعضهم لبعض إلى الخير قال تعالى : ﴿وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾[2] . ومعنى هذه الدعوة هو إرجاع المسلمين إلى جوهر الإسلام وتشريعه

---

(١) انظر مقدمة المناظرة الكبرى للدكتور محمود على حماية ٢٩ و ٣٠ .

(٢) سورة العصر : الآية ٣ .

الحكيم ، وتعميق ذلك فى نفوسهم ونفى ما علق بالإسـلام من خرافات وأوهام[1] .

٣- وإن هدف الدعوة الإسلامية تحقيق السعادة للفرد والمجتمع فتعاليم الإسلام تحقق للإنسان الصحة النفسية والراحة والاطمئنان فى حياته ، لأن أكثر ما يصيب العالم اليوم من قلق واضرابات وضيق واكتئاب ، مرده إلى أحد أمرين : الحزن على ما فات ، أو الخوف مما هو آت ، ولا ريب أن الدعوة الإسلامية أوجدت العلاج لكلا الأمرين ، فبالنسبة للحزن على مافات : نجد آيات القرآن الكريم تبين لنا عاقبة الصبر وما أعده الله سبحانه للصابرين الراضين بقضاء الله وقدره ، يقول جل وعلا : ﴿ وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾[2] ويقول أيضًا ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾[3] . وغير ذلك من الآيات الكثيرة التى تحث على الصبر مما يجعل المصائب والمحن تنزل على المؤمن بردًا وسلامًا لما يعلمه المؤمن من ثواب الله وعظيم أجره الذى أعده لعباده الصابرين .ولذلك يقول ﷺ : « عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن : إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له »[4] كما بين القرآن الكريم حقيقة الدنيـا وأنهـا

---

(١) محمد خير رمضان يوسف : الدعوة الإسلامية ٢٦ .
(٢) سورة البقرة : الآيتان ١٥٥ و١٥٦ .
(٣) سورة الزمر : الآية ١٠ .
(٤) رواه مسلم .

دار اختبار وامتحان حتى يكون المؤمن على بينة من أمره قال تعالى : ﴿أحسب الناس أن يُتْركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمنّ الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾[1] .
أما الخوف من المستقبل المجهول فقد بين القرآن الكريم أنه لا يصيب المؤمن إلا ما كتبه الله عليه فقال تعالى :﴿قل لن يُصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾[2] .

وقال ﷺ : « واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف »[3] .

وصفوة القول :أن الدعوة الإسلامية بتعاليمها وعقائدها تجعل الناس يعيشون فى سعادة واطمئنان رضًا بقضاء الله وطلبًا لمثوبته فى الآخرة ، ورجاء فى رحمته وفضله الذى أعده للمؤمنين الصابرين ، وقد وضح هذا المعنى الذى أشرت إليه الإمام ابن حزم الأندلسى عندما قال : « تطلبت غرضًا يستوى الناس كلهم فى استحسانه ،وفى طلبه ، فلم أجده إلا واحدًا ، وهو طرد الهم . فلما تدبرته علمْت أن الناس كلهم لم يستووا فى استحسانه فقط ، ولا فى طلبه فقط ، ولكن رأيتهم على اختلاف أهوائهم ومطالبهم ، وتباين هممهم وإراداتهم لا يتحركون

---

(١) سورة العنكبوت :الآيتان ٢ ، ٣ .
(٢) سورة التوبة الآية ٥١ .
(٣) رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

حركة أصلاً إلا فيما يرجون به طرد الهم ، ولا ينطقون بكلمة أصلاً إلا فيما يعانون به إزاحته عن أنفسهم ، فمن مخطىء وجه سبيله ومن مقارب للخطأ ، ومن مصيب وهو الأقل من الناس فى الأقل من أموره ، فطرد الهم مذهب قد اتفقت الأمم كلها ، منذ خلق الله تعالى العالم إلى أن يتناهى عالم الابتداء ويعاقبه عالم الحساب ، على أن لا يعتمدوا بسعيهم شيئًا سواه وكل غرض غيره ففى الناس مَنْ لا يستحسنه ، إذ فى الناس من لا دين له فلا يعمل للآخرة ، وفى الناس من أهل الشر من لا يريد الخير ولا الأمن ، ولا الحق .

وفى الناس من يؤثر الخمول بهواه وإرادته على بُعْد الصيت ، وفى الناس من لا يريد المال ، ويؤثر عدمه على وجوده ككثير من الأنبياء عليهم السلام ومن تلاهم من الزهاد والفلاسفة ، وفى الناس من يبغض اللذات بطبعه ، ويستنقص طالبها ، كمن ذكرنا من المؤثرين فقد المال على اقتنائه .

وفى الناس من يؤثر الجهل على العلم ، كأكثر مَنْ ترى من العامة . وهذه هى أغراض الناس التى لا غرض لهم سواها .

وليست فى العالم منذ كان إلى أن يتناهى أحد يستحسن الهم ، ولا يريد طرده عن نفسه ، فلما استقر فى نفسى هذا العلم الرفيع وانكشف لى هذا السر العجيب ، وأنار الله تعالى لفكرى هذا الكنز العظيم ، بحثت عن سبيل موصلة على الحقيقة إلى طرد الهم الذى هو المطلوب للنفس ، الذى اتفق جميع أنواع الإنسان الجاهل منهم والعالم والصالح منهم والطالح ، على السعى له ، فلم أجدها إلا التوجه إلى الله عز وجل بالعمل للآخرة .

وإلا فإنما طلب المال طلابه ليطردوا به همّ الفقر عن أنفسهم . وإنما طلب الصوت (الصيت) من طلبه ليطرد به عن نفسه همّ الاستعلاء عليها .

وإنما طلب اللذات من طلبها ليطرد بها عن نفسه همّ فوتها .

وإنما طلب العلم من طلبه ليطرد به عن نفسه هم الجهل .

وإنما هش إلى سماع الأخبار ومحادثة الناس ، من يطلب ذلك ليطرد بها عن نفسه همّ التوحد ومغيب أحوال العالم عنه .

وإنما أكل من أكل ، وشرب من شرب وَنَكَحَ من نكح ، ولبس مَنْ لبس ، ولعب من لعب ، واكْتَنَّ من اكتن ، وركب من ركب ، ومشى من مشى ، وتودع من تودع ، ليطردوا عن أنفسهم أضداد هذه الأفعال وسائر الهموم .

وفى كل ما ذكرنا لمن تدبر ، هموم حادثة لابد لها من عوارض تعرض فى خلالها وتعذُّر ما يتعذّر منها ، وذهاب ما يوجد منها والعجز عنه لبعض الآفات الكائنة وأيضًا نتائج سوء تنتج بالحصول على ما حصل عليه من كل ذلك ، من خوف منافسٍ أو طعن حاسد ، أو اختلاس راغبٍ ، أو اقتناء عدوٍ ، مع الذم والإثم ، وغير ذلك .

ووجدت العمل للآخرة سالمًا من كل عَيْب ، خالصًا من كل كدر ، موصلاً إلى طرد الهم على الحقيقة ووجدت العامل للآخرة إن امتحن بمكروه فى تلك السبيل لم يهتم ، بل يُسَرُّ ، إذ رجاؤه فى عاقبة ما يُنال به عونٌ له على ما يطلب ، وزائد فى الغرض الذى إيّاه يقصد .

ووجدته إن عاقه عمّا هو بسبيله عائق لم يهتم ، إذ ليس مؤاخذاً بذلك ، فهو غيرُ مؤثرٍ في ما يطلب .

ورأيته إن قُصد بالأذى سُرَّ ، وإن نكبته نكبة سُرَّ ، وإن تعب فيما سلك فيه سُرَّ ، فهو في سرور متصل أبدًا وغيره بخلاف ذلك أيضًا .

فاعلم أنه مطلوب واحد ، وهو طرد الهم ، وليس له إلا طريق واحد ، وهو العمل لله تعالى ، فما عدا هذا فضلال وسُخف[1] .

٥ – أهمية الدعوة والحاجة إليها :

هل يمكن للعقل البشرى أن يغنى عن وحى الله ورسالاته ويهتدى إلى الخير والصلاح بنفسه دون حاجة إلى هدايات الله وكتبه ورسله ؟

الحق أننا – مع احترامنا البالغ للعقل الإنساني – والضمير الإنسانى لا نرى فيهما غناءً عن كلام الله وسنن المرسلين .

ذلك لأن الدين جاء هاديًا للعقل فى أمور أهمها :

١ – أولاً : ما وراء الطبيعة : أى العقائد الخاصة بالله – سبحانه – وبرسله عليهم الصلاة والسلام ، وباليوم الآخر ، وبالغيب الإلهى ، على وجه العموم[2] ، وذلك لأن أمور العقيدة والغيبيات غير داخلة فى مجال العقل ودائرته « فمن أين للعقل معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته ومن أين له معرفة تفاصيل شرعه لعباده ؟ ومن أين له معرفة تفاصيل محبته ، ورضاه وسخطه وكراهيته ؟ ومن أين له معرفة تفاصيل

---

(١) ابن حزم : الأخلاق والسير ٨٧ – ٩٣ .
(٢) دكتور عبد الحليم محمود : الإسلام والعقل ١٧ .

ثوابه وعقابه ، وما أعدّ لأوليائه ، وما أعد لأعدائه ومقادير الثواب والعقاب وكيفيتهما ، ودرجاتهما ؟ ومن أين له معرفة الغيب الذى لم يُظْهِرِ الله عليه أحدًا من خلقه إلا من ارتضاه من رسله إلى غير ذلك مما جاءت به الرسل ، وبلغته عن الله وليس فى العقل طريق إلى معرفته »[1] .

٢ — **وثانيًا** : فى مسائل الأخلاق : أى الخير والفضيلة ، وما ينبغى أن يكون عليه السلوك الإنسانى ليكون الشخص صالحًا .

وحتى لو اهتدت العقول البشرية إلى إدراك الخير والشر ، فقد تتغلب عليها الشهوات أو يشتد بها الغضب والحسد ، فيصرفها عن النافع أو تقع فى الضار[2] .

وثالثًا : فى مسائل التشريع الذى ينتظم به المجتمع وتسعد به الإنسانية ، وجاء الدين هاديًا فى هذه المسائل بالذات ، لأن العقل إذا بحث فيها مستقلاً بنفسه فإنه لا يصل فيها إلى نتيجة يتفق عليها الجميع .

ومعنى ذلك : أنه لو ترك الناس وعقولهم فى هذه المسائل فإنهم يختلفون ويتفرقون فرقًا عديدة ويتنازعون ، ولا ينتهى الأمر بهم إلى الوحدة والانسجام ، ولا إلى الهدوء والطمأنينة .

وذلك لاختلاف المدارك والمشارب ، فترى الإنسان يستحسن عين ما يستهجنه غيره ، بل الإنسان الواحد قد يظهر له الشىء حسنًا فى وقت فإذا لم يلائم غرضه فى وقت آخر عدّه قبيحًا[2] .

---

(١) ابن قيم الجوزية : مفتاح دار السعادة ٤٥٤ .

(٢) الإسلام والعقل ١٨ وهداية المرشدين ١٨ .

يقول الشيخ الجليل أبو سليمان المنطقى :

« إن منازل الناس متفاوتة فى العقل ، وأنصباءهم مختلفة فيه » ومعنى ذلك أن هذا الذى يروق لشخص عقليًا ربما لا يروق لغيره عقليًا ، ويجب من أجل ذلك ألا يتدخل العقل فى الدين ، وإلا لاختلف الناس باختلاف عقولهم وادعى كل أن ما هو عليه : إنما هو الحق وما عليه غيره هو الباطل ونتج عن ذلك اتباع كلٌ أهواءه .

﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾[1] . فتتفرق الأمة ، وتخرج على ما أحبه الله وأمر به[2] .

والإمام الغزالى رضى الله عنه : يمثل لذلك بمثال معبر فيذكر قصة رجل بنى له أبوه قصرًا على رأس جبل ووضع فيه شجرة من حشيش طيب الرائحة وأكد الوصية على ولده مرة بعد أخرى ، ألا يخلى هذا القصر عن هذا الحشيش طوال عمره .

وقال : إياك أن تسكن هذا القصر ساعة من ليل أو نهار إلا وهذا الحشيش فيه فزرع الولد حول القصر أنواعًا من الرياحين وطلب من البر والبحر أوتادًا من العود والعنبر والمسك وجمع فى قصره جميع ذلك من شجرات كثيرة من الرياحين الطيبة الرائحة .

فانغمرت رائحة الحشيش لما فاحت هذه الروائح .

---

(١) سورة الجاثية آية ٢٣ .

(٢) انظر : كتاب أخبار العلماء باخبار الحكماء للقفطى ، وانظر – أيضًا – دكتور عبد الحليم محمود : الإسلام والعقل ٢٩ .

فقال : لا أشك أن والدى ما أوصانى بحفظ الحشيش إلا لطيب رائحته والآن قد استغنينا بهذه الرياحين عن رائحته فلا فائدة فيه الآن إلا أن يضيق علىّ المكان فرماه من القصر .

فلما خلا القصر من الحشيش ، ظهر من بعض ثقوب القصر حية هائلة وضربته ضربة أشرف بها على الهلال فتنبَّه حيث لم ينفعه التنبه : إن الحشيش كان من خاصيته دفع هذه الحية المهلكة وكان لأبيه بالوصية بالحشيش غرضان :

أحدهما : انتفاع الوالد برائحته ، وذلك قد أدركه الولد بعقله .

والثانى : اندفاع الحيات المهلكات برائحته ، وذلك مما قصر عن دركه بصيرة الولد فاغتر الولد بما عنده من العلم وظن أنه لا سر وراء معلومه ومعقوله كما قال تعالى : ﴿ذلك مبلغهم من العلم﴾ .

وقال سبحانه : ﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم﴾ :

والمغرور من اغترّ بعقله فظن أن ما هو منتف عن علمه فهو منتف فى نفسه[1] .

بطلان قول البراهمة :

والبراهمة الذين يزعمون أن العقل يغنى عن الوحى لا نحتاج إلى إيراد الحجج لإبطال قولهم وكل ما نفعله أن نوجه الأنظار إلى ما قادتهم إليه عقولهم التى زعموا أنها يستغنون بها عن الوحى ، هذا زعيم من

(١) الإسلام والعقل ٢٧ .

زعمائهم فى القرن العشرين يقول مفاخراً[1] : « عندما أرى البقرة لا أجدنى أرى حيوانًا ، لأنى أعبد البقرة ، وسأدافع عن عبادتها أمام العالم أجمع » . ولقد قاده عقله إلى تفضيل أمه البقرة على أمه التى ولدته : « وأمى البقرة تفضل أمىّ الحقيقية من عدة وجوه ، فالأم الحقيقية ترضعنا مدة عام أو عامين وتتطلب منا خدمات طوال العمر نظير هذا ، ولكن أمنا البقرة تمنحنا اللبن دائمًا ولا تطلب منا شيئًا مقابل ذلك سوى الطعام العادى » .

ومضى عابد البقرة يقارن بين أمه البقرة وأمه الحقيقية موردًا الحجج والبراهين على أفضلية أمه البقرة على أمه الحقيقية إلى أن قال : « إن ملايين الهنود يتجهون للبقرة بالعبادة والإجلال ، وأنا أعد نفسى واحدًا من هؤلاء الملايين[2] .

هذه بعض الترهات التى هدتهم إليها عقولهم التى زعموا أن فيها غنية عن الوحى الإلهى .

— كذلك مما يدل على أهمية الدعوة إلى الله وحاجة البشرية إليها أن ننظر إلى ما وصلت إليه الدول التى نسميها متقدمة متحضرة كأمريكا وبريطانيا ، وفرنسا وروسيا والصين — لتعلم مدى الشقاء الذى يغشاهم ، نحن لا ننكر أنهم بلغوا فى التقدم المادى شأوًا بعيدًا ولكنهم فى الجانب الآخر الذى جاء الرسل وجاءت تعاليمهم لإصلاحه انحدروا انحدارًا بعيدًا ، لا ينكر أحد أن الهموم والأوجاع

---

(١) هو زعيم الهند غاندى .

(٢) د. أحمد شلبى : أديان الهند الكبرى ص٣٢ .

النفسية والعقد النفسية -اليوم- سمة العالم المتحضر ، الإنسان فى العالم المتحضر اليوم فقد إنسانيته وخسر نفسه ، ولذلك فإن الشباب هناك يتمردون على القيم والأخلاق والأوضاع والقوانين ، أخذوا يرفضون حياتهم التى يعيشونها ، وأخذوا يتبعون كل ناعق من الشرق أو الغرب يلوح لهم بفلسفة أو دروشة أو طريق يظنون فيه هناءهم ، لقد تحول عالم الغرب إلى عالم تنخر الجريمة عظامه ، وتقوده الانحرافات والضياع ، لقد زلزلت الفضائح أركان الدول الكبرى ، والخافى أعظم وأكثر من البادى ، إن الذين يسمون - اليوم - بالعالم المتحضر يخربون بيوتهم بأيديهم حضارتهم تقتلهم ، حضارتهم تفرز سمومًا تسرى فيهم فتقتل الأفراد وتفرق المجتمعات الذين نسميهم اليوم بالعالم المتحضر كالطائر الجبار الذى يريد أن يحلق فى أجواز الفضاء بجناح واحد[1] .

وها نحن نذكر بعض الأمثلة على الحالة الخطيرة التى وصلت إليها دول أوروبا وأمريكا التى ابتعدت عن هدى الله ، ونسيت يوم عرضه ولقاه ، حتى يعلم الدعاة إلى الله حاجة العالم إلى تعاليم الإسلام وهدى محمد ﷺ .

* فى أمريكا :

دلت الإحصائيات أن عدد الطالبات الحوامل دون زواج فى مدارس «نيويورك» وحدها بلغ ٢٤٨٧ حاملاً فى عام ١٩٦٩ ، ودلت

(١) د . عمر الأشقر : الرسل والرسالات ص ٣٠ (بتصرف) .

الإحصائيات الحديثة أن ربع طالبات المدارس الثانوية حبالى وأن البكارة مفقودة البتة[1] .

وجاء فى كتاب أساليب الغزو الفكرى للدكتور على جريشة ص ٢٢٦ : « يقع فى أمريكا أربعة ملايين ونصف مليون جريمة خطيرة تقع كل عام : جريمة قتل كل ٢٩ دقيقة ، جريمة اغتصاب (زنى بالإكراه) كل ١٧ دقيقة ، جريمة اغتصاب مال كل دقيقتين جريمة سرقة كل ١٧ ثانية » .

وقرر « كنيدى » فى تصريحه الخطير سنة ١٩٦٢م أن مستقبل أمريكا فى خطر ، لأن شبابها مائع منحل غارق فى الشهوات ، لا يقدر المسئولية الملقاة على عاتقه ، وأنه من بين كل سبعة شبان يتقدمون للتجنيد يوجد ستة غير صالحين ، لأن الشهوات التى أغرقوا فيها أفسدت لياقتهم الجسمية والنفسية »[2] .

* وفى إنكلترا :

نشرت جريدة « التايمز » اللندنية تقارير طبية ، وصرخات رسمية وخاصة عديدة بشأن الإجهاض وخطره منها :

وقفت « الجمعية الطبية البريطانية » مذهولة إزاء أرقام الإجهاض الملحوظة فى الربع الأول من سنة ١٩٧١م (أى خلال ٩٠ يوما فقط) والبالغة (٢٢٨٠٨) حادثة وردت حسب العمر على الشكل التالى :

---

(١) عبد الله علوان : الدعوة الإسلامية والإنقاذ العالمى ص ١٣ .

(٢) السابق ص ١٤ .

السن	عدد الحوادث
أقل من ١٦	٥٣٣
١٦ – ١٩	٤٠٢٣
٢٠ – ٣٤	١٣٨٧٣
٣٥ – ٤٤	٣٧٨٦
٤٥ فما فوق	١١٤
بدون تحديد	٢١٧

هذا وقد علقت الجمعية الطبية المذكورة على العدد الإجمالى لحوادث الإجهاض لعام ١٩٧١ البالغ (٨٠٧٢٣) حادثة قائلة :

إن الزيادة فى عدد حوادث الإجهاض فى الوقت الحالى تحتم علينا المطالبة بوضع حد حازم وفعال للإجهاض وخاصة وأنّ الأرقام فى زيادة مستمرة .

* وفى الدنمارك :

قامت مظاهرة نسائية ضخمة فى شوارع عاصمتها (كوبنهاغن) سنة ١٩٧٠م تناقلتها بعض وكالات الأنباء على أمواج الأثير ، ونشرتها أكثر صحف العالم منها مجلة الأسبوع العربى – اشترك فى المظاهرة عدد كبير من الفتيات وطالبات الجامعة .. وكن يرددن الهتافات المكتوبة على اللافتات المحمولة أثناء المظاهرة :

نرفض أن نكون أشياء ..

نرفض أن نكون سلعًا لتجار الإباحية .

سعادتنا لا تكون إلا فى المطبخ

نريد أن تبقى المرأة فى البيت .

أعيدوا لنا أنوثتنا .

إننا نرفض الإباحية .

وحكومة الدنمراك اعتبرت هذه المظاهرة النسائية انتفاضة جديدة من نوعها فى سبيل الأنوثة واعتبرتها قضية عامة لها أهميتها[1] .

وفى الشرق والغرب عامة[2] :

* أفواج الهيبز والخنفس : شباب فارغ روحيًا وخلقيًّا وفكريًا أهملته الحضارة المادية ، فلم تملأ فراغه ، فراح يملؤه بالعبث واللهو والمجون والإباحية . فغدا يتخلق ويتصرف حسب الأهواء ، مرة يلبس القصير الضيق ، وأخرى الطويل الفضفاض ، ومرة يطيل شعره حتى يبلغ ظهره وأخرى يحلقه من أصله ، ومرة يحاكى الحشرات ، وأخرى يقلد الحيوانات ، إلى غير ذلك من هذه المتناقضات التى تشمل كل التصرفات سواء أكانت فكرية أم سلوكية أم نفسية .

* الاستغراق فى حياة الجنس والميوعة : حتى صار الجنس وعملياته شيئًا يرافق الفرد الغربى أو الشرقى ، أينما وجد وحيثما حل وارتحل ، وفى جميع جوانب حياته .. حتى غدا شيئًا مألوفًا وعاديًا ومتعارفًا عليه دون تفريق بين خير وشر ، أو فضيلة ورذيلة أو حلال وحرام .

---

(١) ارجع إلى كتاب (خطر التبرج والاختلاط) . للأستاذ عبد الباقى رمضون ص١٣٧ - ١٤٩ (نقلا عن عبدالله علوان ص ٢١) .

(٢) المرجع السابق .

ففى مسرحية « هير » ظهر فيها الممثلون عراة تمامًا على خشبة المسرح .

وفى نيويورك ظهرت مسرحية « تشى غيفارا » وقف فيها الممثلون ليمارسوا عملية الشذوذ الجنسى (اللواط) أمام أعين المتفرجين .

وفى نيويورك أيضًا ظهرت مسرحية « أوه كالكوتا » تحتوى على عشر شخصيات :خمسة رجال وخمس نساء .. وقفوا جميعًا ليقوموا بعملية العلاقة الجنسية علانية أمام الجمهور بلا حياء ولا خجل .

وفى فرنسا جزيرة ملقبة بجزيرة العرايا ، يتعرى من يأتى إليها من كل فضيلة وشرف ويخوض من يريد مفاسدها حياة الرذيلة والفاحشة[1] .

* أما عن وضع المرأة فى الحضارة الغربية فقد دفع بها الوضع الاجتماعى الذى لا يرحم إلى أن أصبحت تطرد من المنزل بعد سن الثامنة عشرة لكى تبدأ فى الكدح لنيل لقمة العيش ، وإذا ما رغبت – أو أجبرتها الظروف – فى البقاء فى المنزل مع أسرتها بعد هذه السن فإنها تدفع لوالديها إيجار غرفتها وثمن طعامها وغسيل ملابسها بل تدفع رسما معينًا مقابل اتصالاتها الهاتفية[2] . وإذا حظيت الطريدة بأى عمل فإنها تستشعر دومًا تهديد البطالة والأزمات الاقتصادية وتظل خاضعة لاستغلال الرأسماليين أو عبودية الدولة – إن كانت شيوعية–

---

(١) المرجع السابق .

(٢) انظر المرأة بين الفقه والقانون : مصطفى السباعى ٣٠٠ (نقلا عن سفر الحوالى ٤٣٤) .

ويؤدى إرهاقها المستمر وقلقها الدائم إلى أن تفقد طبيعتها الأنثوية وتصبح عرضة للأمراض العصبية وفى بعض الأحيان لا تجد وسيلة للخلاص من هذا الكابوس الرهيب أفضل من الانتحار[١] .

وحيال ذلك ماذا فى وسع المرأة أن تفعل ؟ بأى شىء تواجه المجتمع النكد الذى يلهب ظهرها بالسياط ويقطع عليها طريق العودة إلى فطرتها ؟ ليس هناك إلا أحد سبيلين : إما الانتقام من هذا المجتمع الظالم بترويعه وتعكير صفوه كما جاء فى التقرير الذى نشرته الصحف من أنه « بلغت عدد سرقات المتاجر الكبيرة فى إنجلترا خلال عام ١٩٦٠ نحو ٣٢١٩٤ سرقة هذا عدا الحالات التى لم تبلغ لإدارة البوليس ، والغريب أن ٦٠٪ من هذه السرقات ارتكبتها نساء جاوزن سن البلوغ و٣٠٪ ارتكبها ذكور أقل من السابعة عشرة ، وتقول الإحصائيات إن كل السارقات من النساء لم يكن فى حاجة للمال »[٢] .

نعم إنها ليست الحاجة للمال ولكنها الرغبة فى الانتقام من الآخرين وتفريغ السخط .

وإما الانتقام من نفسها بالانتحار كما فعلت الممثلة الشهيرة « مارلين مونرو » التى كتبت قبيل انتحارها نصيحة لبنات جنسها تقول فيها :

« احذرى المجد .. احذرى من كل من يخدعك بالأضواء .. إنى أتعس امرأة على هذه الأرض .. لم أستطع أن أكون أما .. إنى امرأة

---

(١) د . سفر الحوالى العلمانية ٤٣٤ .

(٢) مصطفى السباعى : المرأة بين الفقه والقانون ٢٥٧ – ٢٦٨ (نقلا عن العلمانية ٤٣٦) .

أفضل البيت .. والحياة العائلية الشريفة على كل شيء .. إن سعادة المرأة الحقيقية فى الحياة العائلية الشريفة الطاهرة بل إن هذه الحياة العائلية هى رمز سعادة المرأة بل الإنسانية » وتقول فى النهاية « لقد ظلمنى كل الناس .. وأن العمل فى السينما يجعل من المرأة سلعة رخيصة تافهة مهما نالت من المجد والشهرة الزائفة »(١) .

ومادمنا بصدد الحديث عن وضع المرأة فى الحضارة الغربية فلعل من الخير أن نورد بعد المشاهدات التى قدمها لنا طبيب مسلم يسكن فى بريطانيا ويعمل طبيبا للأمراض النفسية ، يقول متحدثًا عن المرأة الغربية والزواج :كنت أستغرب عند بداية إقامتى فى بريطانيا أن المرأة هى التى تنفق على الرجل، وكنت أشاهد هذه الظاهرة عندما أركب القطار أو أدخل المطعم، إذ ليس فى قاموس الغربيين شيء اسمه «كرم» .

وبعد حين زال هذا الاستغراب ، وأخبرنى المرضى عن أسباب هذه الظاهرة ، وفهمت منهم بأن الرجل لا يحب الارتباط بعقد زواج ، ويفضل ما أسموه (صديقة) والمرأة تسميه (صديقًا) وليس هو أو هى من الصدق فى شيء ، وكم أساءوا لهذه الكلمة النبيلة ، فالصديق يعنى : الصدق ، والمحبة والمروءة ، والنخوة ، والكرم ، والوفاء وما إلى ذلك من معان طيبة كريمة .

والصديق عندهم يعيش مع امرأة شهورًا أو سنين ولا ينفق عليها ، بل هى تنفق عليه فى معظم الحالات ، وقد يغادر البيت متى شاء ،

---

(١) المرأة بين الفقه والقانون : مصطفى السباعى ٢٧٣ -٢٧٤ . (د/ سفر الحوالى ٤٣٦) .

أو يطلب منها مغادرة بيته ، إن كانت تعيش معه فى بيته ، ولهذا فالمرأة عندهم تعيش فى قلق وخوف شديدين ، وتخشى أن يرتبط صديقها !! بامرأة ثانية ويطردها ، ثم لا تجد صديقًا آخر ، وكما يقولون « بالمثال يتضح المقال » فسوف أختار مثالاً واحدًا من أمثلة كثيرة تبين وضع المرأة عندهم .

رأيت فى عيادة الأمراض النفسية امرأة فى العشرينات من عمرها وكانت حالتها النفسية منهارة ، وبعد حين من الزمن شعرّت بشىء من التحسن . وأصبحت تتحدث عن وعى فسألتها عن حياتها فأجابت ، والدموع تنهمر من عينيها قالت :

مشكلتى الوحيدة أننى أعيش بقلق واضطراب ، ولا أدرى متى سينفصل عنى صديقى ، ولا أستطيع مطالبته بالزواج منى لأننى أخشى من موقف يتخذه ، ونُصِحتُ بالعمل على إنجاب طفل منه ، لعل هذا الطفل يرغبه فى الزواج ، وها أنت ترى الطفل كما أنك ترانى ولا ينقصنى جمال ومع هذا وذاك فأبذل كل السبل من تقديم خدمات وإنفاق مال ، ولم أنجح فى إقناعه بالزواج ، وهذا سر مرضى ، وسبب قهرى إننى أشعر بأننى وحدى فى هذا المجتمع ، فليس لى زوج يساعدنى على أعباء الحياة ، ولى أهل ولكن وجودهم وعدمهم سواء ، وليتنى بقيت بدون أطفال لأننى لا أريد أن يتعذب ويشقى فى هذه الحياة كما تعذبت وشقيت .

ثم يقــول الدكتور عبد الله مبارك الخاطر : وهذه المرأة المريضة ليست من شواذ المجتمع الغربى ، بل الشواذ هم الذين يعيشون حياة هادئة ومع ذلك ينقد الغربيون مجتمعاتنا الإسلامية ويزعمون بأن المرأة

تعيش فى بلادنا حياة بائسة محزنة ونحن لا يهمنا رأى الغرب بنا ولا نطلب حسن سلوك ، ولكن نريد من نسائنا أن يحمدن الله سبحانه وتعالى على نعمة الإسلام فلقد كانت المرأة فى الجاهلية ذليلة مهينة وجاء الإسلام ليرفع مكانتها وبفضل من الله سبحانه وتعالى أصبح الرجل يبحث عن المرأة ، ويطلب الزواج منها ، وهى قد تقبل وقد ترفض ، ولأهلها دور كبير فى أمر زواجها ، سواء أكانت عند زوجها أم فى بيت أبيها فهى عزيزة كريمة ، والرجال هم الذين ينفقون عليها ، بل والذى نشكو منه فى بلادنا الغلو فى المهور ، والتكاليف الباهظة التى تفرض على الرجل حتى يحصل على زوجة[1]

﴿يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علىَّ إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين﴾[2] .

ويذكر الدكتور عبدالله مبارك الذى يعيش فى بريطانيا حادثة أخرى لا تقل عن سابقتها فى بيان ما وصلت إليه الحضارة الغربية من قسوة وشقاء وتقطع للعلاقات الاجتماعية والروابط الأسرية فيقول :

كانت جارتنا عجوزًا يزيد عمرها على سبعين عامًا .. وكانت تستثير الشفقة حين تشاهد . وهى تدخل وتخرج وليس معها من يساعدها من أهلها وذويها .. كانت تبتاع طعامها ولباسها بنفسها، كان منزلها هادئًا ليس فيه أحد غيرها ولا يقرع بابها أحد .

---

(١) مجلة البيان ص ٥٩ – ٦٠ (تصدر عن المنتدى الإسلامى بلندن) .

(٢) سورة الحجرات : الآية (١٧) .

وذات يوم قمت نحوها بواجب من الواجبات التى أوجبها الإسلام علينا نحو جيراننا ، فدهشت أشد الدهشة لما رأت مع أننى لم أصنع شيئًا ذا بال ولكنها تعيش فى مجتمع ليس فيه عمل خير ولا يعرف الرحمة والشفقة ، وعلاقة الجار لجاره لا تعدو فى أحسن الحالات تحية الصباح والمساء .

جاءت فى اليوم الثانى إلى منزلنا بشىء من الحلوى للأطفال ، وأحضرت معها بطاقة من البطاقات التى يقدمونها فى المناسبات ، وكتبت على البطاقة عبارات الشكر والتقدير لما قدمناه نحوها .. وشجعتها على زيارة زوجتى فكانت تزورها بين الحين والآخر ، وخلال ترددها على بيتنا عَلِمَتْ بأن الرجل فى بلادنا مسئول عن بيته وأهله، يعمل من أجلهم، ويبتاع لهم الطعام واللباس ، كما علمت مدى احترام المسلمين للمرأة سواء أكانت بنتًا أم زوجة أم أمًّا ، وبشكل أخص عندما يتقدم سنها حيث يتسابق ويتنافس أولادها على خدمتها وتقديرها ومن أعرض عن خدمة والديه وتقديم العون لهما كان منبوذًا عند الناس .

كانت المرأة المسنة تلاحظ عن كثب تماسك العائلة المسلمة ، كيف يعامل الوالد أبناءه . وكيف يلتفون حوله إذا دخل البيت وكيف تتفانى المرأة فى خدمة زوجها .. وكانت المسكينة تقارن بما هى عليه وما نحن فيه كانت تذكر أن لها أولادًا وأحفادًا لا تعرف أين هم ؟ ولا يزورها منهم أحد ، قد تموت وتدفن أو تحرق وهم لا يعلمون ،ولا قيمة لهذا الأمر عندهم ، أما منزلها فهو حصيلة عملها وكدها طوال عمرها ، وكانت تذكر لزوجتى الصعوبات التى تواجه المرأة الغربية فى العمل وابتياع حاجيات المنزل ثم أنهت حديثها قائلة :

إن المرأة فى بلادكم « ملكة » ولولا أن الوقت متأخر جدًا لتزوجت رجلا مثل زوجك ولعشت كما تعيشون .

ومثل هذه الظاهرة يدركها كل من يدرس أو يعمل فى ديار الغرب ، ومع ذلك فلا يزال فى بلادنا من لا يخجل من تقليد الغربيين فى كل أمر من أمور حياته ، ولا تزال فى بلدان العالم الإسلامى صحف ومجلات تتحدث بإعجاب عن لباس المرأة الغربية وعمل المرأة الغربية والأزياء الغربية ، والحرية التى تعيش فى ظلها المرأة الغربية[١] !

بقى أن نختم حديثنا عن أمراض الحضارة المعاصرة وحاجتها إلى الدعوة الإسلامية بما ورد فى الصحافة العالمية عن ظاهرة « الانتحار » فى المجتمعات المتحضرة والتى هى الغاية فى الهرب من جحيم تلك الحضارة وويلاتها حيث بلغت حدًّا من الانتشار حتى أصبحت فى رأى علماء النفس والاجتماع صرعة غربية .

فالواقع السريع للتطور التكنولوجى المتلاحق ، والاتجاه الشرس نحو المادية المفرطة وتفكك الروابط والعلاقات الاجتماعية والأسرية أوجدت إحساسًا بالضياع ، وأوجدت أزمة هوية لدى الشباب والمراهقين فى بلاد الغرب التى أصبحت مهددة بانهيار نفسى وجماهيرى .

هذا الإحساس بالضياع الذى يعيشه مراهقو الغرب أوجد نزعة نحو التخلص من مشاكل الحياة المادية باللجوء إلى الانتحار .. فقد أجرت مجلة المراهق الأمريكية مسحًا بين عينة من الصبية والفتيات فى فئة السن بين ١٥ ، ١٩ عامًا لاستطلاع مشاعرهم تجاه ظاهرة الانتحار

---

(١) مجلة البيان اللندنية : العدد الرابع جمادى الآخرة ١٤٠٧هـ ص ٩٧ .

المتزايد فى المجتمع الأمريكى .. المسح الذى شارك فيه أكثر من « ٥٠٠ » صبى وفتاة جاءت بنتائج مفزعة تقول :

إن الثلث ممن وجهت إليهم الأسئلة حاولوا فعلا التخلص من حياتهم ، بعد أن استسلموا لليأس والقنوط ، ولقد روعى فى تكوين واختيار تلك العينة أن تكون ممثلة لواقع المجتمع الأمريكى بجميع طبقاته . وينتهى المسح أيضًا إلى أن ٧٣٪ من الشباب والمراهقين فكروا فى الإقدام على الانتحار مرة أو أكثر خلال حياتهم .

ويشير الاستطلاع إلى ظاهرة أخرى .. وهى أن غالبية من حاولوا الانتحار هن من الفتيات فى أخطر مراحل العمر وأحوجها إلى الجو النفسى الأسرى عند رفضها أو عجزها عن دفع تكاليف سكنها ومعيشتها !!

يُنْشَرُ هذا الاستطلاع فى وقت ينعق فيه أدعياء تحرير المرأة المسلمة !! ليخرجوها من عش وجو الأسرة الآمن إلى حيث القلق والاضطراب النفسى والأخلاقى .

أما عن أسباب الانتحار فهى عديدة ومتنوعة وأكثرها شيوعًا حسب ما كشفت عنه الإجابات هو صراع الجيلين – أى الخلاف بين المراهق ووالديه ولاسيما وأن الأب ينتمى إلى عهد كان أَقَلَّ شراسة فى ماديته .. وثمة دوافع أخرى فى رأى المراهقين إذ يقول من أجرى عليهم المسح إن الإحساس بالوحدة يدفع إلى التفكير فى الانتحار وكذلك الانزعاج والاستياء من المظهر الشخصى للمرء يُزَهِّدِهِ فى حياته وخلافه مع صديقه أو صديقته يجعله يريد أن يبرح الدنيا .. ومما يزيد الطين بلّة

أن الشخصية الانتحارية لا تجد من تفضى إليه بمكنوناتها حتى تزول الغمة وتنفرج الأسارير .. وفى ذلك تقول نتائج المسح إن ربع من فكروا أو أقدموا على الانتحار فعلوا ذلك بعد أن خاب أملهم فى وجود من يسرون إليه بمعاناتهم[1] .

وفى اليابان حيث التقدم الصناعى والقفزات المادية السريعة أفاد تقرير رسمى نشر بتاريخ ١٢/٢/١٩٨٧م أن ٨٠٢ من الشباب اليابانى المراهق قد انتحروا فى العام الماضى ، مما يشكل زيادة بواقع ٤٤٪ عن العام الذى سبقه ، وقال تقرير وكالة الشرطة القومية إن ٢٩٩ فتاة قد انتحرت خلال عام ١٩٨٦م وذلك بزيادة ٦,٩٪ سجلت أعلى رقم قياسى .

وذكر التقرير أن مشاكل المدارس كانت حافزًا لانتحار ٢٠٧ شاب ، تليها المشاكل العائلية التى أودت بحياة ١٠٧ أشخاص والمشاكل الغرامية التى ذهب ضحيتها أكثر من ٩٠ شخصًا[2] .

وإذا كان وباء العصر « الإيدز » يقضى على مئات الأشخاص كل سنة فى المجتمعات الأمريكية والأوربية فإن من المصابين به من يفضل أن يموت بيده لا بيد فيروس المرض احتجاجًا على إصابته به ، فيقدم على الانتحار كما أقدم زوجان إيطاليان بأن أطلقا على نفسيهما النار بعد أن أوصيا برعاية ابنهما الوحيد[3] .

---

(١) صحيفة الشرق الأوسط بتاريخ ٢٢/٤/١٩٨٧م .
(٢) صحيفة الجارديان بتاريخ ٢٠/١٢/١٩٨٦م .
(٣) الشرق الأوسط بتاريخ ٥/٢/١٩٨٧م .

وإن كان بعض ما تقدم من حالات أو محاولات الانتحار يبدو له ما يبرره – على مستوى العقلية المادية على الأقل – فإن كثيرًا من ممارسى هذه الظاهرة قد قضوا نحبهم لأسباب تبدو تافهة أو مضحكة فى نظر من أوتى عقلاً وإيمانًا .

* ففى تقرير حوادث الانتحار اليابانية – سابق الذكر – تعتقد الشرطة أن الزيادة الحادة فى إقدام الفتيات على الانتحار جاءت بعد انتحار المغنية الشهيرة « يوكيكو أو كادا ١٨ عام » التى قفزت من أعلى مبنى شاهق فى طوكيو فى إبريل ١٩٨٦م[١] .

* وأقدمت الأم البريطانية على الانتحار بعد ما فشلت فى العثور على دواء يضع حدًّا لتساقط شعرها مخلفة وراءها ثلاثة أولاد عن عمر يبلغ ٤٣ عامًا[٢] .

* وانتحر الأب الإنجليزى ذو الخمسين عامًا بسبب مضايقات حماته بعد أن نفَّذ مذبحة فى أسرته ضمنها العجوز التى كانت سببًا فى انتحاره[٣] .

* وأن آخر يقذف بنفسه وطفله من الطابق التاسع عشر احتجاجًا على حكم المحكمة بضم الابن لصالح الأم المطلقة[٤] .

* وأخرى تقرر مفارقة الحياة بسبب مرض جلدى فى وجهها[٥] .

---

(١) القبس ١٩٨٧/٢/١٣م .
(٢) القبس ١٩٨٦/٩/١٩م .
(٣) الشرق الأوسط ١٩٨٧/٥/١٣م .
(٤) الشرق الأوسط ١٩٨٧/٤/٢٢م .
(٥) الشرق الأوسط ١٩٨٧/٦/٣٠م .

إلى آخر ما هنالك من الحالات الفردية التى فارقت الحياة لأتفه الأسباب .

وما أوردنا مثل هذه الحالات إلا ليتعرف القارىء المسلم عن كثب ما تعيشه الشعوب الغربية من قلق واضطراب نفسيين وخواء روحى وضيق أفق نتيجة البعد عن منهج الله ، والنظرة المادية القاصرة للكون والحياة[1] .

٦ - النجاة فى الدعوة إلى الله :

جعل الله النجاة مترتبة على الدعوة إليه - سبحانه - والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فقال عز وجل :

- ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بَئِيسٍ - أى : شديد - بما كانوا يفسقون﴾[2] .

فبين أنهم استفادوا النجاة بالنهى عن السوء .

- وعن النعمان بن بشير رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : « مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها ، كمثل قوم استهموا على سفينة ، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقًا فلم نؤذ من فوقنا.

فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا .

---

(١) البيان ص ٩٨ (عدد ٨ صفر ١٤٠٨هـ) .
(٢) الأعراف ١٦٥ .

وإن أخذوا على أيديهم – أى منعوهم – نَجَوا ونجوا جميعًا »[1] .

[القائم فى حدود الله معناه : المنكر لها القائم فى دفعها وإزالتها . وحدود الله : ما نهى الله عنه] .

– وقيل لرسول الله ﷺ :

أنهلك وفينا الصالحون ؟

« قال ﷺ : نعم إذا كثر الخبث »[2] – أى : الفسوق والفجور .

– وعن حذيفة رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ قال :

« والذى نفسى بيده ، لتأمرن بالمعروف ، ولتنهَوُنَّ عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا منه ، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم »[3] .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ قال :

« إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل ، أنه كان الرجل يلقى الرجل – أى على منكر – فيقول :

يا هذا : اتق الله ، ودع ما تصنع ، فإنه لا يحل لك .

ثم يلقاه من الغد وهو على حاله ، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ، ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال : ﴿لُعِنَ الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى

---

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

(٣) رواه الترمذى .

ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون . ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون ، ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيرًا منهم فاسقون﴾[١] .

ثم قال : كلا والله لتأمرنّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطرًا ولتقصرنه على الحق قصرًا ، أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض ، ثم ليلعنكم كما لعنهم »[٢] .

وفى هذا دليل على النهى عن مجالسة العاصين ، وأمر بتركهم وهجرانهم .

— وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، أنه قال :

« يا أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية » :

﴿يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾[٣] . وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« إن الناس إذا رأوا الظالم ، فلم يأخذوا على يديه — أى لم يمنعوه — أوشك الله أن يعمهم بعقابه »[٤] .

---

(١) المائدة ٧٨ — ٨١ .
(٢) رواه أبو داود والترمذى .
(٣) المائدة ١٠٥ .
(٤) رواه أبو داود والنسائى والترمذى

– وعن ابن عباس رضى الله عنهما ، أن النبى ﷺ قال :لا تقفنّ عند رجل يُقتل ظلمًا فإن اللعنة تنزل على من حضره ولم يدفع عنه » .

– وقال رسول الله ﷺ :

« لا ينبغى لامرىء شهد مقامًا فيه حق إلا تكلم به ، فإنه لن يقدم أجله ، ولن يحرم رزقا هو له »[1] .

قال الإمام الغزالى رحمه الله تعالى :

هذا الحديث يدل على أنه لا يجوز دخول دور الظلمة والفسقة ، ولا حضور المواضع التى يشاهد المنكر فيها ، ولا يقدر على تغييره فإن اللعنة تنزل على من حضره .

– وفى الحديث الشريف : أن الله تبارك وتعالى ، أوحى إلى ملك من الملائكة ، أن اقلب مدينة كذا أو كذا على أهلها ، فقال : يارب ، إن فيهم عبدك فلانًا ، لم يعصك طرفة عينٍ !

قال : اقلبها عليه وعليهم ، فإن وجهه لم يتمعر فىّ ساعة قط »[2] . أى لم يغضب لله ، ولم يتغير وجهه لرؤية المنكر .

٧ – حكم من لم تبلغه الدعوة :

الذى لم تبلغه الدعوة بأن نشأ فى جبل شاهق ، فليس بمكلف على الأصح ، خلافًا لمن قال إنه مكلف لكفاية العقل فى وجوب معرفته تعالى عندهم وإن لم تبلغه الدعوة .

---

(١) رواه الطبرانى والبيهقى .

(٢) رواه الطبرانى والبيهقى ، وقيل : هو من قول مالك بن دينار رحمه الله تعالى .

فالمذهب الحق أن أهل الفترة (وهم من كانوا بين أزمنة الرسل أو في زمن الرسول الذى لم يرسل إليه ناجون وإن غيروا وبدلوا وعبدوا الأوثان .

وما ورد من أنه صلوات الله وسلامه عليه أخبر بأن جماعة من أهل الفترة فى النار كامرئ القيس وحاتم الطائى ، وبعض آباء الصحابة فإن أحد الصحابة سأله وهو يخطب فقال أين أبى ؟

فقال : فى النار . فهى أحاديث آحاد لا تعارض القطعى وهو قوله تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾[1] .

ويجوز أن يكون تعذيب من صحّ تعذيبهم منهم لأمر يختص به يعلمه الله تعالى ورسوله .

يقول الشيخ على محفوظ : وإذا علمت أن أهل الفترة ناجون – على المذهب الحق – علمت أن أبويه صلوات الله وسلامه عليه ناجيان لكونهما من أهل الفترة »[2] .

---

(١) سورة الإسراء : الآية (١٥) .
(٢) هداية المرشدين ٢٤ .

الفصل الثانى

وسائل الدعوة الإسلامية

١ – المسجد وأهميته فى الدعوة .

٢ – الخطابة وأثرها فى الدعوة .

٣ – الجهاد فى سبيل الله .

من وسائل الدعوة : المساجد

المسجد وأهميته في الدعوة

مكانة المسجد فى الإسلام :

للمسجد مكانة عظيمة فى الإسلام يدل على ذلك مايلى :

١- إن عمّاره ماديًّا ومعنويًّا هم صفوة خلق الله من الأنبياء والمرسلين ، واتباعهم من عباده المؤمنين ، فقد كان بانى الكعبة أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام ، وابنه إسماعيل ، كما قال تعالى : ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل مِنّا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مُسْلِمَيْنِ لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم﴾[1] .

وقال تعالى عن عُمَّار سائر المساجد : ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾[2] .

ووعد سبحانه وتعالى من بنى له بيتا فى الأرض - أى مسجدا لله تعالى - أن يبنى له بيتا فى الجنـة ، كما فى حديث عثمان بن عفان (رضى

---

(١) البقرة الآيتان (١٢٧ و١٢٨) .

(٢) التوبة آية (١٨) .

الله عنه) قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « من بنى لله مَسجدًا بنى الله له كهيئته فى الجنة »[1] .

٢- ومما يدل على مكانتها شهود الملائكة لها ، والأمر بتنزيهها من الروائح الكريهة لئلا تتأذى بها الملائكة والمصلون ، كما فى حديث جابر - رضى الله عنه - قال : « نهى رسول الله ﷺ عن أكل البصل والكراث فغلبتنا الحاجة ، فأكلنا منها فقال : « من أكل من هذه الشجرة المنتنة ، فلا يقربنَّ مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه الإنس »[2] .

٣- وتظهر مكانة المسجد فى الإسلام بجلاء من كون الرسول ﷺ لم يستقر به المقام عندما وصل إلى حىّ بنى عمرو بن عوف فى قباء حتى بدأ ببناء مسجد قباء ، وهو أول مسجد بنى فى المدينة .

وكذلك عندما واصل سيره إلى قلب المدينة (المسماة آنذاك بيثرب) كان أول ما قام به تخصيص أرض لبناء مسجده ، ثم الشروع فى بنائه ، لأن فى المسجد اتصالاً بالقوة الإلهية التى لا تقهر ، وبسلطانها الذى لا يغلب ، فالاتصال بالله - سبحانه - هو أساس سعادة الأمم وهدايتها وتوفيقها فى الدنيا والآخرة .

٤- من المسجد ينطلق صوت المؤذن مدويًا فى كل حى من أحياء المسلمين خمس مرات فى اليوم والليلة فيستجيب له الناس فى كل أرجاء الأرض تاركين كل شىء وراءهم ليؤدوا لخالقهم ما فرضه عليهم

---

(١) متفق عليه ، وانظر شرح السنة للبغوى ٣٤٦/٢ .
(٢) مسلم ٣٩٤/١ .

فى بيـوت أذن أن ترفع ويذكـر فيه اسمه طمعًا فى رحمته ، ورغبة فى مرضاته .

وللمسلمين عيد أسبوعى – يوم الجمعة – يجتمع فيه أهل كل مدينة فى أكبر مساجدها بعد أن يغتسلوا ويتطيبوا ويرتدوا أجمل ثيابهم ، أفضلهم أجرًا من جاء مبكرًا إلى المسجد ، وذلك لحضور صلاة الجمعة ، والإنصات للخطبة قبل الصلاة ، ويستطيع المسلم بسماعه خطبة الجمعة أن يتعلم كثيرًا من أمور دينه ، مما يجعل خطبة الجمعة – وحدها – لو أحسن القيام بها – مدرسة مستمرة إلى يوم القيامة .

٥– وجود المسجد على الهيئة التى أراد الله أن تكون له كما كان فى عهد الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين يكون من أهم آثاره انتشار العلم بين المصلين وغيرهم ، لأن المصلى الذى يعتاد المساجد للعبادة والتعليم والذكر وقراءة القرآن ومدارسة أحكامه ، لا تمضى عليه فترة من عمره إلا وقد تعلم الكثير من أمور دينه ودنياه ، ثم إن المصلى المستفيد من حلقات المسجد يفيد غيره ، فرب الأسرة يعلم أسرته ما تعلمه ، والصديق يعلم صديقه ، والمسافر إلى البلدان الأخرى لتجارة أو غيرها ينشر ما تعلمه بين أهل ذلك البلد الذى نزل به ، وهكذا نجد العلم ينتشر فى كل أسرة وكل حى ، بل وكل بلد إذا أحسن استعمال المسجد فى وجوه الخير والعلم وقام الدعاة والأئمة بواجبهم خير قيام[١] .

---

(١) انظر : دور المسجد ص ١٠٠ .

والفرق بين تعليم المسجد ، وتعليم المدارس شاسع من وجوه متعددة :

الوجه الأول : أن التعليم فى المسجد يكتنفه جو عبادى يشعر المعلم فيه والمتعلم والسامع أنهم فى بيت من بيوت الله فيكونون أقرب إلى الإخلاص والتجرد والنية الحسنة ، لا يقصدون – فى الغالب – من التعلم والتعليم إلا وجه الله .

وأهدافهم هى التفقه فى الدين وأداء العمل على وجهه الصحيح والدعوة إلى الله ، والجهاد فى سبيله ، لا يرجون من وراء ذلك مغنمًا ولا جاهًا ولا منصبًا ، ولذلك تجد غزارة العلم وحفظه وإتقانه عند كثير من علماء المسجد فى أوقات قصيرة ، بخلاف طلاب المدارس ، فإنهم – فى الغالب – لا يصلون إلى مرتبة علماء المساجد فى ذلك ، والواقع التاريخى يشهد بذلك ، فهل خرجت المدارس والمعاهد والجامعات كالخلفاء الراشدين ومن شابههم ؟ وهل خرجت المدارس والمعاهد والجامعات كالأئمة المحدثين والفقهاء والنحويين ومن شابههم ؟

الفرق الثانى : أن التعليم فى المساجد أشمل حيث يدخل المسجد من شاء من العلماء المؤهلين ،ليعلم الناس ، كما أنه يدخله من شاء من المتعلمين أو المستمعين ، فيستفيد فى المسجد جم غفير ، بخلاف المدارس ، فلا يدخلها إلا عدد محدود من المعلمين والمتعلمين ، ولا يؤذن لمن يريد أن يتفقّه فى الدين بالتردد عليها ولذلك اضطرت الدول فى العصر الحديث إلى إيجاد مدارس لمحو الأمية ، وهى شبيهة بالمدارس الأخرى لا تفى بحاجة الناس كالمساجد ،فالمساجد جامعات شعبية صالحة للمتعلمين على جميع المستويات .

الفرق الثالث : أن علماء المساجد وطلابها أقرب إلى عامة الشعوب من طلاب المدارس والجامعات حيث تجد عامة الناس يقبلون على عالم المسجد وطلابه ، ويستفيدون منهم ، كما تجد عالم المسجد وطلابه يهتمون بعامة الناس فى التعليم والدعوة أكثر من غيرهم ولاشك أن الارتباط بين طلاب العلم وجمهور الشعب له مزاياه الكثيرة فى التعليم والدعوة والتوجيه .

أشار إلى هذه الفروق سماحة الشيخ عبدالله بن محمد بن حميد – رحمه الله – فى محاضرة له ، وكان من طلبة المساجد وعلمائها ، ثم قال : « وهكذا تخرج من هذه المساجد أساطين العلم الأفاضل الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم ، وما هم عليه من الصلاح والتقوى ، وما قاموا به من جهود عظيمة ، احتسبوا أجرها عند الله فى الدعوة الإسلامية ونشر الثقافة الإسلامية ، هذه مؤلفاتهم فى مختلف الفنون : فى التفسير ، والحديث والفقه والتاريخ وعلوم الآلة ، وغيرها ، كلها تشهد لهم بما قدموا من علوم »(١) .

٦ – لقد كان المسجد على عهد رسول الله ﷺ مأوى للمحتاجين ، فكان به مكان يسمى الصُّفَّة، يسكن به من لاسكن له من الفقراء وكان رسول الله ﷺ يشركهم فيما يهدى إليه ، ويخصهم بالصدقة التى تأتيه ، وكان إذا قدم قوم عليه ولا مأوى لهم أنزلهم فى المسجد كما روى أنس–رضى الله عنه – وكان صغيرًا – قال : قدم رهط من عُكْل على

---

(١) انظر : مجلة رسالة المسجد التى تصدرها رابطة العالم الإسلامى العدد السادس – السنة السادسة ١٤٠٣هـ ص ١٥ وما بعدها (نقلاً عن دور المسجد) .

النبى ﷺ فكانوا فى الصُّفَّة ، وقال عبد الرحمن بن أبى بكر : كان أصحاب الصُّفَّة الفقراء وبوب لذلك الإمام البخارى ، فقال : « باب نوم الرجال فى المسجد »(١) .

ولأبى هريرة مع أهل الصفة قصة طريفة أنقلها بتمامها ، وهى تدل على سكن الفقراء فى المسجد أو ما يلحق به ، وعلى عناية الإمام بهم وفيها تدريب من الرسول ﷺ لأبى هريرة على الصبر والإيثار كما فيها مباركة الله تعالى لرسوله ﷺ فى الشىء القليل ، إذ يصبح كثيرًا .

قال رضى الله عنه : « والله الذى لا إله إلا هو ، إن كنت لأعتمد بكبدى على الأرض من الجوع ،وإن كنت لأشد الحجر على بطنى من الجوع ، ولقد قعدت يومًا على طريقهم الذى يخرجون منه ، فمر أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ، ما سألته إلا ليشبعنى ، فمر ولم يفعل ، ثم مرّ بى عمر ، فسألته عن آية من كتاب الله ، ما سألته إلا ليشبعنى ، فمرّ فلم يفعل ، ثم مرّ أبو القاسم ﷺ فتبسم حين رآنى ، وعرف ما فى نفسى وما فى وجهى ، ثم قال : « أبا هِرٍّ » قلت : لبيك يا رسول الله ، قال ﷺ : « إلحق » ومضى فتبعته فدخل فاستأذن ، فأذن لى فدخل فوجد لبنًا فى قدح ، فقال : « من أين هذا اللبن ؟ .. قالوا : أهداه لك فلان أو فلانة ، قال : « أبا هِرّ » قلت : لبيك يارسول الله ، قال : « إلحق إلى أهل الصفّة ،فادعهم لى ، قال : وأهل الصُّفَّة أضياف الإسلام ، لا يأوون إلى أهل ولا مال ولا أحد ، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ، ولم يتناول منها شيئًا وإذا

(١) البخارى ١١٣/١ .

أتته هدية ، أرسل إليهم وأصاب منها ، وأشركهم فيها فساءني ذلك ، فقلت : وما هذا اللبن في أهل الصفة ، كنت أحق أنا أن أصيب من هذا اللبن شربة أقوى بها ، فإذا جاء أمرني فكنت أنا أعطيهم ، وما عسى أن يبلغهم من هذا اللبن ؟ ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ بُدٌّ ، فأتيتهم فدعوتهم فقبلوا فاستأذنوا فأذن لهم ، وأخذوا مجالسهم من البيت ، قال : « يا أبا هِرٍّ » قلت :لبيك يا رسول الله ، قال : « خذ فأعطهم قال : فأخذت القدح ، فجعلت أعطيه الرجل فيشرب ، حتى يروى ثم يرد عليّ القدح ، فأعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ، ثم يرد عليّ القدح ، فيشرب حتى يروى ثم يردّ عليّ القدح حتى انتهيت إلى النبي ﷺ وقد روى القوم كلهم فأخذ القدح فوضعه على يده فنظر إليّ فتبسم فقال : « يا أبا هِر » قلت :لبيك يا رسول الله قال : « بقيت أنا وأنت » قلت : صدقت يارسول الله ، قال : « اقعد فاشرب » فقعدت فشربت ، فقال « اشرب » فشربت فمازال يقول : « اشرب » حتى قلت : لا والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلكًا ، قال : « فأرني » فأعطيته القدح فحمد الله وسمى وشرب الفضلة »[1] .

٧ — ولقد كان مسجد رسول الله لله يشهد دعوة المصطفى ﷺ أصحابه فيه لحثهم على الجهاد في سبيل الله ، ومن المسجد ينطلقون ، وفيه يرتبون بل لقد ترك بعض جنود الإسلام يتدربون فيه على السلاح ، وهو ينظر إليهم ، بل أذن لزوجه عائشة أن تنظر إليهم

---

(١) البخاري (١٧٩/٧ — ١٨٠) .

من خلفه ، وعندما رآهم عمر انتهرهم وحصبهم فأمره الرسول ﷺ أن يتركهم وفى ذلك إشارة منه ﷺ إلى الرد على من زعم أن المسجد لا يصلح إلا للصلاة ونحوها من شعائر العبادات .

فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه ، قال : بينما الحبشة يعلبون عند رسول الله ﷺ بحرابهم ، إذ دخل عمر بن الخطاب فأهوى إلى الحَصْبَاء، فحصبَهم بها، فقال له رسول الله ﷺ : « دعهم يا عمر »[1] .

قال الحافظ ابن حجر – رحمه الله – « واللعب بالحراب ليس لعبًا مجردًا . بل فيه تدريب الشجعان على مواقع الحروب والاستعداد للعدو ، وقال المهلب :المسجد موضع لأمر جماعة المسلمين ، فما كان من الأعمال يجمع منفعة الدين وأهله جاز فيه »[2] .

وهكذا كان للمسجد فى صدر الإسلام وظائف متعددة وخدمات جليلة ، مما كان له دور في رقى المجتمع الإسلامى ورفعته .. يقول أستاذنا المرحوم الدكتور محمد أبو شهبة فى هذا الصدد :

« وفى الحق أن المساجد فى صدر الإسلام ولاسيما المسجد النبوى كانت تؤدى خدمات دينية وعلمية واجتماعية وصحية وحربية، فكانت متعبدات يؤدى فيها المسلمون شعائر دينهم وكانت تقوم مقام المعاهد والجامعات فى التربية والتعليم والتهذيب ، ومقام الجمعيات الخيرية فى جمع الصدقات والمساعدات والتعاون على البر والخير .

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم ، وهو فى جامع الأصول ١٠/٧٥٤-٧٥٦ (فحصبهم) أى : رماهم بالحصباء ، وهى الحصى .

(٢) فتح البارى ١/٥٤٩ .

وكانت تقوم مقام الملاجىء والمبرات ، يلجأ إليها الفقراء ممن لا مال لهم ولا دار، فيجدون فيها المسكن والمأكل والمشرب، كما كان الحال فى أهل الصفة أضياف الله وأضياف الإسلام .

وكانت منتديات يجتمع فيها المسلمون فيتآلفون ويتحابون ويتشاورون فى مصالحهم الدينية والدنيوية ويبرمون ما يرتئون . وكانت تصنع بالمسجد النبوى السهام وآلات الجهاد ، وتنصب به الخيام يستقبل فيها جرحى الحروب فيمرضون ويعالجون .

وكان يجتمع به بعض المسلمين فيتمرنون على فنون الحروب والقتال »[1] .

فعلى المسلمين أن يعيدوا للمسجد مكانته اللائقة به ووظائفه التى قام بها فى صدر الإسلام .

لقد هجرت المساجد وانصرف الناس عنها عدا قلة من كبار السن يتفرقون فى جنباتها هنا وهناك ولعل السبب فى ذلك هو الدعاة إلى الله ، هؤلاء الذين انصرفوا عن رسالتهم وغدت دعوتهم فى مقابل ما يتقاضونه من راتب شهرى ، بل ليتهم أعطوا المساجد فى مقابل ما يأخذون وليتهم راقبوا الله تعالى فى أعمالهم .

لقد اقتصر أكثر الخطباء والأئمة على خطبة الجمعة فحسب ، نظرًا لكثرة الحاضرين فيها ، وما يسفر عنها من ذيوع صيت الخطيب وشهرته بين الناس ، ولو كانت الدعوة خالصة لله تعالى والدافع إليها هو الدعوة

---

(١) د . محمد أبو شهبة : السيرة النبوية ٢/ ١٨ (دار القلم – دمشق) . .

نفسها لوجدنا الأئمة والخطباء يحرصون على دروس العلم فى مساجدهم التى يشرفون عليها ما بين المغرب والعشاء يشرحون فيها الفقه والتفسير والحديث وسيرة النبى ﷺ ، وبذلك تعود للمساجد نشاطها ورسالتها التى كانت لها فى العصور الإسلامية الزاهرة ، وبذلك يجد طلاب العلم دروس العلم ميسرة مبذولة لطلابها ، وفى ذلك خير – أيضًا – للدعاة أنفسهم حيث يتجدد العلم لديهم و تزداد حصيلة المعرفة عندهم يومًا بعد يوم لأن حياة العلم مذاكرته – كما يقولون .

لقد أصبحنا الآن – ولا حول ولا قوة إلا بالله – ندخل مساجد القاهرة – وغيرها – على كثرتها فلا نجد داعية جلس لقراءة العلم وتدريسه لطلابه والراغبين فيه – على الرغم من أن عملهم الرسمى يحتم عليهم ذلك ويلزمهم به – و تسأل عن الأئمة والوعاظ فلا تجدهم إلا ساعة صلاة الجمعة يأتون لإلقاء خطبة لم يبذلوا وقتًا معقولاً فى تحضيرها وإعدادها ، أما عن الأخطاء اللغوية وسطحية الموضوعات وعدم التزام الخطيب بموضوع واحد ، وغير ذلك من سلبيات الخطابة فحدث ولا حرج .

فلا غرو أن وجدت فجوة واسعة بين الشباب وعلمائهم فاتخذ الشباب بعضهم بعضًا شيوخًا وأئمة يسألونهم فى أدق مسائل العلم وأخطرها ، فيجيبونهم بغير علم فضلوا وأضلوا ، ونشأت الجماعات التى تقوم على التكفير والبعد عن منهج الدعوة الصحيح الذى كان عليه السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين .

ألا فليتق الدعاة إلى الله ربهم فى أداء رسالتهم وليجعلوا المسجد

مركز إشعاع ديني وفكري وبذلك تعود للمسجد مكانته التي كان عليها في صدر الإسلام .

٨- بقي أن نبين دور المسجد وأهميته في التعارف والأخوة الإسلامية التي تعتبر ضرورة من ضرورات المعاملات بين الناس ، فالجار قد يحتاج إلى جاره ، ولا يمكن أن يتعامل معه إلا إذا تعارفا وكل واحد من الناس قد يحتاج إلى غيره فكيف يتعامل معه بدون تعارف بينهما ؟

قال تعالى : ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾[1] .

وإن المسجد لكفيل بإيجاد تعارف أخوي إيماني لا ينسى ، ذلك أن المصلين في الحي الواحد يلتقون في المسجد خمس مرات في اليوم والليلة ، فيصبح أهل الحي بعد فترة قصيرة كلهم متعارفين بسبب تكرار رؤية بعضهم بعضا ومصافحة بعضهم بعضًا ، ولقائهم في حلقات الدرس عند العلماء ، وهكذا .

ولكن التعارف بين المسلمين ليس هو مجرد معرفة اسم الشخص واسم أبيه ولقبه ووظيفته فقط ، وإنما المقصود منه ما هو أهم من ذلك ، وهو تقوية أواصر الأخوة الإيمانية التي يترتب عليها العمل بكل ما يقويها من المحبة والتزاور والتواصل وعيادة المريض ، وإجابة الدعوة ، وإعانة المحتاج والضعيف وإفشاء السلام ، وطلاقة الوجه وطيب الكلمة ، والتواضع وقبول الحق ، والعفو والسماحة ودفع السيئة بالتي هي أحسن ، والإيثار وحسن الظن ، ونصر المظلوم ، وستر

---

(١) الحجرات ١٣ .

المسلم إذا وجدت منه هفوة ، وتعليم الجاهل ، والإحسان إلى الجار ، وأداء كل الحقوق إلى أهلها ، والنصح لكل مسلم .

وكذلك تجنب كل ما يضعف الأخوة الإيمانية من ظلم وحسد ، واحتقار وسخرية ، وغيبة ونميمة ، وهجر وقطيعة ، وفعل ما يثير الشك والقلق عند أخيه المسلم ، ومنافسة على بعض أمور الدنيا كالبيع على البيع ، والخطبة على الخطبة ، والغش والكذب .

ولقد كانت هذه المعانى العظيمة التى هى الأخوة الإيمانية وتعاطى ما يقويها ، وتجنب ما يضعفها موجودة فى أعلى صورها عندما كان المسجد موجودًا فى أعلى صورة له ، فى عهد رسول الله ﷺ وعهد خلفائه الراشدين وقد ربط الرسول ﷺ أول أخوة وجدت على ظهر الأرض وهى أخوة المهاجرين والأنصار الذين أظلهم مسجده الشريف ، وربطت أخوتهم الشهادتان ووحدتهم راية الجهاد فى سبيل الله حتى لقد عزم أخ من الأنصار أن يتنازل لأخيه من المهاجرين عن شَطْر ماله وإحدى زوجتيه يطلقها ، فتعتد فيتزوجها ، فما كان من المهاجر إلا أن قال للأنصارى : بارك الله لك فى أهلك ومالك(١) .

هكذا كان أهل المسجد ، فأين تعارف المسلمين اليوم ؟ إن باب دار الجار بجانب باب دار جاره ، أو أمامه ، يخرجان فى وقت واحد لأعمالهما ، ويدخلان فى وقت واحد إلى منزلهما وقد يجمعهما مصعد واحد نازلين وطالعين ، وقد لا يسلم أحدهما على الآخر ، وقد يسلم فلا يردّ الآخر ، وقد يردّ وهو مُدْبِرٌ لا يرى أخاه ابتسامته وقد يموت

---

(١) البخارى ٤/٢٢٢ .

أحدهما ويدفن وهو لا يدرى عنه شيئًا وقد يكونان فى مؤسسة واحدة فى العمل ، فأين تعارف المسجد يا أمة محمد ؟ ![1] .

٩- ومن حسنات المسجد وآثاره الجليلة القضاء على الفواحش أو انحسارها فى المجتمع الإسلامى .

فالذين يعتادون المساجد ويقيمون الصلاة يكرهون الكفر والفسوق والعصيان وتنهاهم صلاتهم عن الفحشاء والمنكر ، والبغى ، قال الله تعالى : ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾[2] .

قال الإمام القرطبى : يريد أن الصلوات الخمس هى التى تكفر ما بينها من الذنوب ؛ كما قال عليه السلام : « أرأيتم لو أنّ نهرًا بباب أحدكم ، يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شىء » قالوا : لا يبقى من درنه شىء قال : « فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهنّ الخطايا » خرجه الترمذى من حديث أبى هريرة ، وقال فيه : حديث حسن صحيح .. ثم أخبر حكمًا منه بأن الصلاة تنهى صاحبها وممتثلها عن الفحشاء والمنكر ، وذلك لما فيها من تلاوة القرآن المشتمل على الموعظة والصلاة تشغل كل بدن المصلى ، فإذا دخل المصلى فى محرابه وخشع وأخبت لربه وادّكر أنه واقف بين يديه ، وأنه مطلع عليه ويراه ، صلحت لذلك نفسه وتذللت ، وخامرها ارتقاب الله تعالى وظهرت على جوارحه هيبتها ،

---

(١) دور المسجد ص ١١١ .
(٢) سورة العنكبوت :الآية (٤٥) .

ولم يكد يفتر من ذلك ، حتى تُظَلِلهُ صلاة أخرى يرجع بها إلى أفضل حالة »[1] .

ولو تصفح الباحث صفحات التاريخ لوجد أن العصور التى كانت للمساجد فيها مكانتها كانت المنكرات قليلة بمقدار ما ترتفع تلك المكانة ، وأن العصور التى قلت فيها هيبة المسجد فى نفوس الناس كثرت فيها المنكرات بمقدار قلة هيبة المسجد .

ثم لو عملت إحصاءات دقيقة عادلة فى كل عصر لوجد أن الحريص على صلاة الجماعة فى المسجد أقل ارتكابا للجرائم والمعاصى وأن الذين لا يحافظون على الصلاة فى الجماعة هم أكثر جرائم من غيرهم .

لذلك نقول : إن من أهم آثار المسجد فى المجتمع هو القضاء على الفاحشة أو التقليل منها[2] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٣/٣٤٧ - ٣٤٨ .
(٢) دور المسجد ١١٧ (بتصرف) .

من وسائل الدعوة

الخطابة

الخطابة وسيلة من وسائل الدعوة إلى الله – سبحانه – وتبليغ هدايات الله للعالمين ، وفى هذا المبحث أود أن أضع بين يدى الدعاة إلى الله – تعالى – بعض النصائح والإرشادات لتحسين خطبة الجمعة فى عصر قل فيه الخطباء الأكفاء الذين يعرفون علل مجتمعاتهم ويعالجونها بفقه ودراية .

ونبدأ حديثنا ببيان مواصفات الخطيب الناجح فنقول – وبالله التوفيق– : لخطيب الجمعة صفات ومؤهلات أهمها :

١ – العلم وسعة الاطلاع :

إن الخطيب يعلم الناس ويرشدهم إلى الخير ، فينبغى أن يكون عالما بأمور الدين واسع الاطلاع حتى يجيب على تساؤلاتهم ويقدم الحلول لمشكلاتهم ، ومن المعلوم أن فاقد الشيء لا يعطيه وكل إناء ينضح بالذى فيه[1] فإذا كان الخطيب قليل البضاعة من العلم ابتعد عنه الناس ، لأن الفقر العلمى يزرى بأهله .

---

(١) إرشادات لتحسين الخطبة ص ١٦ .

وسوف نفصل فى موضع آخر العلوم التى يجب على الخطيب أن يتقنها ويكون فاقهًا لها .

٢ – الالتزام بأحكام الإسلام والعمل بما يقول :

إن الناس لهم عقول يفكرون بها ولهم أعين يبصرون بها ولهم آذان يسمعون بها ، ولهم ألسنة يتكلمون بها ، فإذا رأوا خطيب الجمعة يدعو إلى خلق ولا يتحلى به وينهى عن منكر ولا يكف عنه[١] ، فإن كلامه يفقد أثره فى الناس مهما كانت بلاغته وفصاحته .

وقد عاب القرآن الكريم على أقوام يأمرون غيرهم بالبر والخير ولا يفعلونه فقال – سبحانه – : ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ﴾[٢] وقال ﷺ : « يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتاب بطنه[٣] فيدور كما يدور الحمار بالرحى ، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون يا فلان مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بل كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنهى عن المنكر وآتيه »[٤] .

ورحم الله أبا الأسود الدؤلىّ حين قال :

لا تنه عن خلقٍ وتأتى مثله ... عارٌ عليك إذا فعلت عظيم
وابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل إن وَعَظْتَ وُيقتَدَى ... بالعلم منك وينفع التعليم[٥]

---

(١) السابق .
(٢) البقرة الآية ٤٤ .
(٣) أى تخرج أمعاؤه .
(٤) مختصر صحيح مسلم المنذرى ص ٣٣٥ .
(٥) ابن حزم : الأخلاق والسير ٢٥٨ و٢٥٩ .

كذلك ينبغي للخطيب أن يبتعد عن الكبائر التى تشوه السيرة والسلوك، والصغائر التى تسقط المروءة والهيبة لأن الخطيب المؤثر هو صاحب السيرة العطرة والتاريخ المشرق الذى لا يرى الناس فيه موقف خيانة أو نفاق أو تعاون مع الظلمة المجرمين خصوصًا وأن مواقف الضعف والتردى للخطباء تظل عالقة فى أذهان الناس ويصعب عليهم محوها .

فعلى الخطباء والدعاة أن يحرصوا على أن يكون ماضيهم وحاضرهم مشرقًا مشرِّفًا حتى يستجيب الناس لنصائحهم وينتفعوا من وعظهم .

٣ - الجرأة والشجاعة :

وينبغى للخطيب أن يكون شجاعًا فى قول الحق جريئًا فى عرضه لقضايا الناس ومشكلات الأمة ، فلا يهاب حاكمًا ظالمًا ولا وزيرًا مستبدًا .. وليذكر دائمًا قول النبى ﷺ : « إن أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » ولا نقصد بالشجاعة أن يكون الخطيب متهورًا فاحشًا يرسل الكلام بدون تأمل أو تفكير ، إنما الذى أقصده أن يعرض الخطيب قضايا الإسلام بقوة وشجاعة واستمساك بالحق الذى يدعو إليه دون أن تصدر منه عبارة فاحشة ، أو كلمة جارحة أو إساءة إلى أحد فإن المنابر ليست مكانًا لسب الناس وفضيحتهم على الملأ ، وتلك هى الحكمة التى يهبها الله لمن يحب من عباده ﴿يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرًا كثيرًا وما يذكر إلا أولو الألباب﴾[١] .

---

(١) سورة البقرة : الآية (٢٦٩) .

٤ - الإخلاص فى القول والعمل :

يجب على الخطيب أن يروض نفسه على العمل لله ونصرة دينه والحرص على مرضاة ربه ، وأن يكون كل حركة يتحركها وكل كلمة ينطق بها رغبة فى إعلاء دين الله - سبحانه - دون نظر إلى مدح مادح أو قدح قادح ، والخطباء هم أولى الناس إدراكًا أن الله سبحانه وتعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه وابتغاء مرضاته ، أما الخطباء الذين يحرصون على مدح الجماهير لهم أو ثناء الناس عليهم ، فقد حرموا أنفسهم من ثواب الله يوم القيامة، ويا لها من خسارة وحسرة أن يضيع الخطيب أوقاته وشبابه وعمره وهو يعمل للناس لا لله ، ويخرب آخرته لأجل دنياه ، إنه يأتى يوم القيامة فلا يجد شيئًا مما عمله ، لقد أخذ أجره فى الدنيا وثوابه من الناس !! ألم يكن غرضه أن تهتف الجماهير من حوله : ما أعظم هذا وما أفصحه وأبلغه ؟ وقد قالت الجماهير ذلك ، فعلام ينتظر الثواب فى الآخرة ؟ فيالها من موعظة لو صادفت من القلوب حياة !!

٥ - قناعة الخطيب بصدق ما يدعو الناس إليه :

لا يؤثر فى السامعين إلا المتأثر ، ولا يثير الحماسة فى قلوب السامعين إلا من امتلأ حماسة فيما يدعو إليه ، واعتقادًا بصدقه ، لأن ما يخرج من القلب يدخل القلوب من غير استئذان[1] .

---

(١) محمد أبو زهرة : الخطابة ٥٧ .

٦ – قوة الشخصية :

والمراد بقوة الشخصية فى الخطيب أن يتمتع بقوة تكسبه هيبة واحترامًا فى نفوس الناس ، تحملهم على توقيره وإجلاله فلا يجترئ عليه سفيه ولا أحمق .

ولهذا ينبغى أن يكون جادًا بعيدًا عن المزاح والعبث ، الذى يجعل الناس يستخفون به ويسخرون منه .

إن الخطيب حين يكون خفيفًا عابثًا ماجنًا ثرثارًا متساهلاً فى أمور ينبغى أن يكون جادًا فيها يسقط من عيون الناس وتزول عنه كل هالة وهيبة كانت له فى نفوسهم قبل أن يعلموا حقيقته .

هذا ومما يتنافى مع قوة الشخصية كثرة الحركات من الخطيب على المنبر بلا موجب ، وخاصة العبث بلحيته وكوفيته بشكل يلفت نظر المصلين ويجعلهم يستهجنون هذا منه[1] .

٧ – مخالطة المصلين والتعرف على أحوالهم :

ينبغى على الخطيب أن يخالط المصلين ، ويتعرف على أحوالهم ، حتى يكون على بينة مما يدور فى المجتمع ، فإذا جاء يوم الجمعة كان ملمًا بالأحداث ، وبالأهم فالمهم منها ، لأن خطبة الجمعة فرصة يجتمع المسلمون لسماعها وينصتون للخطيب فيها إنصاتا لا يوجد فى سواها وقد روى جابر رضى الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ

---

(١) إرشادات ص ٢٦ .

إذا خطب احمرت عيناه ، وعلا صوته ، واشتد غضبه ، حتى كأنه منذر جيش يقول : صبحكم ومساكم ، ويقول : « بعثت أنا والساعة كهاتين » ويقرُنُ بين أصبَعيه : السبابة والوسطى ، ويقول : « أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى محمد ﷺ . وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة »(1) .

إن الإمام الذى لا يختلط بالمصلين فى المسجد وخارجه ، ولا يسأل عن أحوالهم ، وما يطرأ لهم ، لا يقدر على إفادتهم ، لأنه سيتحدث إلى الناس فى أمور هُمْ أحوج إلى غيرها منها ، وفى ذلك خسارة على الناس أى خسارة وفوات لوقت من أثمن الأوقات لبيان ما أنزل الله للناس ، وكذلك الخطيب العاجز عن التعبير عما فى نفسه ، أو الذى يميت المعانى بألفاظه الميتة يعتبر نِيرًا على رقاب المصلين يجب أن يُنحى ليحل محله الخطيب الكفء الذى يفيد المصلين والمستمعين والواقع المشاهد الآن يؤيد ذلك ، فإن الناس يتسابقون إلى المسجد الذى يكون خطيبه مؤثرًا مهتمًا بأحوال الناس ، وما يحدث لهم فى أمور دينهم ودنياهم ، يتركون المساجد القريبة منهم ، ويذهبون إلى المسجد الأبعد من أجل ذلك ، وكأنهم يقولون بلسان حالهم للخطيب غير المؤثر : ضع نفسك فى مكانك فردًا فى صفوف المصلين ودع المنبر لأهله .

ومن أعجب الأمور ما يحصل فى بعض المساجد من التزام بعض الخطباء بقراءة خطبة الجمعة فى كتب أكل عليها الدهر وشرب حتى لقد بلغنى أن بعض الخطباء لا زال يدعو ببعض الدعاء الوارد فى

(1) مختصر صحيح مسلم ، حديث رقم : (٤١٠) .

الخطبة الثانية فى بعض الكتب للسلطان ابن السلطان خليفة المسلمين فى استانبول[1] .

٨ - نظافة الخطيب وجمال هندامه :

ينبغى أن يكون الخطيب نظيفًا في ملبسه ، جميلاً فى مظهره ، يأتى إلى الجمعة وقد اغتسل وتطيب وارتدى أجمل ثيابه ، حتى تنشرح صدور المصلين لرؤيته وتسر نفوسهم لطيب رائحته ، وقد كان لرسولنا ﷺ بردة يرتديها يوم الجمعة وإذا كان الرسول ﷺ أمر المسلمين بالغسل يوم الجمعة فخطيبهم وإمامهم من باب أولى ، روى الإمام البخارى بسنده عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل » .

أليس مما يؤلم النفس أن يأتى خطيب الجمعة بثياب رثة قد انتشرت بقع الزيت والعرق عليها وأحاطت بها من كل جانب ؟ إن هذا المنظر لو شوهد على إنسان عادى لنفرت منه النفس فكيف بخطيب الجمعة وإمامها ؟ !

إن هذا الخطيب - غالبا - ما يزهد الناس فى قوله ولا يكترثون لوعظه لأنه هان على نفسه فهان على الناس وانفضوا من حوله .

٩ - صوت الخطيب :

ينبغى على الخطيب أن تكون نبرات صوته مصورة للمعانى ولا تكون على وتيرة واحدة ، لأن هذا يبعث على السآمة والملل عند السامعين وربما أدّى إلى النعاس عند بعض الناس .

---

(١) دور المسجد ٩٧ .

كذلك يجعل صوته مناسبا لسعة المكان ولعدد السامعين فلا ينخفض حتى يصير فى آذانهم همسًا ولا يعلو حتى يكون صياحًا وعند الابتداء يبتدىء منخفضًا ثم يعلو شيئًا فشيئًا ، كما يجب على الخطيب أن يوازن بين طاقته ، وبين الزمن الذى تستغرقه خطبته والمجهود الصوتى الذى يجب بذله ، وليجعل هذين على قدر تلك ، وإلا أصابه الإعياء والتعب قبل الوصول إلى غايته »[1] .

مواصفات الخطبة الناجحة

إن الخطبة الناجحة هى التى تحقق الهدف أو الأهداف المرجوة منها ولهذه الخطبة مواصفات أهمها :

١ - وحدة الموضوع :

الخطيب الناجح هو الذى يكون حديثه فى الخطبة حول موضوع واحد محدد - فقط - دون التشتت فى موضوعات مختلفة حتى يخرج السامع بفكرة واضحة عن الموضوع المطروح ، فتحدث الفائدة المرتقبة وتؤتى الخطبة ثمارها المرجوة ، أما الخطيب الذى لا تعرف لخطبته موضوعًا أو يتحدث عن موضوعات متعددة فتراه يخرج من موضوع ليدخل فى موضوع آخر وقد لا يكون بين الموضوعات المطروحة صلة أو توجد صلة واهية ، هذا الخطيب وأمثاله - فاشل فى مهمته ، غير موفق فى رسالته لأنه لن يستطيع أن يوفى هذه الموضوعات حقها من

---

(١) أبو زهرة : الخطابة ١٤٩ .

البحث فتأتى خطبته مشوشة مبتسرة سطحية تبعث فى نفوس السامعين الضيق والازدراء .

٢ - لغة الخطبة :

من الخير للخطيب أن يلتزم فى حديثه باللغة العربية الفصحى ، وأن يبتعد كل البعد عن اللهجات العامية والأساليب المستهجنة ، كذلك ينبغى أن يحرص على الأساليب السهلة المفهومة التى تخلو من المفردات الغريبة ، والعبارات التى يصعب فهمها على جمهور السامعين ، فإذا كان فى حديثه بيت شعر أو نص فيه بعض الكلمات الغريبة فعليه أن يشرحها حتى تكتمل الفائدة للحاضرين .

٣ - البعد عن إثارة الخلافات بين الناس :

الخطيب العاقل هو الذى يجمع ولا يفرق ، فتكون خطبته بعيدة عن مواطن الفرقة والخلاف وإثارة الفتن بين المسلمين ، ومن آيات عدم توفيق الخطيب أن يتعصب لمذهب فقهى معين ، ويسفه آراء المخالفين ويتهجم عليهم . كما ينبغى أن تخلو الخطبة من إثارة خلاف بين فريقين من أهل الحى أو القرية ، مما يجعل الفتنة ترفع رأسها من جديد ، والفتنة نائمة لعن الله من أيقظها .

ومهما يكن من أمر ، فالخطيب الناجح هو الذى تأتى كلماته ومواعظه تهدئ ثائرة الثائرين ، وتصلح بين المتخاصمين وتوحد وتجمع بين المختلفين ، وإذا ظهرت فتنة عمل على القضاء عليها فى مهدها حتى تعود الأخوة والألفة بين جميع المصلين .

٤ - أن تكون الخطبة مرتبطة ارتباطًا وثيقا بحياة الناس :

فالخطيب الناجح هو الذى تدور خطبته حول مشاكل الناس وآمالهم وآلامهم ، حتى لا يشعر المصلون أنهم فى واد والخطيب فى واد آخر ، فمن العبث أن يتحدث خطيب القرية عن التبرج وآثاره ، أو الترف وخطره ، أو يأتى فى المدينة ويتحدث عن الرفق بالحيوان !! فليعلم الخطباء أن لكل مقام مقالا ، ومن عوامل النجاح -بلا ريب- مراعاة مقتضى الحال .

٥ - مادة الخطبة العلمية :

ينبغى أن تكون الخطبة عميقة شاملة لمعلومات بعضها - على الأقل - جديد على السامعين ، بحيث يخرج المصلى من المسجد وقد تزود من الخير ، واستزاد من العلم غذاء لعقله وروحه .. وتكون الخطبة كذلك نافعة إذا أحسن صاحبها إعدادها ، وبذل جهدًا فى تحضيرها .

ويحسن أن يعتمد الخطيب على الآثار المعتمدة الصحيحة ويبتعد عن الأخبار الواهية الضعيفة ، لأن الجماهير إذا علمت أن فلانًا من الخطباء غير دقيق فى أخباره ، فقدت الثقة فى كلامه ولو كان فى بعض الأحيان صادقًا .

٦ - قصر الخطبة :

من عوامل نجاح الخطيب أن تكون خطبته قصيرة ، لأن طول الكلام ينسى بعضه بعضًا ، وأعتقد أن الخطبة المعتدلة ينبغى ألا تزيد على عشرين دقيقة فى الخطبة الأولى وعن خمس دقائق فى الخطبة الثانية .

وأعتقد أن هذا قدر يستطيع أن يقول فيه الخطيب الشيء الكثير ، ولو استعرضنا خطب الجمعة للرسول ﷺ وخطب الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم لوجدناها لا تزيد عن المدة التى قدرناها .

كيفية إعداد الخطبة وتحضيرها

الخطيب الناجح هو الذى يعد خطبته ويحسن تحضيرها ، وطرق التحضير كثيرة نذكر منها ما يلى :

١- من الخطباء من يكتفى فى تحضيره بدراسة الموضوع دراسة تامة ، ثم جمع عناصره فى خاطره ، وترتيبها بينه وبين نفسه ويستحضر الألفاظ اللائقة بالمقام ، والعبارات الجديرة بالموضوع ، وهذه طريقة لا يتبعها إلا المتمرن على المواقف الخطابية[١] .

٢- ومن الخطباء من يدرس الموضوع ويهيىء معانى الخطبة ، ويرتبها ترتيبا حسنا ثم يكتب عناصرها وأجزاءها فى مذكرة يستصحبها عند الخطبة لتكون مرجعًا له وضابطًا وليحفظ المعانى والأفكار من أن تضيع من الذاكرة ، وهذه الطريقة لا يتجه إليها إلا الخطباء الذين مرنوا على القول ، وأصبحت لهم طرق خاصة فى الإلقاء وتمتاز هذه الطريقة بأنها تفيد ضعيف الذاكرة ، وتفيد أيضًا إذا كانت الخطبة طويلة جمعًا لأشتاتها ، ولكيلا يقع فى التكرار الممل .

٣- ومن الخطباء من يطلع على الموضوع ، ويدرسه بعناية ، ثم يتكلم فيه بينه وبين نفسه بصوت مرتفع فى غرفة قد انفرد فيها ، أو فى مكان خلوى ، أو يتكلم على بعض الناس .

---

(١) أبو زهرة : الخطابة ١٣٩ .

٤- ومن الخطباء من يكتب الخطبة ويتحرى فى الكتابة أبلغ الأساليب التى توصله إلى غايته .. وبعد الكتابة يقرأ ما كتب مرارًا وينقحه فى كل مرة . وبهذه القراءة – التى يتحرى فيها جودة الإلقاء وحسن النطق – تعلق معانى الخطبة بذاكرته ، ويحفظ كثيرًا من ألفاظها وعباراتها .

٥- ومن الخطباء من يكتبون خطبهم ، ثم يحفظونها حفظًا تامًا ، ومنهم من يتحلل أحيانًا مما حفظ ، إن وجد المقام يدفعه إلى غيره ومنهم من يكتب ويحفظ بدون أن يغير شيئًا وتلك الطريقة يتبعها أكثر المبتدئين فى الخطابة .

٦- ومن الناس من يكتب الخطبة ثم يلقيها بالقراءة فى القرطاس الذى كتبها فيه ، وأكثر المحاضرين فى موضوعات علمية فى مصر على هذه الطريقة . ويحسن لمن يسلك ذلك المسلك سواء أكان خطيبًا أم محاضرًا أن يقرأ ما كتب قراءة جيدة قبل إلقائه ، وعند الإلقاء يجتهد فى أن يلقى بعض المحاضرة أو الخطبة من غير المكتوب ، ليكون فى ذلك تجديد فى الإلقاء ، وأن يكون فى قراءته مشرفًا على السامعين بنظره وقتًا بعد آخر ، وذلك يتيسر له بالقراءة الجيدة المكررة قبل الإلقاء .

والطريقة المثلى لطالب الخطابة :

أن يبتدئ بكتابة الخطبة وحفظها وإلقائها كما حفظ ، ثم يأخذ نفسه بالتغيير شيئًا فشيئًا فيما حفظ حتى إذا قوى فى الخطابة وتقدم فى المران عليها كتب الخطبة وعنى بأن تعلق كل معانيها بقلبه وأكثر ألفاظها

بذاكرته ، ثم يتقدم لإلقائها ، وقد تحصن بذلك التحضير فإذا صارت له الخطابة ملكة وعدّ فى صفوف الخطباء ، اكتفى بدراسة الموضوع دراسة وافية ، ثم كتب العناصر ، أو لم يكتبها إن أسعفته ذاكرة قوية ، أو كانت الخطبة قصيرة ، لا عناصر لها ، وألقى الخطبة مكتفيًا بذلك التحضير الذى لا يكتفى به إلا أعظم الخطباء قدرة[1] .

---

(١) أبو زهرة : الخطابة ١٤٢ .

سلبيات ينبغى تجنبها فى خطبة الجمعة

وهناك أمور تحدث فى بعض خطب الجمعة فى بعض المساجد فى بلاد المسلمين جدير بكل خطيب أن يتجنبها وأن ينصح غيره بالكف عنها ومن هذه الأمور :

١ - الإطالة فى الخطبة :

وهذا عيب يجب على الخطباء أن يجتنبوه ، لأنه يؤدى إلى تنفير المصلين وضيقهم ، إن أكثر الخطباء - هداهم الله - يقفون على المنبر قرابة ساعة من الزمن ، يتحدث فى أمور مكررة وقضايا متشعبة يخرج من موضوع ليدخل فى موضوع آخر دون أن يرحم الشيخ الطاعن فى السن أو المريض الذى برح به الألم لمرض ألم به ، ومنهم الذى لا يستطيع أن يحتفظ بوضوئه فيقع فى حرج شديد خصوصًا إذا كان المسجد مزدحمًا ، وأماكن الوضوء ليست قريبة ميسرة للمتطهرين .

إن كثرة الكلام والتشدق بالألفاظ شهوة تفسد الهدف من الخطبة ويذهب معها الإخلاص ، وكأن الخطيب يريد أن يظهر للسامعين مقدرته الكلامية ، وعباراته البليغة الأدبية ، ناسيًا أن الإطالة فى الخطبة باعثة على السآمة والملل وربما الضجر والضيق من الخطيب والخطبة .

وليكن يا أخى قدوتك رسول الله ﷺ الذى أوتى جوامع الكلم وكان أفصح من تكلم بلغة العرب ، ومع ذلك كانت خطبته قصيرة لا يطيل فيها مخافة سآمة الناس وضجرهم .

ومما يؤلم النفس – حقًّا – أن يرى الخطيب المصلين يجلسون فى الحر الشديد أو البرد القارس ، وقد يكون المطر يتساقط عليهم ومع ذلك يطيل فى الخطبة ويحلو له الكلام ، ويترك لفكره العنان ، وكأن الناس لا يتعرضون لشىء !!

إن فى إطالة الخطبة سلبيات كثيرة يجدر بالخطباء أن يفقهوها ويكفى الإطالة عيبًا أنها على خلاف السنة وخير الهدى هدى نبينا محمد ﷺ .

٢ – الاعتماد على الأحاديث الضعيفة والقصص الخرافية :

ومن سلبيات الخطبة أن تعتمد على الأخبار الواهية والأحاديث الموضوعة والقصص الكاذبة والحكايات الخرافية الباطلة التى تهيج شجون البطالين ، وتنعش العوام والجاهلين ، فتكثر الآهات فى جنبات المسجد فيسر بذلك الخطيب ويظن أنه قد بلغ الغاية فى الفصاحة ، وكأن علامات النجاح تحريك الساكن للمصلين ورفع أصواتهم بما يدل على الرضا والاستحسان ، وما درى هؤلاء الخطباء ، أن فى الصحيح من الأخبار غُنية عن الموضوع والضعيف .

إن القرآن الكريم والسنة الصحيحة كلاهما ملىء بالقصص الحق والحكايات الصادقة الهادفة فكيف يغفل خطيب عنها إلى غيرها من الباطل والمكذوب رغبة فى إرضاء العوام ؟ !

إن هذا القصص يولد التناقض بين المصلين فمنهم من يصدق ، ومنهم من يكذّب أو يتوقف، مما يؤدى للإختلاف والتنازع فتختلف القلوب .

ومن الخير أن يقوى الخطيب صلته بالكتب التى يتحرى أصحابها البعد عن الأخبار الضعيفة أمثال كتاب « رياض الصالحين » للنووى وقبل ذلك وبعده صحيحى البخارى ومسلم .

وأعتقد أن علماء الحديث فى الأزهر المعمور وغيرهم من تلاميذهم فى العالم الإسلامى لهم دور لا ينكر فى تنقية السنة وتطهيرها مما دخلها من الوضع والتحريف وبيان الصحيح من الضعيف .

ومما يحزن النفس أن تستمع إلى خطيب وتبحث عن حديث صحيح فى خطبته كلها فلا تجده أو تراه يذكر حديثا ويستنبط منه أحكامًا غريبة يفسق بها من يفسق ويحرم ما يحرم والحديث كله موضوع مكذوب!!

٣ – اللحن فى اللغة :

ومما يعيب الخطيب – حقًّا أن يقع فى الأخطاء النحوية فيرفع المنصوب، وينصب المجرور مما يبعث على الضيق والأزدراء لهذا الخطيب عند العلماء وطلاب العلم ، فعلى الخطباء أن يحرصوا على أن تكون عباراتهم صحيحة ولغتهم سليمة يراعون أحكام اللغة فى خطبهم .

ومن الخير أن يكون للخطيب كتاب فى اللغة يرجع إليه بين حين وآخر ليتذكر أحكامها ويعرف قواعدها وذلك مثل كتاب « قطر الندى وبلّ الصدى » لابن هشام ، أو كتاب « شرح ابن عقيل » الذى يدرس – الآن – لطلاب المرحلة الثانوية فى المعاهد الأزهرية ، ولا ضير أن يراجع الخطيب قواعد اللغة على عالم متخصص ويقرأ عليه بعض

النصوص العربية حتى يستقيم لسانه ويتعود على النطق الصحيح ، فلا يقع فى الأخطاء التى تعرضه لكثير من الانتقاد .

٤ – الكلام باللغة العامية :

ومن سلبيات الخطبة أن يتحدث الخطيب باللغة العامية لأن اللغة العامية لها لهجات متعددة ولكل منطقة من الوطن العربى لهجتها الخاصة بها فلا يفهم الحضرى لهجة البدوى ، ولا يفهم المصرى لهجة العراقى والأردنى – مثلاً – والأسلوب السليم ليفهم هؤلاء الخطبة أن تكون باللغة العربية الفصيحة .

ومن هنا يصبح الحديث باللهجات العامية مشكلة تحول دون فهم الخطبة ووسيلة من وسائل التعقيد والإغلاق وليست وسيلة للتسهيل على السامعين كما يظن بعض الخطباء والواقع يدفع ظنهم ويدحضه .

٥ - سوء الإلقاء فى الخطبة :

وعلى الخطيب أن يتجنب السرعة فى إلقاء الخطبة ، أو خفض الصوت عند الإلقاء بحيث يصعب سماعه ، أو رفعه إلى درجة تزعج السامعين ، وعلى الخطيب أن يراعى مخارج الحروف عند الإلقاء فيخرج كل حرف من مخرجه ، ويقف عند كل جملة تتم بها المعنى ، وليحذر من المبالغة فى الحركات والإشارات والمواقف التمثيلية المتكلفة لأن ذلك مما يسىء إلى الخطيب ويزهد فى خطبته .

٦ – السطحية فى تناول القضايا :

ويتمثل ذلك فى اختيار الموضوعات التافهة التى لا تهم المصلين ولا تتصل بحياتهم ومشاكلهم اتصالاً وثيقًا .

إن الخطيب الناجح هو الذى يختار موضوعًا من موضوعات الساعة المصيرية، ويحسن إعداده ودراسته دراسة كافية، تبعث على احترام السامعين .

أما الخطباء الذين يختارون موضوعاتهم يوم الجمعة أو قبل الخطبة بقليل ثم يصعدون المنبر بدون إعداد مسبق فيتحدثون فى كل شيء خطر على بالهم ، وعنّ لفكرهم فهؤلاء يسيئون لأنفسهم ورسـالتهم .

٧ – تقليد الخطباء المشهورين :

من سلبيات الخطابة التى يقع فيها بعض الخطباء تقليدهم لخطيب مشهور ، فتراه يحفظ عباراته وكلماته ويحاكى نبراته وحركاته ، وهذا عمل مستهجن مرذول ينبغى أن ينأى عنه الخطيب احترامًا لنفسه ، وحرصا على ذاتيته وشخصيته .

من الخطباء من يبدأ خطبته مقلدًا ذلك الخطيب المشهور بألفاظه ولهجته ثم يكمل الخطبة بأفكاره ولغته هو فيلاحظ المصلون الفرق الشاسع والبون البعيد بين الفكرين وبين الأسلوبين .

فليحذر الخطيب تقليد غيره ولتكن له شخصية مستقلة فى الخطابة لها أسلوبها وأفكارها .

٨ – مدح أهل الباطل والدفاع عنهم :

ومن السلبيات التى يقع فيها بعض الخطباء أن يضيعوا جزءًا من خطبتهم فى مدح الحكام الظلمة والتزلف إليهم وتبرير أخطائهم وتسويغها للجماهير ، فليعلم الخطباء أن الثناء والمدح للسلاطين نقص

فى حقهم يجعل المصلين يتهمونهم بالنفاق فتسقط هيبتهم فى نفوس الناس .

إن الواجب على الخطيب أن يقف للمنكر بالمرصاد يحاربه وينبه الناس على خطره وخطورته ، ويكون صوته - دائمًا - يجلجل فى وجه الظلمة والمفسدين .

فكيف لا يكتفى خطيب بسكوته عن الظلم وأهله - والساكت عن الحق شيطان أخرس - ويأخذ بعد ذلك فى مدح الباطل وكيل الثناء لطواغيته من أجل طمع دنيوى أو مصلحة شخصية فيبيع دينه بعرض قليل من الدنيا ؟

فليحذر الخطيب رذيلة المدح والنفاق ، وليعلم أن كل كلمة ينطق بها محسوبة له أو عليه فلا يسقط فى حمأة النفاق والمنافقين .

٩ - تجريح الناس وتفسيقهم :

من السلبيات التى يقع فيها بعض الخطباء التعرض لأشخاص بأعيانهم ، والنيل منهم بطريقة نابية تشمئز منها النفوس ، وتنفر منها الطباع السليمة والأذواق الرفيعة .

إن التعرض لأعراض الناس ونهشها على المنابر أمرٌ يكرهه الإسلام ، وشجاعة الخطيب ووقوفه أمام المنكر لا يعنى البذاءة وطول اللسان .

إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ليس سوطًا يلهب ظهور المصلين ولكنه رحمة وهداية تأخذ بيد العباد إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم .

فالوعظ يجب أن يكون بأسلوب كله أدب وخلق ، ولقد كان رسول الله ﷺ إذا رأى شيئًا يكرهه يقول : ما بال أقوام يفعلون كذا أو يقولون كذا ، دون أن يذكر أحدًا بشخصه فيسبب له الحرج والضيق أمام المصلين.

١٠ – الحديث عن جانب واحد من الإسلام :

بعض الخطباء يركز فى خطبته على جانب واحد من جوانب الإسلام المتعددة ، فبعضهم يتكلم دائمًا عن الرقائق والموضوعات الروحية ، وبعضهم يتحدث عن الموضوعات الفكرية والثقافية ، وبعضهم لا يتكلم إلا فى العقيدة بحجة أن عقائد الناس قد فسدت وتحتاج إلى تغيير وإصلاح ، وبعضهم لا يتحدث إلا فى الجانب الأخلاقى فى الإسلام مثل الرحمة والصبر والتواضع ، واقتصار الخطيب على جانب واحد من تلك الجوانب التى بيناها يدل على فشل الخطيب وعدم فقهه فى الدعوة ، لأن الإسلام كل لا يتجزأ والإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، فيجب على خطيب الجمعة أن يعطى كل جانب حظه من الحديث والبيان بحيث يستوعب جوانب الإسلام المختلفة فينشأ عند السامعين فهم سديد متكامل بالإسلام كما أنزله الله وجاء به محمد ﷺ .

الجهاد في سبيل الله
وسيلة من وسائل الدعوة

أولا : فضل الجهاد فى سبيل الله :

١ - قال الله تعالى :﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتًا ،بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ [١].

والمعنى : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا﴾ أى لا تظن الذين استشهدوا فى سبيل الله لإعلاء دينه أمواتًا لا يحسون ولا يتنعمون ﴿بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ أى بل هم أحياء متنعمون فى جنان الخلد يرزقون من نعيمها غدوًّا وعشيًّا قال الواحدى : الأصح فى حياة الشهداء ما روى عن النبى ﷺ من أنّ أرواحهم فى أجواف طيور خضر وأنهم يرزقون ويأكلون ويتنعمون ﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ أى هم منعمون فى الجنة فرحين ، بما هم فيه من النعمة والغبطة ﴿ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم﴾ أى يستبشرون بإخوانهم المجاهدين الذين لم يموتوا فى الجهاد بما سيكونون عليه بعد الموت إن استشهدوا فهم لذلك فرحون

---

(١) آل عمران الآيتان ١٦٩ و١٧٠ .

مستبشرون ﴿ألآخوف عليهم ولاهم يحزنون﴾ أى بأن لاخوف عليهم فى الآخرة ولاهم يحزنون على مفارقة الدنيا لأنهم فى جنات النعيم[1].

٢- وقال رسول الله ﷺ : « غدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها »[2] .

٣- وقال : « إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيله ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة »[3]. .

٤- وقال ﷺ : « من اغبرت قدماه فى سبيل الله حرمه الله على النار»[4].

٥- وقال ﷺ : « رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها »[5] .

٦- وقال ﷺ : « حَرُمت النار على عين دمعت أو بكت من خشية الله وحَرُمت النار على عين سَهِرت فى سبيل الله»[6] .

---

(١) صفوة التفاسير ٢٤٤/١ .
(٢) أخرجه البخارى ومسلم والنسائى والدرامى فى « سننه » ٢٠٢/٢ .
(٣) أخرجه البخارى وأحمد .
(٤) أخرجه البخارى ٣٢٥/٢ . والترمذى .
(٥) أخرجه البخارى .
(٦) رواه أحمد ١٣٤/٤ والدارمى ٣٠٣/٢ والنسائى ١٥/٦ .

٧- وقال ﷺ : « ثلاثة حق على الله عونهم : المجاهد فى سبيل الله ، والمُكاتب الذى يريد الأداء ، والناكح الذى يريد العفاف »[١] .

٨- وقال : « والذى نفسى بيده لا يُكْلَمُ أى - يجرح - أحد فى سبيل الله - والله أعلم بمن يكلم فى سبيله - إلا جاء يوم القيامة اللون لونُ الدم ، والريح ريح المسك »[٢] .

١٠- وقال لجابر « ألا أخبرك ما قال الله لأبيك ؟ » قال :بلى ، قال : « ما كلم الله أحدا إلا من وراء حجاب ، وكلم أباك كفاحًا ، فقال : يا عبدى تمنّ علّى أعْطِكَ ، قال :يارب تحيينى فأُقتل فيك ثانية قال : إنه سبق منى ﴿أنهم إليها لا يرجعون﴾ قال :يارب فأبلغ مَنْ ورائى ، فأنزل الله تعالى هذه الآية : ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون﴾[٣] .

١١- وقال : لما أصيب إخوانكم ، بأحدٍ جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضرٍ ، ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب فى ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم ، قالوا : ياليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا لئلا يزهدوا فى الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب ، فقال الله : أنا أبلغهم عنكم

---

(١) رواه احمد ٢٥١/٢ والترمذى ١٦٥ والنسائى ٦١/٦ وابن ماجة (٢٥١٨) وصححه ابن حبان (١٦٥٣) والحاكم ٢١٧/٢ ووافقه الذهبى .

(٢) أخرجه مسلم (١٨٧٦) والترمذى (١٧٦١) والنسائى ٣٦/٦ ورواه النسائى ٣٥/٦ ، ٣٦ .

(٣) آل عمران : ١٦٩ .

فأنزل الله على رسوله هذه الآيات : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتًا »[1] .

ثانيا – مراحل تشريع الجهاد فى سبيل الله :

مرّ الجهاد فى سبيل الله بأربع مراحل نذكرها كما يلى :

الأولى : مرحلة الإعداد والتربية :

وهى المرحلة التى لم يكن فيها للرسول ﷺ سلطان مادى وكان المشركون يؤذون النبى ﷺ وأصحابه دون أن يأمر برد العدوان والإيذاء ، وكان يقول لأصحابه : اصبروا لأنى لم أومر بقتال :

وقد تفنن المشركون فى الإيذاء حتى قتل بعض أصحاب الرسول ﷺ من شدة العذاب ، منهم : سمية أم عمار بن ياسر التى عذبها آل المغيرة مع زوجها على إسلامهما ليرجعا عنه فلم يرجعا ، وماتت أم عمار تحت العذاب .

واستمر المشركون فى الإيذاء وأجمعوا أمرهم على قتل النبى ﷺ فلما علم الرسول بذلك هاجر إلى المدينة التى استقبله أهلها بالبشر والترحاب وبايعوه على الإسلام .

وقد كان أسلوب الدعوة فى هذه المرحلة يقتصر على جهاد الكفار بدعوتهم إلى الله سبحانه ، وبيان فساد ما هم عليه من العقائد والأخلاق ، والمناهج ، وغير ذلك .

---

(١) أخرجه أحمد ٢٦٦/١ وأبو داود ٢٥٢٠ وصححه الحاكم ٢٩٧/٢ ووافقه الذهبى وهو كما قال .

ويصور مدى ما وصل إليه أذى المشركين للمؤمنين فى هذه المرحلة ، ومبلغ صبر المؤمنين على الأذى ، حديث خباب بن الأرت - رضى الله عنه - قال : شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة ، فقلنا ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا ، فقال « قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض ، فيجعل فيها ، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه ، فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه فما يصده ذلك عن دينه والله ليُتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون »[1] .

المرحلة الثانية : الإذن بالقتال :

قال ابن القيم : فلما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة وأيده الله بنصره ، بعباده المؤمنين الأنصار ، وألف بين قلوبهم بعد العداوة والإحن التى كانت بينهم فمنعته أنصار الله وكتيبة الإسلام من الأسود والأحمر وبذلوا نفوسهم دونه وقدموا محبته على محبة الآباء والأبناء والأزواج ، وكان أولى بهم من أنفسهم ، رمتهم العرب واليهود عن قوس واحدة وشمروا لهم عن ساق العداوة والمحاربة ، وصاحوا بهم من كل جانب ، والله سبحانه يأمرهم بالصبر والعفو والصفح ، حتى قويت الشوكة واشتد الجناح فأذن لهم حينئذ فى القتال ولم يفرضه عليهم ، فقال تعالى :

(١) البخارى وأبو داود والنسائى وأحمد .

﴿أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾[1] .

روى الحاكم فى « مستدركه » من حديث الأعمش عن مسلم البطين ، عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال : لما خرج رسول الله ﷺ من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم ، إنا لله وإنا إليه راجعون ليَهْلِكُنَّ فأنزل الله عز وجل ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا﴾ وهى أول آية نزلت فى القتال[2] وهكذا يتبين لنا أن الجهاد فى هذه المرحلة لم يكن فرضًا كما يفهم من قوله (أُذن) فالإذن يدل على الإباحة ومعنى ذلك أن الله تعالى جعل أمر الدفاع عن النفس متروكا لقدرة المسلمين واستطاعتهم فى هذه المرحلة حتى يتكامل الإعداد .

المرحلة الثالثة : الأمر بقتال المعتدين فقط دون غيرهم من المشركين

فى هذه المرحلة أمر الله بجهاد المشركين المعتدين دون من لم يصدر منه اعتداء تضييقًا لدائرة القتال رفقًا بالمسلمين ، ويشير إلى هذه المرحلة قول الله تعالى : ﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾[3] .

المرحلة الرابعة : الأمر بقتال المشركين كافة .

وكان ذلك فى آخر مراحل الجهاد فى حياة الرسول ﷺ ، بعد فتح مكة ، قال الله تعالى ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين

---

(١) زاد المعاد ٧٠/٣ والآية من سورة الحج : ٣٩ .

(٢) المستدرك » ٦٦/٢ ، وصححه على شرط ا لشيخين ، ووافقه الذهبى ، وأخرجه ابن جرير الطبرى وأحمد ٢١٦/١ والترمذى ٣١٧٠ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٩٠ .

حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلّوا سبيلهم إن الله غفور رحيم﴾[1] .

وأكد ﷺ ما جاء به القرآن فى ذلك فقال : أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله محمدًا رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله»[2] .

قال الرازى : « فإن قيل : ما السبب فى أن الله تعالى أمر أولا بقتال من يقاتل .

ثم فى آخر الأمر أذن فى قتالهم سواء قاتلوا أو لم يقاتلوا ؟قلنا :لأن فى أول الأمر كان المسلمون قليلين ، فكان الصلاح استعمال الرفق واللين والمجاملة . فلما قوى الإسلام وكثر الجمع ، وأقام من أقام منهم على الشرك بعد ظهور المعجزات ، وتكررها عليهم حالاً بعد حال حصل اليأس من إسلامهم، فلاجرم أمر الله بقتالهم على الإطلاق»[3] .

هذه هى المراحل التى مرّ بها الجهاد على عهد رسول الله ﷺ ، ومنه يتضح أن قتال عموم المشركين هو الحالة الأخيرة التى استقر عليها ، هذا من الناحية العملية فى العصور الذهبية للإسلام ، وقبل

---

(١) سورة التوبة : الآية ٥ .
(٢) فتح البارى ٧٥/١ .
(٣) الفخر الرازى ١٤١/٥ .

أن يصاب المسلمون بالضعف والهوان نتيجة لبعدهم عن دينهم وتهاونهم فى العمل بشريعة الله التى تكفل لأصحابها العزة والقوة والسعادة .

ولما كان هذا حال المسلمين اليوم من الضعف وعدم التمكين فعليهم أن يأخذوا بأسباب القوة والمنعة ويجمعوا بين القوة المعنوية من تربية وتهذيب للنفس والقوة المادية التى أمرنا الله سبحانه بها فى قوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾[1] .

أليس من المؤسف حقا أن يعيش المسلمون عالة على أعدائهم فى السلاح والعتاد ، فهل يعقل أن يستورد المسلمون من أعدائهم سلاحًا ليقاتلوهم به ؟

إن الجهاد ضرورى لبقاء المسلمين أمة قوية مرهوبة الجانب ، كما أن تركه سبب فى المذلة والهوان وضياع الديار وتسلط الكفار على دار الإسلام .

يقول الإمام ابن تيمية :

وقوله تعالى :﴿ إلا تنفروا يعذبكم عذابًا أليمًا ويستبدل قومًا غيركم ﴾[2].

قد يكون العذاب من عنده ، وقد يكون بأيدى العباد ، فإذا ترك الناس الجهاد فى سبيل الله ، فقد يبتليهم بأن يوقع بينهم العداوة حتى

---

(١) الأنفال : الآية ٦٠ .

(٢) سورة التوبة ٣٩ .

تقع بينهم الفتنة ، كما هو الواقع ، فإن الناس إذا اشتغلوا بالجهاد في سبيل الله جمع الله قلوبهم وألف بينهم وجعل بأسهم على عدو الله وعدوهم ، وإذا لم ينفروا في سبيل الله عذبهم الله بأن يلبسهم شيعًا ويذيق بعضهم بأس بعض[1] .

ثالثًا : أسباب النصر :

أرشد القرآن الكريم إلى أسباب النصر الذى يرد العدوان ويكافح الظلم والطغيان .. من هذه الأسباب :

١ - أن يقصد بالجهاد وجه الله عز وجل ، ويراد به نصرة دين الله وعباده المؤمنين . وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾[2]. وقال تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنـوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾[3].

وقال - أيضًا - ﴿ الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفًا ﴾ .

والقتال فى سبيل الله هو الذى يكون لنصرة الإسلام وإعلاء كلمته بين العالمين ، بعيدًا عن البطر والبغى والظلم والعدوان .

وقد جاء فى السنة الصحيحة ما يوضح أهمية الإخلاص فى الجهاد وذلك لما سئل النبى ﷺ :

---

(١) الفتاوى ١٥/٤٤ - ٤٥ .

(٢) سورة الحج ٤٠ .

(٣) سورة محمد ﷺ آية ٧ .

«الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليُرَى مكانه».

وفى رواية : « ما القتال فى سبيل الله ؟ فإن أحدنا يقاتل غضبًا ، ويقاتل حمية » ؟ .

وفى أخرى : « الرجل يقاتل حمية ، ويقاتل شجاعة ، ويقاتل رياء ، فأى ذلك فى سبيل الله ؟ » .

قال ﷺ : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله عز وجل»(١).

٢ – التوكل على الله سبحانه والاعتماد عليه وحده والاعتصام به جل شأنه .

قال الله تعالى : ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظًّا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ، إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾(٢) .

وقال سبحانه : ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانًا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾(٣).

---

(١) البخارى ومسلم .
(٢) آل عمران ١٥٩/١٦٠ .
(٣) آل عمران : الآية ١٧٣ .

ويقول تعالى – حكاية عن رسله عليهم الصلاة والسلام :

﴿ وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرنّ على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾[1] .

ويقول جل شأنه : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرًا ﴾[2] .

٣– تقوى الله عز وجل : يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾[3] .

ويقول سبحانه : ﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين ﴾[4] .

ويقول تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين ﴾[5].

٤– الصبر : يقول فضيلة المرحوم الشيخ محمود شلتوت : « والصبر قوة إيجابية بها يكافح المؤمن عوامل الضعف والهلع ، وبها يواصل السير بخطوات واسعة قوية فى إزالة ما يعترضه من عقبات ، أما المصابرة

---

(١) سورة إبراهيم آية ١٢ .
(٢) سورة الطلاق آية ٣ .
(٣) سورة النحل آية ١٢٨ .
(٤) سورة التوبة آية ٣٦ .
(٥) سورة التوبة آية ١٢٣ .

فهى مغالبة الشدائد التى تقع بينك وبين غيرك إلى أن تخر صريعًا فى صفوف القتال فى كفاح الظلم والمنكر .

يقول الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾[1] .

المرابطة :

هو الوقوف بإيمان وحزم أمام منافذ الشر والعمل على إحكام صدها ، فالعتاد الحربى فى الثغور ومداخل الأعداء وتدريب أبناء الأمة على الجهاد وعلى الرمى ، وكبح جماح النفوس عن محرمات الأعراض والأموال ، والتسلح بالعلم النافع والخلق الفاضل والمال المشروع ، كل ذلك مرابطة ، ومرابطة فى سبيل الله .

وإذا رابط الإنسان للشر من جميع نواحيه أمن الوقوع فيه ، وتفرغ للسير فى طريق الكمال .

فالصبر والمصابرة علاج للشدائد النازلة ، والمرابطة وقاية من الشدائد المترقبة ، وبذلك يسلم حاضر الحيـاة ومستقبلها وتسير قدمًا إلى الأمام[2] .

٥- الاتجاه إلى الله عز وجل وبالأخص عند ملاقاة العدو، طلبًا للنصر.

---

(١) سورة آل عمران آية ٢٠٠ .

(٢) من توجيهات الإسلام ٢٧٢ - ٢٧٧ .

يقول الله سبحانه : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرًا لعلكم تفلحون﴾[1] .

ويقول جل شأنه : ﴿ ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرًا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين﴾[2] .

ويقول الله تعالى : ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنّى ممدكم بألف من الملائكة مردفين﴾[3] .

٦ - إعداد القوة المادية : قال الله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾[4] .

والقوة تتسع لكل ما عرف ويعرف من آلات الحرب برية وبحرية وجوية ، والرباط كلمة تتسع لكل ما عرف ويعرف فى تحصين الثغور وصد الأعداء وقوى الدفاع الظاهرة والكامنة ويعلن فى الآية أن فائدة هذا الإعداد العام الشامل ، ليست هى النصر فى المواقع الحربية فقط ، وإنما هى من قبل وسيلة لإقرار الحق ، ومنع الأعداء من التفكير فى زلزلته والطغيان به ﴿ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾ .

ومن هذا الجانب تكون القوة المادية عاملا من عوامل السلم تحفظ الحقوق، وتقيها شر الاعتداء وتنشر على العالم ظلال الأمن والاستقرار[5].

---

(١) سورة الأنفال آية ٤٦ .
(٢) سورة البقرة آية ٢٥٠ .
(٣) سورة الأنفال آية ٩ .
(٤) سورة الأنفال آية ٦٠ .
(٥) الشيخ محمود شلتوت : من توجيهات الإسلام ٢٣٩ .

٧ – التنظيم الحربى : وكما أرشد القرآن إلى القوة المادية فى عدتها وعددها أرشد كذلك إلى جملة من وجوه التنظيم الحربى التى تجب على المحاربين مراعاتها والتمسك بها إذا ما نشبت المعركة واشتبك الجمعان وخص منها بالذكر ما كان يفعله الرسول ويوصى به فى الأعمال التمهيدية للغزو ، ومن ذلك :

– توزيع وحدات الجيش على مواضع الدفاع ، وفى ذلك يقول : ﴿وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال﴾[١] .

– والسمع والطاعة للقيادة . وفى ذلك يقول : ﴿وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين﴾[٢] .

وقد ذكرهم بأن سبب فشلهم فى غزوة أحـد يرجع إلى المخالفـة والتنازع ﴿ولقد صدقكُمُ الله وعده إذ تحسُّونَهُم بإذنه حتى إذا فشِلتُم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم﴾[٣] .

– والثبات فى الموقف ، فيه يقول : ﴿يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفًا فلا تولوهم الأدبار ، ومن يُوَلِّهِم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾[٤] .

---

(١) سورة آل عمران آية ١٢١ .
(٢) سورة الأنفال آية ٤٦ .
(٣) سورة آل عمران آية ١٥٢ .
(٤) سورة الأنفال آية ١٥ .

وترتيب الهجوم عند تعدد الأعداء على أن يؤخذ الأقرب بالأقرب حتى لا يتعرض الجيش لحركات التفافية من الأعداء وفيها : ﴿ يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذى يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين ﴾(١) .

٨- اليقظة الدائمة وأخذ الحيطة والحذر من مكائد العدو وغدره ومباغتته ومكره يقول الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعًا ﴾(٢).

ويقول الله تعالى : ﴿ وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ودّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مَطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابًا مهينًا ﴾(٣) .

٩- الحذر من التنازع والاختلاف : قال الله تعالى : ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾(٤) .

---

(١) سورة التوبة آية ١٢٣ .
(٢) سورة النساء آية ٧١ .
(٣) سورة النساء آية ١٠٢.
(٤) سورة الأنفال آية ٤٦ .

١٠ – وضع القيادة في الأيدى الحكيمة العاقلة : لأن القائد الطائش يصدر من القرارات ويتخذ من الإجراءات ما يكون سببًا فى هلاك الأمة وضياع الملة ، وكم جنت أمتنا من الويلات والكوارث نتيجة لرعونة قادتها ، وعدم حكمتهم ، وقصر نظرهم ، فدخلت الأمة الإسلامية فى حروب اكتوت بنارها ولا ناقة لنا فيها ولا جمل ، ولكنه الغرور والنزق الذى جعلهم سببًا فى خراب أممهم وشقاء شعوبهم .

١١ – الالتزام بمبدأ الشورى وعدم استبداد القائد : قال الله تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ : ﴿وشاورهم فى الأمر﴾(١).

وإذا كان الرسول ﷺ وهو أكمل الناس عقلاً وأرجحهم رأيًا يأمره ربه بمشاورة أصحابه ، فلا ريب أن غيره أولى وأحوج إلى المشورة والنصح ، قال الإمام البخارى : (وكانت الأئمة بعد النبى ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم .. وكان القراء أصحاب مشورة عمر ، كهولاً كانوا أو شبانًا)(٢) .

رابعًا : أسلحة ربانية يمد الله بها المؤمنين :

(أ) الملائكة .
(ب) الرعب .
(جـ) النعاس .
(د) الريح .
(هـ) المطر .
(و) التخيل .

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٥٩ .
(٢) ذكره الإمام البخارى تعليقا فى كتاب الاعتصام ١٣٨/٩ وانظر فتح البارى ٣٣٩/١٣ – ٣٤٤ .

(أ) الملائكة :

إن إمداد الله للمؤمنين بالملائكة فى الجهاد إذا لزم الأمر ثابت فى الآيات القرآنية كما هو ثابت في الأحاديث النبوية ، قال تعالى : ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين﴾[1].

وقال ﷺ فيما رواه ابن عباس يوم بدر : « هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب »[2] .

« وهذا الإمداد ممدود غير محدود بزمان أو مكان ، فكلما استوفى المؤمنون شروط إمدادهم بالملائكة أمدهم الله بها ، وشروط الإمداد بالملائكة هى الصبر والتقوى ، وإتيان المشركين لمحاربة المؤمنين بصورة فيها من الكبر والتيه والغطرسة ما يجعلهم أهلاً لبطش الملائكة بهم .

قال تعالى مشيرًا إلى أن المدد بالملائكة ممدود غير محدود ، بشروط معينة : ﴿إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾[3].

(ب) الرعب :

قال الله تعالى : ﴿سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين﴾[4].

---

(١) سورة الأنفال آية ٩ .
(٢) البخارى : فتح البارى ٣١٥/٨ .
(٣) د/ الحسينى أبو فرحة : الفتوحات الربانية ٩٧/١ والآية من سورة آل عمران ١٢٤ ، ١٢٥ .
(٤) سورة آل عمران آية ١٥١.

فهذه الآية الكريمة تبين أن الرعب سلاح ربانى يلقيه فى قلوب أعدائه ، ولا ريب أنه من أفتك الأسلحة التى تقضى على الجيوش معنويا وتصيبها بالإحباط فتحيق بها الهزيمة والخذلان .

والتخويف سلاح استخدم قديمًا ، وما زال يستخدم حديثًا ويدخل الآن فيما يعرف بالحرب النفسية ونحن نشاهد ونقرأ كيف تتفنن الدول بالوسائل المختلفة لبث الرعب والتخويف فى نفوس أعدائها(١) .

وقد بين الرسول ﷺ أن الرعب سلاح أعطاه الله له لينتصر به على أعدائه من الكافرين ، فقال ﷺ : « أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة »(٢) .

فكان ﷺ إذا تجهز لقوم بينه وبينهم مسيرة شهر وعلموا بمقدمه فروا منه بسبب ما يقذفه الله فى قلوبهم من الرعب .

(جـ) النعاس :

من الأسلحة المعنوية التى أمدّ الله بها المؤمنين النعاس يلقيه عليهم ليهدىء أعصابهم ويطمئن قلوبهم إذا نزل بهم ما يخيفهم .

---

(١) راجع ما كتبه فى ذلك صلاح نصر فى كتابه : الحرب النفسية الكلمة والمعتقد ، نشر دار القاهرة للطباعة والنشر .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

قال الله تعالى ممتنًا على المؤمنين بذلك : ﴿إذ يغشيكم النعاس أمنة منه﴾[1] كما قال تعالى : ﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنةً نعاسًا يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية﴾[2].

فالآية الأولى تشير إلى النعاس يوم بدر ، والثانية تشير إلى النعاس يوم أحد عن أبي طلحة قال : كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد ، حتى سقط سيفي من يدى مرارًا يسقط وآخذه ويسقط وآخذه »[3] .

هذا والنعاس آية اطمئنان قلوب صحابة رسول الله ﷺ وحسن توكلهم على ربهم ، وثقتهم فى نصر الله لهم وتأييده إياهم ، لأن الخائف القلق لا يغمض له جفن ولا يذوق لذة النوم الذى يرفع من الروح المعنوية فيكون سببًا فى نصر الله سبحانه .

(د) الريح :

يقول الله تعالى : ﴿يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحًا وجنودًا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرًا﴾[4] .

يمتن الله على عباده فى هذه الآية الكريمة أن صرف عنهم أعداءهم وهزمهم ، وذلك بسبب الريح حيث أرسل الله – عز وجل – على

(١) سورة الأنفال الآية١١ .
(٢) سورة آل عمران آية١٥٤ .
(٣) فتح البارى ٣٦٧/٨ .
(٤) سورة الأحزاب الآية ٩ .

الأحزاب الذين جاءوا لقتال المسلمين ريحًا شديدة قوية حتى لم يبق لهم خيمة ولا شيء ولا توقد لهم نار ولا يقر لهم قرار ، حتى ارتحلوا خائبين خاسرين[1] .

وبذلك كان للريح دور يذكر ولا ينكر فى نصرة المسلمين يوم الأحزاب فالريح جند من جنود الرحمن يسلطها على من يشاء من عباده انتقامًا منهم وغضبًا عليهم ﴿وما يعلَم جنود ربك إلا هو﴾ . وقد قال ﷺ مبينًا دور الريح فى نصرة الدعوة الإسلامية : « نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور »[2] .

وقد جاء فى حديث حذيفة تفصيل ما أجملته الآية من أثر الريح فى نصرة المسلمين .

أخرج الحاكم والبيهقى فى الدلائل عن عبد العزيز ابن أخى حذيفة قال : ذكر حذيفة رضى الله عنه مشاهدهم مع رسول الله ﷺ ، فقال جلساؤه : أما والله لو شهدنا ذلك لكنا فعلنا وفعلنا ، فقال حذيفة : لا تمنوا ذلك لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ، نحن صافون قعودًا وأبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا ، وقريظة واليهود أسفل منا ، نخافهم على ذرارينا وما أتت علينا قط أشد ظلمة ولا أشد ريحًا فى أصوات ريحها أمثال الصواعق ، وهى ظلمة ما يرى أحدنا أصبعه ، فجعل المنافقون يستأذنون النبى ﷺ ويقولون : ﴿إن بيوتنا عورة وما هى بعورة﴾ فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له ، ويأذن لهم فيتسللون ونحن

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٨٤/٣ (بتصرف) .
(٢) البخارى ومسلم .

ثلثمائة أو نحو ذلك إذا استقبلنا رسول الله ﷺ رجلاً رجلاً حتى أتى على وما على جنة من العدو ولا من البرد إلا مرط لامرأتى ما يجاوز ركبتى قال فأتانى ﷺ ، وأنا جاث على ركبتى فقال : « من هذا » ؟ فقلت : حذيفة ، قال : « حذيفة » ؟ فتقاصرت الأرض فقلت : بلى يا رسول الله كراهية أن أقوم فقمت ، فقال : « إنه كائن فى القوم خبر فأتنى بخبر القوم » قال : وأنا من أشد الناس فزعًا وأشدهم قرا ، قال : فخرجت فقال رسول الله ﷺ : « اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ، ومن فوقه ومن تحته ، قال : فوالله ما خلق الله تعالى فزعا ولا قرا فى جوفى إلا خرج من جوفى ، فما أجد فيه شيئًا ، قال فلما وليت قال ﷺ : «ياحذيفة لا تحدثن فى القوم شيئًا حتى تأتينى » قال : فخرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت في ضوء نار لهم توقد، فإذا رجل أدهم ضخم يقول بيده على النار ويمسح خاصرته ويقول: الرحيل الرحيل ولم أكن أعرف أباسفيان قبل ذلك، فانتزعت سهما من كنانتى أبيض الريش ، فأضعه فى كبد قوسى لأرميه به فى ضوء النار فذكرت قول رسول ﷺ : « لا تحدثنّ فيهم شيئًا حتى تأتينى » قال : فأمسكت ورددت سهمى إلى كنانتى ثم إنى شجعت نفسى حتى دخلت العسكر ، فإذا أدنى الناس منى بنوعامر يقولون : ياآل عامر الرحيل الرحيل لا مقام لكم ، وإذا الريح فى عسكرهم شبرًا ، فوالله إنى لأسمع صوت الحجارة فى رحالهم وفرشهم الريح تضربهم بها، ثم خرجت نحو النبى ﷺ فلما انتصفت فى الطريق ، أو نحوًا من ذلك إذا أنا بنحو عشرين فارسًا معتمين فقالوا : أخبر صاحبك أن الله تعالى كفاه القوم ، فرجعت إلى

رسول الله ﷺ وهو مشتمل فى شملة يصلى فوالله ما عدا أن رجعت راجعنى القر وجعلت أقرقف ، فأومأ إلىّ رسول الله ﷺ بيده وهو يصلى فدنوت منه ، فأسبل علىّ شملة ، وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى ، فأخبرته خبر القوم وأخبرته أنى تركتهم يرتحلون وأنزل الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحًا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرًا ﴾[1]

وهكذا سخر الله الريح لنصرة نبيه محمد ﷺ ، ولا يزال الريح والعواصف جند الله الذى يسلطه على من يشاء من عباده فى كل العصور والأزمنة ، وكم سمعنا ونقلت وكالات الأنباء أخبار أقوام ودول سلط الله عليهم الرياح والعواصف فكانت عقابًا يزلزل أركانهم ويقتلع بنيانهم وأشجارهم ولكن كثيرًا من الناس لا يدركون أنه عقاب من الله ، وأن الريح جندٌ من جند الله فيفسرونها تفسيرًا ماديًّا مقطوع الصلة عن الله – سبحانه – وسننه فى خلقه والواجب على المسلم أن يرد الأسباب إلى مسببها وأن يفسر الأحداث تفسيرًا إسلاميًّا سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

(هـ) المطر :

قال الله تعالى : ﴿ ويُنزل عليكم من السَّمَاء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام ﴾[2] .

---

(١) أخرجه الحاكم والبيهقى فى دلائل النبوة والحديث ورد فى مختصر ابن كثير ٣/ ٨٥ –٨٦.

(٢) سورة الأنفال آية ١١ .

في هذه الآية الكريمة يتحدث المولى – سبحانه وتعالى – عن جند من جنود الله التى ينصر به عباده المؤمنين الصادقين ، إنه الماء ، الذى كان سببًا فى نصر الرسول وصحبه فى غزوة بدر ، عن ابن عباس قال : نزل النبى ﷺ – حين سار إلى بدر والمشركون بينهم وبين الماء رملة وعصبة ، وأصاب المسلمين ضعف شديد ، وألقى الشيطان فى قلوبهم الغيظ يوسوس بينهم : تزعمون أنكم أولياء الله تعالى وفيكم رسوله وقد غلبكم المشركون على الماء ، وأنتم تصلون مجنبين ؟ فأمطر الله عليهم مطرًا شديدًا فشرب المسلمون وتطهروا وأذهب الله عنهم رجز الشيطان وثبت الرمل حين أصابه المطر ، ومشى الناس عليه والدواب ولقد كان ذلك قبل أن ينفذ رسول الله ﷺ ما أشار به الحباب بن المنذر من النزول على ماء بدر وتغوير ما وراءها من القليب .

« والمعروف أن رسول الله ﷺ لما صار إلى بدر نزل على أدنى ماء هناك أى أول ماء وجده – فتقدم إليه الحباب ابن المنذر فقال يا رسول الله هذا المنزل الذى نزلته منزل أنزلك الله إياه فليس لنا أن نجاوزه ، أو منزل نزلته للحرب والمكيدة ؟ فقال : « بل منزل نزلته للحرب والمكيدة » فقال : يا رسول الله ، ليس بمنزل ، ولكن سر بنا حتى ننزل على أدنى ماء يلى القوم ونغوّر ما وراءه من القليب ونسقى الحياض فيكون لنا ماء وليس لهم ماء فسار رسول الله ﷺ ففعل ذلك »[1] .

ففى هذه الليلة – وقبل إنفاذ مشورة الحباب بن المنذر – كانت هذه الحالة التى يذكر الله بها العصبة التى شهدت بدرًا .. والمدد على

---

(١) تفسير ابن كثير .

هذا النحو مدد مزدوج : مادى وروحى . فالماء فى الصحراء مادة الحياة فضلاً عن أن يكون أداة النصر والجيش الذى يفقد الماء فى الصحراء يفقد أعصابه قبل أن يواجه المعركة ثم هذه الحالة النفسية التى صاحبت الموقف ووسوس بها الشيطان : حالة التحرج من أداة الصلاة على غير طهر لعدم وجود الماء (ولم يكن قد رخص لهم بعد فى التيمم فقد جاء هذا متأخرًا فى غزوة بنى المصطلق فى السنة الخامسة) وهنا تثور الهواجس والوساوس ويدخل الشيطان من باب الإيمان ليزيد حرج النفوس ووجل القلوب والنفوس التى تدخل المعركة فى مثل هذا الحرج وفى مثل هذا القلق تدخلها مزعزعة مهزومة من داخلها .. وهنا يجىء المدد وتجىء النجدة .

﴿ وينزّلُ عليكم من السماء ماء ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام﴾ ويتم المدد الروحى بالمدد المادى ، وتسكن القلوب بوجود الماء ، وتطمئن الأرواح بالطهارة ، وتثبت الأقدام بثبات الأرض وتماسك الرمال[1] .

(و) التخييل :

يقول الله تعالى : ﴿إذ يريكَهُمُ الله فى منامك قليلاً ولو أراكهم كثيرًا لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ولكن الله سلمْ إنه عليم بذات الصدور﴾ .

﴿ وإذ يُرِيكُمُوهُم إذ التقيتُم فى أعينكُم قليلاً ويقَلّلكُمُ فى أعينهم ليقضِىَ الله أمرًا كان مفعولا وإلى الله تُرجَعُ الأمور﴾[2] .

---

(١) فى ظلال القرآن ١٤٨٤/٣ .   (٢) سورة الأنفال الآيتان ٤٣ و٤٤ .

تبين هاتين الآيتان ما حدث للمسلمين يوم بدر من رحمة الله بهم ، ونصره إياهم ، وذلك عن طريق ما يمكن أن نسميه بالتخييل وهو اعتقاد المرء ما ليس بموجود – وهو من أهم الأسلحة النفسية فى الحرب ولقد كان من تدبير الله – سبحانه – فى معركة بدر أن يرى رسول الله ﷺ – الكافرين فى الرؤيا فى منامه قليلاً لا قوة لهم ولا وزن ، فينبىء أصحابه برؤياه ، فيستبشروا بها ويتشجعوا على خوض المعركة .. ثم يخبر الله هنا لِمَ أراهم لنبيه قليلاً فلقد علم – سبحانه – أنه لو أراهم له كثيرًا ، لفتّ ذلك فى قلوب القلة التى معه ، وقد خرجت على غير استعداد ولا توقع لقتال ولضعفوا عن لقاء عدوهم ، وتنازعوا فيما بينهم على ملاقاتهم : فريق يرى أن يقاتلهم وفريق يرى تجنب الالتحام بهم .

وهذا النزاع فى هذا الظرف هو أبأس ما يصيب جيشًا يواجه عدوًّا .!

﴿ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور﴾ .

ولقد كان سبحانه – يعلم بذات الصدور ، فلطف بالعصبة المسلمة أن يعرضها لما يعلمه من ضعفها فى ذلك الموقف فأرى نبيه المشركين فى رؤياه قليلاً ، ولم يرهم إياه كثيرًا[1] .

قال مجاهد : أراهم الله إياه فى منامه قليلاً ، وأخبر النبى ﷺ أصحابه بذلك فكان تثبيتًا لهم ، وقال ابن مسعود رضى الله عنه : لقد قللوا فى أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبى تراهم سبعين ؟

---

(1) فى ظلال القرآن ١٥٢٦/٣ .

قال : لا ، بل هم مائة ، حتى أخذنا رجلا منهم فسألناه فقال : كنا ألفًا[1] .

وقد كان لتقليل العدد فى نظر الفريقين إغراء بالقتال بينهما ، فلما التحم القتال وأيد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين ، بقى حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعفيه ، كما قال تعالى : ﴿قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يَرَوْنهم مثليهم رأى العين﴾ .

وهكذا يؤدى سلاح التخييل دوره فى نصرة المؤمنين وهزيمة المشركين ﴿والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[2] .

خامسًا : آداب الحرب فى الإسلام[3] :

الأحكام التى أوجب الإسلام مراعاتها لتخفيف ويلات القتال من خير ما عرف من قوانين الرحمة بالإنسان . وهذه الأحكام وإن كانت تتفق مع أحكام القانون الدولى فى كثير من المواضع إلا أنها تخالفها من جهة أنها أحكام دينية شرعها الدين ويقوم بتنفيذها إيمان المسلمين وقوة يقينهم مثل سائر الأحكام الدينية : وأما أحكام القانون الدولى فإنها ليس لها قوة تنفيذية تكفل إمضاءها حتى إن بعض الباحثين يرى فى تسمية الأحكام الدولية قانونًا ضربًا من التسامح ، لأن القانون

---

(١) رواه ابن أبى حاتم وابن جرير .

(٢) سورة يوسف آية ٢١ .

(٣) مراجعنا فى هذا المبحث :السياسة الشرعية للأستاذ عبد الوهاب خلاف ٨٥ وما بعدها وفقه الدعوة للدكتور جمعة الخولى ١٩٦ وما بعدها .

لا يكسب هذا الوصف إلا إذا كان من ورائه قوة لحمايته وتنفيذ أحكامه ، ولا توجد قوة ما لإخضاع الدول لأحكام القانون الدولى فالأحكام الإسلامية الحربية مع أنها ترمى إلى العدل والرحمة لها من إيمان المسلم قوة تنفيذية تكفل إمضاءها .

وعلى هذا الأساس شرعت الأحكام الحربيـة فى الإسـلام كما يأتى :

١ – قرر القانون الدولى أن الدول التى تضطر إلى إعلان الحرب على دولة أخرى يجب عليها قبل البدء أن تعلن الدولة الأخرى بميعاد الحرب وتعلن رعاياها وتخطر الدول الأخرى لتلتزم حيادها والغرض من هذا الإعلان توقى الغدر والأخذ على غرة .

وجاء فى الشرع الإسلامى :إنه يجب على المسلمين قبل البدء بقتال الكافرين أن يبلغوهم دعوة الإسلام . فقد ثبت : أن النبى ﷺ ماقاتل قومًا حتى دعاهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم بهذا كان يأمر قواده ، ففى صحيح مسلم : أن رسول الله ﷺ قال لبعض قواده : (إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث فأيتهن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم :الإسلام أو الجزية أو القتال .

٢ – قرر القانون الدولى : أن الرعايا غير المنتظمين فى الجيش لا يعدون أعداء ولا يجوز إلحاق الأذى بهم ، وإن وصف المحاربين خاص بكل جند أو جيش محارب .

ونصت الشريعة الإسلامية على أنه لا يجوز قتل النساء والصبيان والقسس فى كنائسهم والرهبـان فى صوامعهم ، والشيوخ الكبار

والزمنى والمرضى ومن اعتزل القتال أوحالت عاهته دون أن يكون من المقاتلة إلاّ إذا اشترك واحد من هؤلاء في الحرب بقول أو فعل أو رأى .

ومن وصايا الرسول ﷺ : « لا تقتلوا شيخًا فانيا ولا صغيرًا ولا امرأة » .

وفى رواية أخرى لابن عباس : « لا تقتلوا أصحاب الصوامع » ، أى الرهبان .

ومن وصية أبى بكر الصديق لجيش أسامة : « وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له .

وشبيه بهذا وصية عمر بن الخطاب لأمراء الجيوش « ولا تقتلوا هرمًا ولا امرأة ولا وليدًا وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان وعند شن الغارات» .

٣- منع القانون الدولى الإجهاز على الجرحى وتعذيب العدو ، والفتك به غيلة واستعمال القنابل والقذائف والأسلحة التى تزيد فى التعذيب ، وحرم تسميم الآبار والأنهار والأطعمة كما أنه أوصى أن تحترم جثث القتلى ومنع التمثيل بها مهما كانت جنسية أصحابها .

والإسلام حرّم هذا أيضًا فقد نهى رسول الله ﷺ عن الغدر وعن المثلة وقال لا تعذبوا عباد الله وجاء فى الشريعة الإسلامية النهى عن الإحراق بالنار لميت أو حى ، وعن إفساد الثمار والزروع أو قطع الأشجار أو قتل الحيوانات أو إحراق الدور والأمتعة وعن كل إتلاف وإفساد بقدر الإمكان .

حتى إن الأعداء إذا مثلوا بالمسلمين فالأفضل عدم مجاراتهم فى هذا التمثيل ويدل على هذا ما روى : أنه لما مثل المشركون فى غزوة

أحد ، بحموة بن عبد المطلب وغيره من الشهداء قال رسول الله : (لئن أظفرنا الله بهم يومًا من الدهر لأمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب ، فأنزل الله عليه هذه الآيات :﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ، واصبر وما صبرك إلا بالله ﴾ (١): فقال الرسول ﷺ « بل نصبر » .

وأوصى أبو بكر – أول خليفة للمسلمين – قائده أسامه بقوله : لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيرًا ، ولا شيخًا كبيرًا ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بعيرًا إلا للأكل .

٤ – قرر القانون الدولى قواعد فى حسن معاملة الأسرى وعدم مسهم بأذى : فلا يجوز قتلهم ولا جرحهم ، ولا إساءة معاملتهم ، أو تحقيرهم إذا سلموا أنفسهم أو صودرت حريتهم .

والشريعة الإسلامية حثت على تكريم الأسرى عامة فقد أثنى على المؤمنين الذين يحسنون إلى الأسرى بقوله : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورًا ﴾(٢) .

وقع ثمامة بن أثال فى أيدى المسلمين فجاءوا به إلى النبى ﷺ فقال « أحسنوا إساره ، وقال : اجمعوا ما عندكم من طعام فابعثوا به إليه » .

---

(١) سورة النحل : الآيتان ١٢٦ و١٢٧ .
(٢) سورة الإنسان الآيتان ٨ و٩

وكانوا يقدمون إليه لبن ناقة رسول الله ﷺ غدوا ورواحًا ، ودعاه النبى ﷺ إلى الإسلام فأبى ، وقال له ،إن ترد الفداء فسل ما شئت من المال ، فأطلق النبى سراحه من غير فداء . ثم دخل بعد ذلك فى الإسلام .

ولما وقعت ابنة حاتم الطائى فى أيدى المسلمين ، تعرضت للنبى ﷺ وقالت له : هلك الوالد ، وغاب الرافد – تعنى أخاها عديًّا – فامنن على منّ الله عليك .

فقال ﷺ فعلت ، فلا تعجلى بخروج حتى تجدى من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك » .

وأقامت حتى قدم رهط من قومها ، فخرجت معهم بعد أن كساها النبى ﷺ وأعطاها مالا .

وأمدّ صلاح الدين الأيوبى فيليب وقلب الأسد بالمرطبات والأدوية أثناء مرضهما رغم ما لحق المسلمين من قتل وسحق على أيديهما .

٥– ومن آداب الحرب فى الإسلام – أيضًا – عدم قتل رسول العدو ، أو مفاوضه .. ومن ذلك أنه عندما جاء ابن أثال ، وابن النواحة رسولا مسيلمة الكذاب إلى النبى ﷺ قال لهما أتشهدان أنى رسول الله ؟ قالا : نشهد أن مسيلمة رسول الله .

فقال رسول الله ﷺ : آمنت بالله ورسوله ، لو كنت قاتلا رسولاً لقتلتكما .

٦– يوجب الإسلام احترام المعاهدات ، والوفاء لمن بيننا وبينهم عهد ، فإن قامت الأدلة الوثيقة على عبث الطرف الثانى وأنه يريد

خيانتنا ، ويتهيأ للهجوم علينا ، لم يكن بدّ من نقض المعاهدة ، ولكنه لا يجوز لنا أن نهاجمهم أو نأخذهم على غرة ، بل لابد من أن نشعرهم بأن العهد الذى بيننا وبينهم قد انقضى ، قال تعالى : ﴿وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سـواء إن الله لا يحب الخائنين﴾[1]. وكان أبو بكر رضى الله عنه يقول لقائد الجيش« وقدم النذر بين يديك».

وإيجاب الإسلام إعلان الحرب قبل البدء بها حتى لا يؤخذ العدو على غرة مبدأ أخلاقى عظيم لم يستطع القانون الوضعى إقراره إلا فى مؤتمر لاهاى الذى انعقد سنة ١٩٠٧ ، فقد أوجب ألا تبدأ الأعمال الحربية إلا بعد إخطار سابق لا لبس فيه ، عن طريق إعلان ، أو إنذار يذكر فيه اعتبار الحرب قائمة بين الطرفين .

٧ – الإسلام يجرد الجهاد فى سبيله من كل غاية دنيوية أو دوافع شخصية ليجعله خالصا لوجه الله الكريم . ﴿ فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرًا عظيمًا ﴾[2] .

ومن ثم فالإسلام ينفى من حسابه ابتداء أى حرب تقوم لتحقيق مطامع دولية ، أو أمجاد شخصية ، أو التى تقوم على استغلال الشعوب وأكل خيراتها ، أو التى تقوم على القهر والاستعباد وسيادة قوم على قوم ، ووطن على وطن .

---

(١) سورة الأنفال آية ٥٨ .

(٢) سورة النساء آية ٧٤ .

فالقتال فى الإسلام يجب أن يكون فى سبيل الله ، وهدفه - أولاً وآخرًا - إعلاء كلمة الله ، وسيادة سلطان الله فى الأرض ، حتى يتحقق للبشرية الخير والبركة والكرامة والعدل .

الفصل الثالث

أخلاق وصفات الداعية

الإخلاص :

يجب على الداعية أن يقصد بدعوته وجه الله وحده ، ويبتعد فى دعوته عن مظاهر الرياء والسمعة ، لأن الله - سبحانه - لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه الكريم .

وقد حث القرآن الكريم على الإخلاص فى القول والعمل فقال عَزَّ شأنه : ﴿ وما أمِرُوا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾[1] .

وقال رسول الله ﷺ : « إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم »[2] .

وقال ﷺ : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم القيامة ، ليوم لا ريب فيه ، نادى منادٍ : من كان أشرك فى عمله لله أحدًا فليطلب ثوابه من عنده فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك »[3] .

---

(١) سورة البينة : الآية ٥ .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه الترمذى .

فعلى الداعية إلى الله – سبحانه – وهو يتحرك بين الجماهير داعيًا وناصحًا ومرشدًا أن يحتسب كل كلمة ينطق بها وكل جهد يقدمه ، وكل تعب يصيبه عملاً في سبيل رفع راية دينه ومرضاة ربه ، إن الدابة قد تكدح سحابة النهار نظير طعامها ، والداعية قد يهبط بقيمة جهده إلى مستوى الحيوان ، فيكون عمله لقاء راتبه فحسب .

لكن الرجل العاقل يسمو بتفكيره ونشاطه ، فيجعلهما لشيء أجلّ .

ومن المؤسف أن كثيرًا من إخواننا الدعاة والوعاظ – أصبحوا كغيرهم من جماهير الموظفين لا يفهمون إلا منطق المال والدرجة والترقية ويربطون رضاهم وسخطهم وفتورهم ونشاطهم بميزانه المضطرب .

قال رسول الله ﷺ : « إذا كان آخر الزمان صارت أمتي ثلاث فرق : فرقة يعبدون الله خالصًا ، وفرقة يعبدون الله رياءً وفرقة يعبدون الله ليستأكلوا به الناس ، فإذا جمعهم الله يوم القيامة قال للذي يستأكل الناس ؛ بعزتي وجلالي ما أردت بعبادتي ؟ فيقول : وعزتك وجلالك أستأكل بها الناس . قال : لم ينفعك ما جمعت : انطلقوا به إلى النار . ثم يقول للذي كان يعبد رياء : بعزتي وجلالي ما أردت بعبادتي ؟ قال : بعزتك وجلالك رياء الناس ! قال : لم يصعد إليَّ منه شيء ، انطلقوا به إلى النار ، ثم يقول للذي كان يعبد الله خالصًا : بعزتي وجلالي ما أردت بعبادتي ؟ قال : بعزتك وجلالك أنت أعلم بذلك مني . أردت به ذكرك ووجهك ، قال : صدق عبدي انطلقوا به إلى الجنة »[1] .

---

(١) الطبراني .

يقول أستاذنا الشيخ محمد الغزالي - أعزه الله - إننا نلحظ - آسفين - أن ميدان الدعوة إلى الله غصّ بأقوام يجعلون وجه ربهم آخر ما يرعى ويرغب ، كأن الأمر لا يعدو أن يكون حرفة تَدِر ربحًا قليلاً أو كثيرًا وقد رأينا الدعاة المحترفين يقومون بواجباتهم وليس يسيطر عليهم إلا تهيب مخالفة الرئيس أو تملق عواطفه وفي إحدى قرى الريف لوحظ أن إمام المسجد كان يصلي المغرب بآيتين من أواخر السور .

فإذا حضر العمدة الصلاة كان هذا الإمام يتحرى أن يصلي المغرب بسورتين كاملتين يجود قراءتهما في الركعتين الجهريتين !!

ولا شك أن هذا هو الرياء المحبط للأعمال ودلالته الصارخة أن الرجل يصطنع من أجل الناس صلاة أطول وأجود .

وأن الأمر لو وُكِل إلى صلته الخاصة بالله ، لكانت الصلاة أقل وزنًا !!

ومن يدري لعله - لولا ضرورات العيش - ما صلى قطُّ .. وتقهقر الأديان في حلبة الحياة يرجع إلى مسالك هؤلاء الأدعياء[1] .

هذا وقد وردت آثار كثيرة تفضح النفاق والمنافقين . وتبين أن أعمالهم سترد في وجوههم يوم القيامة جزاء شركهم بالله - سبحانه - .

روى عن عدى بن حاتم قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤمر يوم القيامة بناس من النار إلى الجنة حتى إذا دنوا منها واستنشقوا ريحها ونظروا إلى قصورها وما أعد الله لأهلها فيها نودوا أن اصرفوهم عنها

---

(١) الأستاذ الشيخ محمد الغزالي : مع الله ٢٠١ وما بعدها .

فلا نصيب لهم فيها ، فيرجعون بحسرة ما رجع الأولون بمثلها فيقولون : « ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا الجنة » وفى رواية « قبل أن ترينا ما أريتنا من ثوابك وما أعددت فيها لأوليائك لكان أهون علينا : قال : ذاك أردت بكم ، كنتم إذا خلوتم بارزتمونى بالعظائم ، وإذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين ، تراؤون الناس بخلاف ما تعطونى من قلوبكم ، هبتم الناس ولم تهابونى ،وأجللتم الناس ولم تجلونى ، وتركتم للناس ولم تتركوا لى ، اليوم أذيقكم أليم العذاب مع ما حرمتم من الثواب »[1] .

وقد نبه القرآن الكريم إلى أن نفرًا من الذين يلبسون شارات الإيمان ، يصدون الناس عن الإيمان .

وممن يتكلمون عن الله يأكلون باسمه أموال الناس سحتًا .

قال جل شأنه : ﴿إن كثيرًا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله﴾[2] .

وهذا الصنف من أدعياء العلم والتدين جعل الشاعر « أحمد زين » يقول فى ألم وضيق :

ودعى الدين والدين يشكو فعلات كالكفر منه لعينه
نال ما يشتهى من الجاه باسم الدين زورًا فى الأمة المسكينة
هو فيهم كالذئب بين دجاج أو شياه يختار منها السمينة

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير والبيهقى .
(٢) سورة التوبة الآية ٣٤ .

فقد الدين واليقين وصار المال والجاه دينه ويقينه
اتخذ الإفك والتملق دينا فجميع الأديان تلعن دينه

عن على رضى الله عنه أنه ذكر فتنا تكون فى آخر الزمان فقال له عمر : متى ذلك يا على ؟

قال : إذا تُفُقِّه لغير الدين ، وتعلم العلم لغير العمل ، والتمست الدنيا بعمل الآخرة »[1] .

فعلى الدعاة أن يطهروا أنفسهم من الأهواء والأدواء وأن يكون حبهم وبغضهم فى الله سبحانه .

عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر رضى الله عنه ، خرج إلى المسجد فوجد معاذًا عند قبر رسول الله ﷺ يبكى ، فقال : ما يبكيك ؟

قال : حديث سمعته من رسول الله ﷺ .

قال : « اليسير من الرياء شرك » .

ومن عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة إن الله يحب الأبرار الأتقياء الذين إن غابوا لم يفتقدوا وإن حضروا لم يعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى يخرجون من كل ظلمة »[2] .

ذلك ، وقد علمنا الرسول ﷺ من الدعاء ما يكون عونًا لنا على تطهير النفس من أدران الشرك والرياء فكان من دعاء النبى ﷺ إرشادًا

---

(١) رواه عبد الرازق فى كتابه موقوفا .
(٢) رواه ابن ماجه والحاكم والبيهقى فى كتاب الزهد له ولغيره ، وقال الحاكم : صحيح ولا علة فيه .

لأمته وتعليمًا لها : « اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك شيئًا أعلمه وأستغفرك لما لا أعلمه » .

— رُوى أن مسلمة بن عبد الملك ، حاصر حصنًا من حصون الكفار ، وطال الحصار ، فرأى مسلمة نقبا فى جدار الحصن ، فندب جنده إلى دخوله ، فتهيّبوا وخرج رجل مقنع من عُرْض الجيش — أى من عامته — لم يعرفه أحد ، فدخل النقب وفتح باب الحصن ودخله المسلمون .

فأحب مسلمة أن يعرف الرجل ، فنادى فى جنوده ، من صاحب النقب ؟

فلم يخرج إليه أحد .

فقال عزمت عليه أن يأتينى فى أى ساعة شاء من ليل أو نهار .

وأوصى حاجبه أن يُدخل عليه : كل من يأتيه .

فجاءه رجل وقال : استأذن لى على الأمير .

قال له : أنت صاحب النقب ؟

قال : أنا أدلكم عليه .

فدخل وسلم وقال : أيها الأمير ، إن صاحب النقب يشترط عليكم ثلاثا .

أن لا تكتبوا اسمه فى صحيفة إلى الخليفة .

وأن لا تأمروا له بعطاء .

وأن لا تسألوه عن اسمه .

قال : له ذلك ، فمن هو ؟

قال : أنا هو ، وانصرف .

فكان مسلمة بعد ذلك لا يصلى صلاة إلا قال : اللهم اجعلنى مع صاحب النقب(١) .

العابد والشجرة :

وروى أنه كان فى بنى إسرائيل رجل عابد ، عبد الله دهرًا طويلاً فجاءه قومه فقالوا :

إن هناك قومًا يعبدون شجرة من دون الله تعالى . فغضب لذلك ، فأخذ فأسه على عاتقه وقصد الشجرة ليقطعها .

فاستقبله إبليس فى صورة رجل ، فقال : أين تريد ؟

قال : أريد أن أقطع هذه الشجرة .

فقال : وما أنت وذاك ؟ تركت عبادتك واشتغالك بنفسك وتفرغت لغير ذلك ؟ !

قال : إن هذا من عبادتى .

قال : إنى لا أتركك أن تقطعها .

فقاتله ، فأخذه العابد وطرحه على الأرض وقعد على ظهره .

فقال له إبليس : أطلقنى حتى أكلمك .

---

(١) البيانونى : الأمر بالمعروف ص ٦٥ .

فقام عنه فقال إبليس : إن الله تعالى أسقط عنك هذا ، ولم يفرضه عليك ، أنت ما تعبدها ، وما عليك من غيرك ؟ ولله تعالى أنبياء فى الأرض ، ولو شاء لبعثهم إلى أهلها ، وأمرهم بقطعها .

فقال العابد : لابد لى من قطعها .

فقاتله الشيطان : فغلبه العابد مرة أخرى ، وصرعه وقعد على صدره فعجز إبليس فقال للعابد هل لك فى أمر بينى وبينك ، وهو خير لك وأنفع ؟

قال : وما هو ؟

قال : أطلقنى حتى أقول لك .

فأطلقه ، فقال : أنت رجل فقير لا شىء لك ، ولعلك تحب أن تتفضل على إخوانك وتواسى جيرانك وتشبع وتستغنى عن الناس .

قال : نعم .

قال : فارجع عن هذا الأمر ، ولك علىّ أن أجعل عند رأسك كل ليلة دينارين ، إذا أصبحت أخذتهما ، فأنفقت على نفسك وعيالك وتصدقت على إخوانك ، ويكون ذلك أنفع لك وللمسلمين من قطع هذه الشجرة ، التى يغرس مكانها ولا يضرهم قطعها ، ولا ينفع إخوانك المؤمنين قطع هذه الشجرة !

فتفكر العابد فيما قال ، وقال له : صدقت لست نبيا فيلزمنى قطع هذه الشجرة .

ولا أمرنى الله تعالى أن أقطعها ، فأكون عاصيًا بتركها .

وما ذكرته أكثر منفعة من قطعها .

فعاهد على الوفاء بذلك ، وحلف له .

فرجع العابد إلى متعبده فلما أصبح ، رأى دينارين عند رأسه فأخذهما ، وكذلك الغد .

ثم أصبح اليوم الثالث ، وما بعده ، فلم ير شيئًا ، فغضب وأخذ فأسه على عاتقه وتوجه نحو الشجرة .

فاستقبله إبليس ، فقال : إلى أين ؟

فقال : أريد قطع الشجرة .

فقال : كذبت والله ما أنت بقادر عليها ، ولا سبيل لك إليها .

فتناوله العابد ليأخذه كما فعل أول مرة .

فقال : هيهات ! فأخذه إبليس وصرعه ، فإذا هو كالعصفور بين رجلى إبليس ، وقعد إبليس على صدره ، وقال : لتنتهين عن هذا الأمر ، وإلا قتلتك فنظر العابد فإذ لا طاقة له به .

فقال : يا هذا ، غلبتنى فخَلِّ عنى ، وأخبرنى كيف غلبتك أول مرة ؟ وكيف غلبتنى الآن ؟

فقال : غضبت أول مرة لله تعالى ، وكانت نيتك الآخرة فسخرنى الله تعالى لك ، فغلبتنى ، وهذه المرة غضبت لنفسك والدنيا فصرعتك[1] .

---

(١) البيانونى : الأمر بالمعروف ص ٦٧ ، والقصة موجودة فى الإحياء .

الصبر :

من ألزم الأخلاق التى يحتاج إليها الداعية خلق الصبر ، لأن طريق الدعوة ملىء بالأشواك والابتلاءات ، والمحن التى تزلزل كيان الداعية إلا أن يعتصم بحبل الله المتين ، ولقد قال ربنا فى محكم آياته : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتَنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾[1] .

والذى يظن أن طريق الدعوة مفروش بالورود والرياحين واهم فى ظنه ، جاهل بحقيقة الدعوات وتاريخها .

لقد رأينا بأعيننا كيف توجه الاتهامات الباطلة ، والأقاويل الكاذبة إلى أنبل الدعاة وخيارهم للحط من شأنهم وتقليلاً من قدرهم ومكانتهم .

ورأينا الدعاة وهم يساقون إلى السجون والمعتقلات دون جريمة اقترفوها إلا أن يقولوا ربنا الله .

ورأينا الدعاة وهم يقصون من أعمالهم ويبعدون عن مساجدهم وجماهيرهم ، ورأينا الدعاة يحتال فى خداعهم وإغرائهم بالمنصب والوظيفة تارة ، والمال والجاه تارة أخرى .

ورأينا الدعاة وهم يساقون إلى الموت شنقًا بحجة أنهم أرادوا قلب نظام الحكم وإفساد العباد والبلاد !!

---

(١) سورة العنكبوت : الآيتان : ٢ ، ٣ .

نعم رأينا الكثير والكثير من هذه الابتلاءات التى تعرض لها الدعاة ويمكن أن تنال من كل داعية صادق باع نفسه لله .

فعلى الدعاة إلى الله أن يوطنوا أنفسهم على تحمل المشاق واستعذاب العذاب فى سبيل الله ، دون يأس أو خور ، وليكن قدوتهم إمام الدعاة وسيد المرسلين محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه فى الثبات والصمود .

والقارئ لسيرة المصطفى ﷺ يعلم كيف سلك المشركون مع صاحب الدعوة العظمى مسالك شتى ، وأساليب متنوعة فى الاضطهاد والكيد ليصدوه عن دعوته ويثنوه عن رسالته .. لقد أغروه بالمال والرياسة والجاه ، وسلكوا معه طريق الاستهزاء والسخرية والاتهام ، وسلكوا معه طريق المقاطعة الشاملة له ولمن آزره وقرروا أخيرًا اغتياله وقتله كل ذلك والرسول ثابت مستمسك بالحق الذى شرفه الله به ، وما أجمل قول النبى الكريم لعمه الذى أراد أن يثنيه عن دعوته : « والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر أو أهلك دونه ما تركته » .

وقد بين القرآن الكريم أن الدعاة السابقين ، أصابهم من بأساء الدعوة وشدتها ما زلزل أركانهم .

فقال – سبحانه – : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثلُ الذين خَلَوْا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب﴾[1] .

---

(١) سورة البقرة آية ٢١٤ .

ولأمر ماقال لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿يا بُنَيَّ أقم الصلاة وأمُر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إنَّ ذلك من عزم الأمور﴾[1].

وهذا –أيضًا– مابينه الرسول ﷺ فيما يرويه سعد بن أبي وقاص –رضي الله عنه– قال: «قلنا يا رسول الله: أي الناس أشد بلاء؟ قال: الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلي المرء على حسب دينه، فإن كان دينه صلبا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلاه الله على حسب دينه، فمايبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»[2].

وروى مسلم في صحيحه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات » .

وروى البخاري في صحيحه أنه لما اشتد إيذاء قريش على ضعفاء المؤمنين جاءوا إلى النبي ﷺ وهو متوسد بردة في ظل الكعبة يقولون : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال لهم النبي ﷺ : « قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل ، فيحفر له في الأرض فيجعل فيها فيؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه .. فما يصرفه ذلك عن دينه ، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون » !!

هذا ما كان عليه رسول الله ﷺ في مجال الصبر قولاً وعملاً ؛ فإذا ولينا وجهنا شطر صحابته الأبرار وجدنا من مواقف البطولة

---

(١) سورة لقمان آية ١٧ .

(٢) رواه الترمذي وابن ماجة والحاكم .

وتحمل الأذى ما يجعلنا نطأطىء الرأس إجلالاً لهذا الصحب المبارك الكريم .

فهذا بلال – رضى الله عنه – يقول عنه ابن هشام فى سيرته : « كان صادق الإسلام طاهر القلب ، وكان أميةُ بن خلف .. يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا والله لا تزال هكذا حتى تموت ، أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى ، فيقول وهو فى ذلك البلاء : أحد أحد .. حتى مرّ به أبو بكر الصديق رضى الله عنه يومًا . وهم يصنعون ذلك به فقال لأمية بن خلف ألا تتقى الله فى هذا المسكين ؟ حتى متى ؟ قال : أنت الذى أفسدته فأنقذه مما ترى ، فقال أبو بكر : أفعلُ ، عندى غلام أسود أجلدُ منه وأقوى ، على دينك ، أعطيكه به ، قال : قد قبلتُ فقال . هو لك ، فأعطاه أبو بكر الصديقُ رضى الله عنه غلامه ذلك ، وأخذه فأعتقه »[1] .

والحق أن المسلمين الأوائل فى مكة نالهم من الأذى والعذاب ما لا يطيقه إلا من نوى الشهادة ، وآثر الحياة الأخرى ورضى بعذاب الدنيا على العودة إلى ملة الكفر والضلال .

قال ابن اسحاق : وكانت بنو مخزوم ، يخرُجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه ، وكانوا أهل بيت إسلام ، إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة ، فيمر بهم رسول الله ﷺ فيقول فيما بلغنى : صبرا

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٣١٨/١ (بتلخيص) .

آل ياســـر ، موعدكم الجنـــة ، فأما أمه فقتلوهـا وهى تأبى إلا الإســلام[1] .

روى ابن جرير – باسناده – عن أبى عبيدة محمد بن عمار بن ياسر قال : أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربهم فى بعض ما أرادوا ، فشكى ذلك إلى النبى – ﷺ – « كيف تجد قلبك » ؟ قال : مطمئنا بالإيمان . قال النبى ﷺ : « إن عادوا فعد » فكانت رخصة فى مثل هذه الحال .

وقد أبى بعض المسلمين أن يظهروا الكفر بلسانهم مؤثرين الموت على لفظه باللسان ، كذلك صنعت سمية أم عمار ، وهى تطعن بالحربة فى موضع العفة حتى تموت وكذلك صنع أبوه ياسر .

وكذلك صنع حبيب بن زيد الأنصارى لما قال مسيلمة الكذاب : أتشهد أن محمدًا رسول الله ، فيقول : نعم فيقول : أتشهد أنى رسول الله ؟ فيقول : لا أسمع ! فلم يزل يقطعه إربا إربا ، وهو ثابت على ذلك .

وتذكر كتب السير والتاريخ أن عبد الله بن حذافة السهمى – أحد الصحابة رضوان الله عليهم – أنه أسرته الروم ، فجاءوا به إلى ملكهم ، فقال له : تنصرّ وأنا أشركك فى ملكى وأزوجك ابنتى ، فقال له : لو أعطيتنى جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب حتى أرجع عن دين محمد – ﷺ – طرفة عين ما فعلت . قال : إذن أقتلك . قال : أنت وما تريد ثمّ أمر به فصلب وقال لقناصته – بالرومية – ارموه قريبا من

(١) السابق ٣١٩ – ٣٢٠ .

يديه ، وهو يعرض عليه التنصر فأبى ، فقال : ارموه قريبًا من رجليه ، وهو يعرض عليه مفارقة دينه فأبى عند ذلك أمرهم أن يكفوا عنه وطلب إليهم أن ينزلوه عن خشبة الصلب ثم دعا بقدر عظيمة فصب فيها الزيت ورفعت على النار حتى غَلَتْ ثم دعا بأسيرين من أسارى المسلمين فأمر بأحدهما أن يلقى فيها فألقى ، فإذا لحمه يتفتت .

وإذا عظامه تبدو عارية .

ثم التفت إلى عبد الله بن حذافة ودعاه إلى النصرانية ، فكان أشد إباء لها من قبل .

فلما يئس منه ، أمر به أن يلقى فى القدر التى ألقى فيها صاحباه فلما ذهب به دمعت عيناه ، فقال رجال قيصر لملكهم : إنه قد بكى .

فظن أن قد جزع وقال :

ردوه إلىّ فلما مثل بين يديه عرض عليه النصرانية فأباها . فقال : ويحك ، فما الذى أبكاك إذن ؟

قال : أبكانى أنى قلت فى نفسى : تلقى الآن فى هذه القدر ، فتذهب نفسك وقد كنت أشتهى أن يكون لى بعدد ما فى جسدى من شعر أنفس فتلقى كلها فى هذا القدر فى سبيل الله .

فقال الطاغية : هل لك أن تقبل رأسى وأخلى عنك ؟ فقال له عبد الله : وعن جميع أسارى المسلمين أيضًا ؟

قال : وعن جميع أسارى المسلمين أيضًا .

قال عبد الله :

فقلت في نفسي : عدو من أعداء الله ، أقبل رأسه فيخلي عني وعن أسارى المسلمين جميعًا ، لا ضير في ذلك عليّ . ثم دنا منه وقبل رأسه ، فأمر ملك الروم أن يجمعوا له أسارى المسلمين وأن يدفعوهم إليه ، فدفعوا له .

فلما قدم عبد الله بن حذافة على عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأخبره خبره ، سر به الفاروق أعظم السرور ، ولما نظر إلى الأسرى قال : حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة وأنا أبدأ بذلك ، ثم قام وقبل رأسه(١) .

الشجاعة :

ومن الصفات اللازمة للداعية : « الشجاعة » حتى لا يهاب أحدًا في الجهر بالحق ، ولا تأخذه في نصرة الله لومة لائم .. ففي حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : « بايعنا رسول الله ﷺ على أن نقول الحق أينما كنّا لا نخاف في الله لومة لائم »(٢) .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « إذا رأيت أمتي تهاب أن تقول للظالم يا ظالم فقد تُودِّعَ منهم »(٣) .

---

(١) صور من حياة الصحابة ١/٥٢ – ٥٦ .
(٢) صور من حياة الصحابة ١/٥٢ – ٥٦ .
(٣) متفق عليه .

وروى ابن حبان فى صحيحه عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه قال : « أوصانى خليلى بخصال من الخير أوصانى أن لا أخاف فى الله لومة لائم وأوصانى أن أقول الحق وإن كان مرا » .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « لا يحقرن أحدكم نفسه قالوا يا رسول الله وكيف يحقر أحدنا نفسه ؟

قال يرى أن لله عليه مقالاً ثم لا يقول فيه ، فيقول الله عز وجل يوم القيامة ما منعك أن تقول فى كذا وكذا ؟ فيقول خشية الناس فيقول : فإياى كنت أحق أن تخشى »[1] .

يقول فضيلة الشيخ محمد الغزالى : « والعجب العاجب أن الجند المكلفين بحراسة الأمن قد يفقد بعضهم روحه وهو يطارد لصا ، أو يصاب بعاهة مؤلمة وهو يؤدى واجبه .

ذاك فضلاً عن السهر المستديم والجهد الموصول ، أما جند الدعوة من أئمة ووعاظ ومرشدين فكأنما أخذوا عهدًا على الدهر لا يمسهم سوء .

فهم يسمنون والدين ينحف ، ويراحون والدين مكدود ويعيشون متخاذلين على حين يتساند جيش الشيطان لبلوغ هدفه وإدراك أمله .

إذا لم يكن الداعية المسلم شجاعًا ، مطيقًا لأعباء رسالته سريعًا إلى تلبية ندائها ، جريئًا على المبطلين مغوارًا فى ساحاتهم فخير له أن

---

(١) رواه ابن ماجه ورجاله ثقات .

ينسحب من هذا المجال وألا يفضح الإسلام بتكلف ما لا يحسن من شئونه »[1] .

والحق أن تاريخ الدعوة الإسلامية يضم بين جنباته صفحات مضيئة لأئمة أعلام ودعاة بررة ثبتوا على الحق ، وجاهروا به دون تهيب أو وجل .

وإليك أيها القارئ الكريم صورًا ومواقف لهؤلاء الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه .

(أ) من مواقف « العز بن عبد السلام » أنه قال مرة لسلطان مصر « نجم الدين أيوب » وكان فى مجلس حافل برجال الدولة : يا أيوب !! ما حجتك عند الله إذا قال لك غدًا : ألم أبوّئ لك ملك مصر ثم تبيح الخمور ؟

فقال : هل جرى هذا ؟

فقال : نعم ، الحانة الفلانية يباع فيها الخمور وتستباح فيها المنكرات ، وأنت تتقلب فى نعمة هذه المملكة !!

فقال : هذا أنا ما عملته ، هذا من زمان أبى !!

فقال العز بن عبد السلام : أنت من الذين يقولون : ﴿إنا وجدنا آباءنا على أُمَّةٍ وإنَّا على آثارهم مُقْتدُون﴾[2] ؟ فرسم السلطان بإبطال تلك الحانة وإغلاقها .

---

(١) مع الله ٢١١ وما بعدها .
(٢) سورة الزخرف : آية ٢٣ .

* وحكى – أيضًا – عن « العز بن عبد السلام » أنه أفتى مرة بشيء ثم ظهر له أنه أخطأ ، فنادى فى مصر على نفسه من أفتى له « ابن عبد السلام » بكذا فلا يعمل به ، فإنه أخطأ فيه .

وإرسال المفتى المنادين يشهرون بفتواه على هذا النحو خلق عجيب ، ودلالة على أمانة فى العلم لا نظير لها .

ولعلها استجابة لكلمة « عمر بن الخطاب » إلى « أبى موسى الأشعرى » حيث أرسل له كتابًا يقول فيه :

« ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه نفسك وهديت لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق لا يبطله شيء ، واعلم أن مراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل » .

(ب) كان « سلمة بن دينار » المكنى بأبى حازم يدخل على معاوية فيقول : السلام عليك أيها الأجير ، فإذا حاولوا أن يقولوا لأبى حازم قل : السلام عليك أيها الأمير ، أبى عليهم ذلك ، ثم التفت إلى معاوية فقال له : « إنما أنت أجير هذه الأمة استأجرك ربك لرعايتها » !!

(جـ) قام أعرابى بين يدى « سليمان بن عبد الملك » فقال : إنى مكلمك – يا أمير المؤمنين – بكلام فيه بعض الغلظة فاحتمله – إن كرهته – فإن وراءه ما تحبه إن قبلته .

قال : هات يا أعرابى .

قال : فإنى سأطلق لسانى بما خرست عنه الألسن من عظتك تأدية لحق الله وحق إمامتك .

إنه قد اكتنفك رجال أساءوا لأنفسهم فابتاعوا دنياك بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم !!

خافوك فى الله ولم يخافوا الله فيك ، فهم حرب للآخرة ، سلم للدنيا !! فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه . فإنهم لن يألوا الأمانة تضيعًا ، والأمة عسفا وخسفا . وأنت مسئول عما اجترحوا ، وليسوا مسئولين عما اجترحت ، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك . فأعظم الناس غبنا من باع آخرته بدنيا غيره .

قال : سليمان :

أما أنت يا أعرابى ، فقد سللت لسانك ، وهو أقطع سيفيك .

فقال : أجل لك يا أمير المؤمنين – لا عليك .

(د) وروى زياد عن مالك بن أنس قال : بعث « أبو جعفر المنصور » إلى « والى بن طاووس » أحد أفاضل العلماء فى عصره فدخلنا عليه وبين يديه أنطاع قد بسطت (جلود توضع تحت المحكوم عليهم بالقتل) وجلادون بأيديهم السيوف يضربون الأعناق ، فأومأ إلينا أن اجلسا فجلسنا ، فأطرق عنا قليلاً ، ثم رفع رأسه والتفت إلى ابن طاووس ، فقال له : حدثنى عن أبيك .

قال : نعم ، سمعت أبى يقول : قال رسول الله ﷺ : « إن أشد الناس عذابًا يوم القيامة ، رجل أشركه الله فى حكمه ، فأدخل عليه الجور فى عدله » .

قال مالك : فضممت ثيابى مخافة أن يملأنى دمه ، فأمسك ساعة ، ثم التفت إليه أبو جعفر فقال : عظنى يا ابن طاووس ، قال : نعم

يا أمير المؤمنين !! يقول الله تعالى : ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذى الأوتاد ، الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، فصب عليهم ربك سوط عذاب ، إن ربك لبالمرصاد﴾[١] .

قال مالك : فضممت ثيابى من ثيابه مخافة أن يملأ ثيابى من دمه !!

فأمسك ساعة ، ثم قال : يا ابن طاووس ، ناولنى هذه الدواة فأمسك عنه ، فقال :

ما يمنعك أن تناولنيها ؟

قال ابن طاووس : أخشى أن تكتب بها معصية ، فأكون شريكك فيها !!

فلما سمع ذلك قال أبو جعفر : قوما عنّى !!

قال ابن طاووس : ذلك ما كنا نبغى منذ اليوم !!

قال مالك : فما زلت أعرف لابن طاووس فضله .

والحق أن الشجاعة فى قول الحق تتطلب نفسًا عفت عما فى أيدى الناس ، ورضيت بما قسم الله لها من رزق وفضل .

وما أحسن قول القائل :

---

(١) سورة الفجر : الآيات من ٦ – ١٤ .

أمت مطامعي وأرحت نفسي   فإن النفس ما طمعت تهون

وعن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله أوصنى وأوجز فقال : « عليك باليأس مما فى أيدى الناس فإنه الغنى وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر ، وصل صلاتك وأنت مودع وإياك وما يعتذر منه[1] .

وقال أبو سعيد الحسن البصرى رحمه الله : « لا يزال الرجل كريمًا على الناس حتى يطمع فى دينارهم ، فإذا فعل ذلك استخفوا به ، وكرهوا حديثه وأبغضوه » .

وروى أن أعرابيا سأل أهل البصرة :

من سيدكم ؟ قالوا : الحسن . قال : بم سادكم ؟ قالوا : احتاج الناس إلى علمه واستغنى هو عن دينارهم ، فقال : ما أحسن هذا !

وما أحسن قول على بن عبد العزيز القاضى رحمه الله تعالى :

يقولون لى فيك انقباض وإنما   رأوارجلاًعن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهُمُ هان عندهم   ومن أكرمته عزة النفس أكرما
ولم أقض حق العلم إن كان كلما   بدا طمع صيرته لى سلمًا
وما كل برق لاح لى يستفزنى[2]   ولا كل من لاقيت أرضاه منعما
إذا قيل هذا منهل[3]،قلت قد أرَى   ولكن نفس الحر تحتمل الظما

---

(١) رواه العسكرى والحاكم ، وغيرهما ، وصحح إسناده .
(٢) يستفزنى : استفزه واستخفه وأخرجه من داره وأزعجه .
(٣) منهل : مورد وهو عين ماء ترده الإبل فى المراعى .

أنهنهها[1] عن بعض ما لا يشينها | مخافة أقوال العدا فيم أولما
ولم أبتذل[2] في خدمة العلم مهجتي[3] | لأخدم من لاقيت لكن لأخدما
أأشقى به غرسا وأجنيه ذلة | إذا فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم | ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهان ودنسوا[4] | محياه بالأطماع حتى تجهما[5]

وهناك خلق آخر تحتاج إليه الشجاعة ، وهو اليقين في وعد الله – سبحانه – وأنه هو الذي قسم الأرزاق ، وحدد الآجال وجعل لها ميقاتًا معلومًا ، وأجلاً لا يتقدم ولا يتأخر ، وعندما يوقن المؤمن بذلك لا يبالي أن يفتدي الحق بعمره مفضلاً أن يقتل شهيدًا على أن يدفن الحق ولا يجد من ينصفه ويشرفه ويعلي رايته .

ولذلك قال رسول الله ﷺ : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » وقال – أيضًا – « سيد الشهداء حمزة ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله » .

حكي أن « عبد الملك بن مروان » أتوه برجل من الخوارج فأراد قتله ، فأدخل على عبد الملك ابن له صغير يبكي ، فقال الخارجي :

---

(١) أنهنهها : نهنهه عن الأمر فتنهنه كفه وزجره فكف .
(٢) ولم أبتذل : الابتذال ضد الصيانة ، والبذلة بالكسر ما لا يصان من الثياب .
(٣) مهجتي : المهجة الروح .
(٤) دنسوه : الدنس محركة الوسخ دنس الثوب والعرض والخلق .
(٥) تجهما : رجل جهم الوجه كالح الوجه .

دعه يا عبد الملك ، فإن ذلك أرحب لشدقه ، وأصح لدماغه ، وأذهب لصوته ، وأحرى ألا تأبى عليه عينه إذا حفزته طاعة الله فاستدعى عبرتها .

فأعجب « عبد الملك » بقوله وقال له متعجبًا :

أما يشغلك ما أنت فيه عن هذا ؟ فقال : ما ينبغى أن يشغل المؤمن عن قول الحق شىء فأمر عبد الملك بحسبه وصفح عن قتله[١] !!

العمل بما يقول :

والمقصود به أن يكون الداعية نموذجًا طيبا لما يدعو إليه ، ومثلاً حيًّا لكل خلق كريم .. حتى يفيد وعظه ، ويثمر إرشاده .

يقول الله ليحذر المؤمنين : ﴿ يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مَقتًا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾[٢] .

كبر مقتا لأنه صد عن سبيل الله .. وأى جريمة أكبر من الصد عن سبيل الله ؟

إن الناس قد يتقبلون من الشخص العادى أن يكذب أو يغش أو يلتوى فى سلوكه . أو يقع فريسة للشهوات .

أما أن يقع ذلك ممن ينصب نفسه قدوة للناس أو ممن يدعو الناس إلى التمسك بالفضيلة والبعد عن الرذيلة .. فهذا الذى لا يستسيغه الناس من جهة ، والذى يصدهم عن القيم الرفيعة من جهة أخرى ، لأنه ييئسهم

---

(١) راجع القصة فى كتاب « مع الله » للشيخ الغزالى .

(٢) سورة الصف : الآيتان ٢ و٣ .

من قيام تلك القيم فى عالم الواقع ويشعرهم أنها مجرد شعارات معلقة فى الفضاء ويهون لهم من جهة أخرى ارتكاب الرذيلة بكل أنواعها ، لأنه إذا كان دعاة الفضيلة يفعلون ذلك ، فما بالهم ، هم الذين لم يزعموا لأنفسهم ذات يوم أنهم من أصحاب الفضيلة ؟ !

لذلك كبر مقتًا عند الله أن يقول المؤمنون بألسنتهم ما يخالفونه فى سلوكهم الواقعى[1] .

وعن أسامة بن زيد بن حارثة – رضى الله عنهما – قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق[2] أقتاب[3] بطنه فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحى ، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون : يافلان مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيقول بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه »[4] .

وعن أنس – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيت ليلة أسرى بى رجالا تقرض شفاههم بمقاريض من النار فقلت من هؤلاء ياجبريل فقال الخطباء من أمتك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون »[5] .

ورحم الله القائل :

---

(١) محمد قطب : مذاهب فكرية معاصرة ٥٤ .

(٢) تندلق : تخرج .

(٣) الأقتاب : الأمعاء واحدها قتب (بكسر فسكون) .

(٤) متفق عليه .

(٥) رواه ابن حبان فى صحيحه .

يا واعظ الناس قد أصبحت متهمًا إذ عبت منهم أمورًا أنت تأتيها
أصبحت تنصحهم بالوعظ مجتهدًا والموبقات لعمرى أنت جانيها
تعيب دنيا وناسًا راغبين بها وأنت أكثر منهم رغبة فيها

وقال بعض السلف : مثل الذى يعلم الناس الخير ولا يعمل به كالسراج يضىء للناس ويحرق نفسه .

« ومن أعجب النقائض فى دين الله ودنيا الناس أن هناك نفرًا ممن يتسمَّوْن بالدعاة يحسبون أن ما يقولون لغيرهم من علم إنما هو امر يخص المخاطبين فحسب ، وقد يعنى الناس أجمعين إلا إياهم .

إنهم نقلة فحسب ، إنهم « أشرطة مسجلة » أو « أسطوانات معبأة » تدور بعض الوقت ليستمع الناس إليها وهى تهرف بما لا تعرف ، ثم تودع أماكنها لتدار مرة أخرى إذا احتيج إليها .

إن هذا الجماد الذى أنطقه الذكاء الإنسانى هو صورة للجماد الذى أنطقه الاحتراف ، أو للإنسان الكذوب الذى ينصح الجمهور بأمور هو أبعد ما يكون عنها ، وينفرهم من أشياء هو أقرب ما يكون للوقوع فيها .

والدعاة الذين يَحْيَوْن على ذلك النحو المتناقض هم آفة الإيمان ، وسقام الحياة .

وهم الثقل الذى يهوى بالمثل العليا ويمرغها فى الأوحال والغضب الإلهى لا ينصب بعنف وقساوة على مرتكبى الخطايا بجهالة ، إنه ينصبُّ على أولئك الذين يقترفون الدنايا وهم يعلمون ، أو الذين يقترفونها وهم ينفرون منها الآخرين .

وذلك سر تشبيههم تارة بأنهم حمير، وطورًا بأنهم كلاب .. ولم يوصفون بهذه الألقاب الشائنة؟ ذلك أنهم تكذيب عملى للكلام الذى يلقون، والمبدأ الذى إليه ينتمون.

إنهم بمسلكهم دليل على أن الشهوة تغلب العقل، والهوى يهزم الرشد.

أى أنهم عذر قائم بين يدى كل مقصر، وإياس من الصلاح أمام بغاته من السامعين والمطلعين.

وكثير من هؤلاء المنتسبين إلى الدين بألسنتهم، الخارجين عليه بأعمالهم، من يلون الدين برغبته، ويمزج تعاليمه بشهوته، فهو – أولا – يتعرف ما يشتهى، فإذا حدده ألبسه ثوب الدين.

وربما أقنع نفسه بأن شهوته هذه حق محض، ثم سعى إلى بلوغها وكأنما هو يؤدى عبادة ولا يشبع نهمه!!

وقد يقاتل دونها وهو يزعم أنه يقاتل عن دين، إن هذا الفساد المعقد عند نفر من الدعاة لعنة ماحقة، وذلك سر تناولهم بأقسى عبارة:

﴿ واتْلُ عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون * ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون﴾(١).

---

(١) الأعراف من ١٧٥ – ١٧٧ وراجع: مع الله للشيخ الغزالى ١٩٢.

التزود بالتقوى ومجاهدة النفس :

التقوى – كما عرفها العلماء – : (أن لا يراك الله حيث نهاك ، وأن لا يفتقدك حيث أمرك) .

أو هى – كما قال البعض : (اتقاء عذاب الله بصالح العمل ، والخشية منه فى السرّ والعلن) .

ومن هنا كان اهتمام الصحابة والسلف الصالح بالتقوى يجتهدون لها ويسألون عنها ، فقد ثبت أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سأل « أبىّ بن كعب » عن التقوى ، فقال له : أما سلكت طريقا ذا شوك ؟ قال بلى! قال: فما عملت؟قال:شمّرت واجتهدت، قال:فذلك التقوى»[1] .

ويقول الأستاذ سيد قطب تعليقًا على المعنى الذى أورده « أبى بن كعب فى إجابته لعمر رضى الله عنه : « التقوى حساسية فى الضمير وشفافية فى الشعور ، وخشية مستمرة وحذر دائم وتوقّى لأشواك الطريق .. طريق الحياة .. الذى تتجاذبه أشواك الرغائب والشهوات وأشواك المطامع ، وأشواك المخاوف ، والهواجس وأشواك الرجاء الكاذب فيمن لا يملك رجاء .. والخوف الكاذب ممن لا يملك نفعًا ولا ضرًا ،وعشرات غيرها من الأشواك »[2] .

ومما يعين على التقوى أن يكون الداعية دائم المحاسبة لنفسه على ما فرط منها عملاً بقوله – سبحانه – ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله

---

(١) راجع الظلال ١/٤٠ .

(٢) الموضع السابق .

ولتنظر نفس ما قدمت لغد ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾[1]» .

وهذه إشارة إلى المحاسبة بعد مضى العمل ، ولذلك قال عمر رضى الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا . فينبغى أن يكون للأخ الداعية ساعة يراجع فيها نفسه فى آخر النهار ، ويحاسبها على جميع ما كان منها .

ومعنى المحاسبة أن ينظر فى رأس المال ، والربح ، وفى الخسران لتتبين له الزيادة من النقصان ، فرأس المال فى دينه الفرائض ، وربحه النوافل والفضائل وخسرانه المعاصى .

فحين ينظر المؤمن فى رأس المال ، ويوازن بين الربح والخسارة ويتوب عما وقع فيه من أخطاء . ويجتهد أكثر فى عمل الطاعات يكون ممن حاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا ، لأن الإنسان لو رمى بكل معصية يفعلها حجرًا فى داره لامتلأت داره فى مدة يسيرة ولكنه يتساهل فى حفظ المعاصى وهى مثبتة (أحصاه الله ونسوه)[2] .

ولا بأس على الداعية أن يجعل من نفسه قاضيًا على نفسه فيعاقبها إن رأى منها تقصيرا فى جنب الله ،أو إهمالاً وإساءة ،ففى ذلك زجر لها عن المخالفة ، وحمل على التقوى وأخذ بها نحو حياة كريمة فاضلة .

وقد كان السلف الصالح يعاقبون أنفسهم إذا رأوا منها تقصيرًا ، من ذلك ما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه :أنه خرج إلى

---

(١) سورة الحشر : الآية ١٨ .

(٢) المقدسى : مختصر منهاج القاصدين ٣٩٣ و٣٩٤ (بتصرف وتلخيص) .

حائط له (أى بستان) ثم رجع وقد صلى الناس العصر ، فقال : « إنما خرجت إلى حائطى ، ورجعت وقد صلى الناس العصر ، حائطى صدقة على المساكين »..

قال الليث : إنما فاتته فى الجماعة .

وروى عنه أيضًا : أنه شغله أمر عن المغرب حتى طلع نجمان ، فلما صلاها أعتق رقبتين .

وحكى أن تميمًا الدارىّ رضى الله عنه نام ليلة لم يقم يتهجد فيها حتى أصبح فقام سنة لم ينم فيها عقوبة للذى صنع .

ومرّ حسان بن سنان بغرفة فقال : متى بنيت هذه ؟ ثم أقبل على نفسه فقال : تسألين عما لا يَعْنِيك لأعاقبنك بصوم سنة ، فصامها !! عقوبة على تدخله فيما لا يعنيه .

وينبغى أن يكون عقاب النفس بما هو مباح كما يعاقب أهله وولده ، وليحذر من العقوبات التى لا تحل ، فإنه يحرم فعله ، مثال ذلك : أن يغتسل من الجنابة فى فلاة فى يوم شديد البرد ، أو يعذب عضوًا من أعضائه بالنار ، أو يمتنع عن الطعام والشراب مدة تؤدى إلى الهلاك فإن هذا وأمثاله يحرم فى دين الله ويدخل تحت قوله تعالى :﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾[1] . وقوله تعالى : « ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيمًا »[2] .

---

(١) سورة البقرة آية ١٩٥ .

(٢) سورة النساء ٢٩ .

ومما يعين على تقوى الله عز وجل (مجاهدة النفس) على أداء النوافل والطاعات ، فإن رآها تتوانى بحكم الكسل فى شيء من الفضائل ، أو وِرْد من الأوراد ، أدّبها بإلزامها أكثر مما تفعل حتى تصبح الطاعات فى المستقبل عادة من عاداته ، وخلقًا أصيلا من أخلاقه .

وهذه المجاهدة فى الإقبال على الله بالنوافل والطاعات قد أمر بها الرسول ﷺ .

روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :قال رسول الله ﷺ « وما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إلى مما افترضت عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى أعطيته ولئن استعاذنى لأعيذنه » .

وروى مسلم عن أبى فراس .. قال : كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فآتيه بوَضوئه (أى الماء) وحاجته فقال « سلنى » فقلت أسألك مرافقتك فى الجنة ، فقال « أو غير ذلك » ؟قلت : هو ذاك ، قال : « فأعنّى على نفسك بكثرة السجود » .

وروى الترمذى عن أبى صفوان .. قال :قال رسول الله ﷺ « خير الناس من طال عمره وحسن عمله » .

وعلى الذين يجاهدون أنفسهم على عبادة الله ، عليهم أن يلحظوا فى عملهم هذا أمرين مهمين :

الأول : أن لا تكون عبادة النافلة على حساب الحقوق الأخرى ، كأن يقوم مثلاً بأداء حق الله فى النوافل ، ويهمل حق العيال فى

النفقة عملاً بقول النبى ﷺ « إن لله عليك حقًّا ، وإن لنفسك عليك حقًّا ، وإن لأهلك عليك حقًّا فأعط كل ذى حق حقه » (رواه البخارى) .

الثانى : أن لا يكلف نفسه فى النوافل فوق طاقتها ،لقوله ﷺ – فيما رواه الشيخان – « عليكم من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا » .

ومما يعين الداعية على التزود بالتقوى : دوام المراقبة له – سبحانه – ويكون ذلك باستحضار عظمة الله – تعالى – فى كل الأوقات والأحوال ومراقبته جل جلاله فى السر والعلن ، واستحضار الموت وما بعده ، واستعراض الآخرة وأحوالها .

– قال عبدالله بن دينار : خرجت مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى مكة فعرسنا فى بعض الطرق فانحدر بنا راعٍ من الجبل ، فقال له : ياراعى ، بعنى شاة من هذا الغنم .

فقال : إنى مملوك .

فقال له – اختبارًا – قل لسيدك أكلها الذئب .

فقال الراعى : فأين الله ؟

فبكى عمر رضى الله عنه، ثم غدا مع المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه وقال: أعتقتك فى الدنيا هذه الكلمة وأرجو أن تعتقك فى الآخرة!!

– ومن ذلك قصة الأم مع بنتها : الأم تريد أن تخلط اللبن بالماء غشًّا له ، وطمعًا فى الربح ، والبنت تذكرها بالله وإنذار أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

الأم تقول :أين نحن من أمير المؤمنين ؟ إنه لا يرانا !!

والبنت تقول : إن كان أمير المؤمنين لا يرانا فرب أمير المؤمنين يرانا .

– وعلى الداعية أن يكثر من تلاوة القرآن الكريم مع التدبر الخاشع فقد روى مسلم في صحيحه عن أبي أمامة عنه ﷺ : « اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه » .

وقال ﷺ « الذى يقرأ القرآن وهو ماهر به (أى حاذق) مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرأ القرآن ويتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران .

وقال ﷺ : « من قرأ حرفًا من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها ،لا أقوال ألم حرف ، ولكن ألفٌ حرف ، ولأمٌ حرف ، وميمٌ حرف » .

– ومما يعين الداعية على طاعة الله – سبحانه – مصاحبة الأخيار من الناس ، لأن فى صحبتهم فوائد جمة تعود عليه بالخير فى الدين والدنيا ولذلك يقول الرسول الكريم ﷺ « لا تصاحب إلا مؤمنًا ولا يأكل طعامك إلا تقى » .

وقال بعض السلف : « اصحب من ينهضك حاله ، ويدلّك على الله مقاله » وقد بين ﷺ أن المرء مع من أحب ولو كان المحبوب دونه تقى وعلمًا ومنزلة .. فقد روى الشيخان عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « المرء مع من أحب »

وفى رواية :قيل للنبى ﷺ : الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم ؟ قال ﷺ :« المرء مع من أحبّ » .

ورحم الله من قال :

تمسك إن ظفرت بذيل حرّ فإنّ الحرّ فى الدنيـا قليـل

وليحذر الداعية من قرناء السوء الذين لا يعينون على طاعة ولا يشجعون على خير ، لأن فى الجلوس مع هؤلاء فضلاً عن صحبتهم ومعاشرتهم بلاءً وشرًا ، ونقصًا فى الدين وهلاكًا فى الدنيا .

قال ﷺ : « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل » .

ورحم الله من قال :

عن المرء لاتسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى

— ومما يحقق التقوى للداعية : مداومته على ذكر الله عز وجل فى كل الأحوال والأوقات .

وقد أمرنا الله — سبحانه — بالذكر الكثير فى قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرًا كثيرًا وسبحوه بكرة وأصيلا ﴾[1] .

وقال ﷺ : « مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكر الله مثل الحى والميت »[2] . وفى الحديث القدسى : « أنا عند حسن ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم ، وإن تقرب منى شبرًا

---

(١) الأحزاب ٤١ و٤٢ .

(٢) رواه البخارى .

تقربت إليه ذراعًا ، وإن تقرب إلى ذراعًا تقربت منه باعًا ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولةً »[1] .

والذكر معناه : استحضار عظمة الله سبحانه فى جميع الأحوال .. سواء أكان هذا الاستحضار ذهنيًا ، أم قلبيًا ، أم لسانيًا أم فعليًا ، ويشمل الفعل : التلاوة والعبادة ، والعلم .

– ومما يغذى الروح ويرقق القلب ، بكاء المؤمن فى خلواته من خشية الله : ولاشك أن الداعية حين يخلو إلى ربه ويستعرض بينه وبين نفسه ذنوبه السابقة واللاحقة ويتذكر جهنم وأحوالها والآخرة وأهوالها .. ويمرّ بخاطره على الموت وما بعده ويوازن بين عمله وعمل السابقين الأولين .. فإن قلبه يخفق ونفسه ترتجف ، وعينه تدمع .. فيقبل بعد هذه التذكرة إلى ربه تائبًا منيبًا مستغفرًا ذاكرًا حافظًا لحدوده ، متبعًا لأوامره ، منتهيًا عن نواهيه .

واعلم – أخى الداعية – أن البكاء يكون نتيجة الخوف ، والخوف من ماذا ؟

الخوف من الموت قبل التوبة ، الخوف من الاستدراج بالنعم الذى يؤدى إلى سوء الخاتمة ، الخوف من سكرات الموت ونزع الروح ، الخوف من سؤال الملكين وعذاب القبر ، الخوف من الحساب والعبور على الصراط ، الخوف من النار وأهوالها ، الخوف من حرمان الجنة ونعيمها ، وأعظم من ذلك : أن يخاف الرياء حين يتعبد ، والعُجب

---

(١) رواه الشيخان .

حين يستغنى ،والنفاق حين يخالط ، والكبر حين يتزين ، والغرور حين تأتيه الدنيا إلى غير ذلك من أمراض القلوب ، وآفات النفوس[1] .

وأخوف الناس أعرفهم بنفسه وبربه ، ولذلك قال ﷺ كما ثبت فى الصحيح : « أنا أعرفكم بالله وأشدكم له خشية » وقال تعالى فى سورة فاطر : ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾[2] .

وإليك – أخى الداعية – فضل البكاء من خشية الله :

(أ) إنهم فى ظل الله يوم القيامة : روى الشيخان : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله . ومن جملتهم – رجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه » .

(ب) إنهم فى مأمن من عذاب الله : روى الترمذى عن ابن عباس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « عينان لا تمسهما النار :عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس فى سبيل الله » .

ولو نقبنا فى سيرة النبى ﷺ وفى حياة الصحابة والسلف .. لرأينا الصور الصادقة ، والنماذج الصالحة – فى إخباتهم لله ، وبكائهم من خشيته ، واستشعارهم بجبروته وعظمته .. وإليكم بعض الصور والنماذج :

روى الشيخان عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ : « اقرأ على القرآن » قلت : يا رسول الله أقرأ عليك القرآن وعليك

---

(١) عبد الله علوان : روحانية الداعية ٧٥ .

(٢) سورة فاطر آية ٢٨ .

أنزل ؟ قال :« إنى أحب أن أسمعه من غيرى » فقرأت عليه سورة النساء حتى جئت إلى هذه الآية : ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدًا﴾[1] .

قال : « حسبك الآن » (أى يكفيك) فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان !

٢ - وروى مسلم عن أنس قال :قال أبو بكر لعمر رضى الله عنهما بعد وفاة الرسول ﷺ : انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها ، فلما انتهيا إليها بكت ، فقالا لها : ما يبكيك ؟ أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ ؟قالت :إنى أعلم ما عند الله خير لرسول الله ﷺ ولكنى أبكى أن الوحى قد انقطع من السماء ، فهيجتهما على البكاء فجعلا يبكيان معها !!

٣ - روى البخارى .. أن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه أتى بطعام وكان صائما فقال : قتل مصعب بن عمير رضى الله عنه وهو خير منى ، فلم يوجد له ما يكفّن فيه إلا بردة إن غطى بها رأسه بدت رجلاه ، وإن غُطى بها رجلاه بدا رأسه ، ثم بُسط لنا من الدنيا ما بُسط وقد خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا ، ثم جعل يبكى حتى ترك الطعام !!

٤ - وروى البيهقى والأصبهانى عن أنس قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿وقودها الناس والحجارة﴾[2] فقال : « أوقد عليها

---

(١) سورة النساء آية ٤١ .
(٢) سورة التحريم آية ٦ .

ألف عام حتى احمرت ، وألف عام حتى ابيضت ، وألف عام حتى اسودت فهى سوداء مظلمة لا يطفأ لهيبها » قال : وبين يدى رسول الله ﷺ رجل أسود فهتف بالبكاء فنزل عليه جبريل عليه السلام فقال : مَن هذا الباكى بين يديك ؟ قال :رجل من الحبشة وأثنى عليه معروفًا ، قال : فإن الله عز وجل يقول : « وعزتى وجلالى وارتفاعى فوق العرش لا تبكى عين فى الدنيا من مخافتى إلا أكثرت ضحكها فى الجنة » .

– ومما يعين على تحصيل التقوى وتقوية الصلة بالله – سبحانه – حرص الداعية على التزود من عبادة النافلة على الدوام .. فقد روى الشيخان عنه ﷺ ومن تقرب إلىّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا ، ومن تقرب إلىّ ذراعًا تقربت إليه باعًا وإذا أقبل إلىّ يمشى أقبلت إليه أهرول » .

وروى البخارى عنه ﷺ :« وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه » .

وروى مسلم عنه ﷺ : « ما من عبد مسلم يصلى لله تعالى في كل يوم اثنتى عشرة ركعة تطوعًا من غير الفريضة إلا بنى الله له بيتًا فى الجنة » .

ويقصد بالنافلة عبادة التطوع من غير الفريضة ومن أمثلتها ما يلى :

١ – صلاة الضحى :

وأقلها ركعتان ، وأوسطها أربع ، وأكثرها ثمان ويبدأ وقتها بعد طلوع الشمس بنصف ساعة إلى ما قبيل الظهر بساعة .

٢ - ركعتا تحية المسجد :

روى مسلم عن أبى قتادة أن رسول الله ﷺ قال : « إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يصلى ركعتين » .

٣ - ركعتا سنة الوضوء :

روى البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ لبلال رضى الله عنه : « حدثنى بأرجى عمل عملته فى الإسلام ، فإنى سمعت دفّ نعليك (أى صوته) بين يدى فى الجنة ، فقال : « ما عملت عملاً أرجى عندى من أنىّ لم أتطهر طهورًا فى ساعة ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لى أن أصلى » .

نافلة الصوم :

روى مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال : « ما من عبد يصوم يومًا فى سبيل الله إلا باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفًا » .

وصوم النفل أنواع :

١ - صيام يوم عرفة :

روى مسلم عن أبى قتادة أن النبى ﷺ قال : « صيام يوم عرفة أحتسب على الله أن يكفر السنة التى قبله والسنة التى بعده » .

٢ - صيام يوم عاشوراء وتاسوعاء :

وهى التاسع والعاشر من شهر محرم ، لما روى مسلم عن قتادة : « صوم يوم عاشوراء أحتسب على الله أن يكفر السنة التى قبله والسنة التى بعده » .

وروى الإمام أحمد عنه ﷺ « صوموا يوم عاشوراء وخالفوا اليهود ، وصوموا يومًا قبله أو يومًا بعده » .

وبناء على هذه الرواية ، يصح للصائم أن يضم إلى عاشوراء اليوم التاسع ، أو اليوم الحادى عشر مخالفة لليهود .

٣ – صيام ست من شوال :

روى مسلم عن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه أن ﷺ قال : « من صام رمضان ثم أتبعه ستًا من شوال كان كصيام الدهر » .

٤ – صيام الاثنين والخميس :

روى مسلم أنه ﷺ كان يصومهما ، وسئل عن ذلك فقال : « تعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس فأحب أن يعرض عملى وأنا صائم » .

أدب الداعية وحسن خلقه

جاء فى صحيح البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت لرسول الله ﷺ : يا رسول الله هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد ؟

فقال : لقد لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة[1] (يوم الطائف) إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبنى إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على

---

(١) مكان مخصوص بالطائف ، حيث حدثت الواقعة المذكورة .

وجهى ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب[1] ، فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى ، فنظرت فإذا فيها جبريل فنادانى ، فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا به عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم .

فنادانى ملك الجبال ، وقال قد بعثنى ربك لتأمرنى بأمرك فما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ، فقال النبى ﷺ : « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا »[2] .

ويصفح رسول الله الصفح الجميل ويدعو ربه : اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك »[3] .

وصدق صاحب الهمزية :

جهلتْ قومه عليه فأغضى ... وأخو الحلم دأبه الإغضاءُ
وسع العالمين علمًا وحلمًا ... فهــو بحرٌ لم تُعْيه الاعياءُ

---

(١) مكان على مسافة يوم وليلة من مكة ، ويقال له قرن المنازل وهو ميقات أهل نجد .

(٢) أخرجه البخارى ٦/٣١٢ كتاب بدء الخلق .

(٣) السيرة لابن هشام ١/٤٢٠ .

* روى أبو أمامة رضى الله عنه أن غلامًا شابًا أتى النبى ﷺ فقال : يا نبى الله أتأذن لى فى الزنا ؟

فصاح الناس به .

فقال النبى ﷺ : قربوه أدنُ .

فدنا حتى جلس بين يديه .

فقال النبى ﷺ : أتحبه لأمك ؟

فقال : لا ، جعلنى الله فداك .

قال : كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم ، أتحبه لابنتك ؟

قال : لا ، جعلنى الله فداك .

قال : كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم ، أتحبه لأختك ؟

حتى ذكر العمّة والخالة وهو يقول فى كل واحدة :

لا ، جعلنى الله فداك .

وهو ﷺ يقول : كذلك الناس لا يحبونه ..

فوضع رسول الله ﷺ يده على صدره وقال : اللهم طهرّ قلبه ، واغفر ذنبه ، وحصّن فرجه .

فلم يكن شيء أبغض إليه منه[1] - أى من الزنى - .

* وبال أعرابى فى المسجد بحضرة النبى ﷺ ، فهم به الصحابة رضى الله عنهم .

---

(١) رواه أحمد .

فقال ﷺ : لا تزرموه – أى لا تقطعوا عليه البول – .

ثم قال له : إن هذه المساجد لا تصلح لشىء من القذر والبول والخلاء وفى رواية أنه قال : قربوا ولا تنفروا(١) .

وفى رواية أنه قال :

دعوه وأريقوا على بوله سَجْلاً – أى دلوا – من ماء فإنما بعثتم ميسرين ، ولم تبعثوا معسرين .

* وعن معاوية بن الحكم السُّلمى رضى الله عنه قال :

بينا أصلى مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم فقلت له : يرحمك الله .

فرمانى القوم بأبصارهم – أى نظروا إلىّ منكرين – .

فقلت : واثكل أماه ! ما شأنكم تنظرون إلىّ ؟

فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم !

فلما رأيتهم يصمتوننى سكتُّ .

فلما صلى رسول الله ﷺ دعانى ، فبأبى هو وأمى ، ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه ، فوالله ما نهرنى ولا ضربنى ، ولا شتمنى ، لكن قال :

« إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شىء من كلام الناس ، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن »(٢) .

---

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه مسلم .

— وجاء النبى ﷺ أعرابى يومًا يطلب منه شيئًا — أى من المال — فأعطاه ﷺ ، ثم قال له : أحسنت إليك ؟ قال الأعرابى : لا ، ولا أجملت — أى لم يعجبه ما أعطاه — فغضب المسلمون ، وقاموا إليه .

فأشار إليهم النبى ﷺ : أن كفّوا .

ثم قام ودخل منزله ، وأرسل إلى الأعرابى ، وزاده شيئًا ثم قال : أحسنت إليك ؟

قال : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرًا .

فقال له النبى ﷺ : إنك قلت ما قلت وفى نفس أصحابى شىء من ذلك ، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدى ، حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك .

قال : نعم .

فلما كان الغد ، أو العشى ، جاء الأعرابى ، فقال النبى ﷺ : إن هذا الأعرابى قال ما قال ، فزدناه ، فزعم أنه رضى — أكذلك ؟

فقال : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرةٍ خيرًا .

فقال ﷺ : إن مَثَلى ومَثَل هذا الأعرابى ، كمثل رجل كانت له ناقة شردت عليه ، فأتبعها الناس ، فلم يزيدوها إلا نفورًا فناداهم صاحب الناقة : خلوا بينى وبين ناقتى ، فإنى أرفق بها وأُعلم .

فتوجه لها صاحب الناقة بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض فردها هونًا هونًا، حتى جاءت واستناخت، وشد عليها رحلها، واستوى عليها .

وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال ، فقتلتموه دخل النار[1] .

---

(١) رواه البزار .

* وقال محمد بن زكريا الغلابي : شهدت عبد الله بن محمد بن عائشة ليلة ، وقد خرج من المسجد بعد المغرب يريد منزله ، وإذا في طريقه غلام من قريش سكران ، وقد قبض على امرأة فجذبها فاستغاثت ، فاجتمع الناس يضربونه .

فنظر إليه ابن عائشة ، فعرفه ، فقال للناس : تنحوا عن ابن أخي .

ثم قال : إليّ يا ابن أخي .

فاستحى الغلام ، فجاء إليه فضمه إلى نفسه ، ثم قال له : امض معي .

فمضى معه حتى صار إلى منزله ، فأدخله الدار ، وقال لبعض غلمانه : بيِّته عندك ، فإذا فاق من سكره ، فأعلمه بما كان منه ، ولا تدعه ينصرف حتى تأتيني به .

فلما أفاق ، ذكر له ما جرى ، فاستحيا منه وبكى ، وهم بالانصراف .

فقال للغلام : قد أمر الشيخ أن تأتيه .

فأدخله عليه فقال له : أما استحييت لنفسك ؟ أما استحييت لشرفك ؟ فاتق الله وانزع عمّا أنت فيه فبكى الغلام منكسًا رأسه ، ثم رفع رأسه وقال :

قد عاهدت الله تعالى عهدًا يسألني عنه يوم القيامة ، أني لا أعود لشرب الخمر ، ولا لشيء مما كنت فيه ، وأنا تائب .

فقبل الشيخ رأس الغلام ، وقال : أحسنت يا بنى .

فكان الغلام بعد ذلك يلزمه ، ويكتب عنه الحديث ، وكان ذلك ببركة رفقه به .

ثم قال الشيخ : إن الناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويكون معروفهم منكرًا فعليكم بالرفق فى جميع أموركم تنالون به ما تطلبون[1] .

* وعن الفتح بن شخرف قال : تعلق رجل بامرأة ، وتعرض لها ، وبيده سكين ، لا يدنو منه أحد إلا طعنه بها ، وكان الرجل شديد البدن .

فبينما الناس كذلك ، والمرأة تصيح فى يده ، إذ مر بِشْر بن الحارث رحمه الله تعالى ، فدنا منه ، وحك كتفه بكتف الرجل ، فوقع الرجل على الأرض ، ومشى بِشْر .

فدنا الناس من الرجل ، وهو يترشح عرقًا كثيرًا ، ومضت المرأة لحالها .

فسألوه : ما حالك ؟

فقال : ما أدرى ، ولكنى مسنى شيخ وقال لى : « إن الله عز وجل ناظر إليك وإلى ما تعمل » .

فضعفت لقوله قدماى ، وهبته هيبة شديدة ، ولا أدرى من ذلك الرجل ؟

---

(١) أحمد عز الدين البيانونى : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ص ٥٩ .

فقالوا له : هو بِشْرُ بن الحارث .

فقال : واسوءتاه ! كيف ينظر إلى بعد اليوم ؟

وحُمّ الرجل من يومه ، ومات بعد سبعة أيام[1] .

– ودخل رجل على بعض أمراء المؤمنين ، فوعظه وأغلظ عليه فى القول .

فقال له : يا هذا ، إن الله تعالى أرسل من هو خير منك ، إلى من هو شر منى ، وقال :

﴿فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى﴾[2] .

* أخرج ابن عبد الحكم فى سيرة « عمر بن عبد العزيز » أن عمر بن عبد العزيز كان جالسًا مرة مع بعض أصحابه ، فغُمّ على الحاضرين السراج فقام عمر وأصلحه بنفسه فقال له أحد الجالسين : لو نحن كفيناك المؤنة يا أمير المؤمنين ؟

فقال عمر قولته الخالدة – قمت وأنا عمر ، ورجعتُ وأنا عمر !!

وفى مجال الحلم :

جاء فى أسباب النزول للسيوطى : أن قريبًا لأبى بكر رضى الله عنه اسمه « مسطح » كان يعيش على إحسان أبى بكر وكفالته ، لم يتورع عن الخوض فى عرض عائشة رضى الله عنها لما أشاع المنافقون عليها ما أشاعوا فى حادثة الإفك ، وكان مسطح قد نسى أو تناسى

---

(١) السابق ٦١ .

(٢) سورة طه الآية ٤٤ .

حق الإسلام ، وحق الإحسان ، وحق القرابة .. مما أثار حفيظة أبى بكر ودفعه أن يحلف أن لا يصله ، فنزل قوله تعالى : ﴿ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾(١) .

فعفا عنه أبو بكر رضى الله عنه وصفح ، وعاد إلى عطائه الأول قائلاً أحب أن يغفر الله لى .

رغم الإساءة البالغة التى وجهها إليه مسطح !!

* وروى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما قدم « عُيَيْنَةُ بن حصن » نزل على ابن أخيه « الحرّ بن قيس » وكان من النفر الذين يدنيهم عمر رضى الله عنه إذ كان من قراء أصحاب مجلس أمير المؤمنين ومشاروته .

فقال عُيينة لابن أخيه الحر : استأذن لى على أمير المؤمنين فاستأذن له ، فلما دخل قال : هيه يا ابن الخطاب ، فوالله ما تعطينا الجزل (أى ما نستحقه من العطاء) ولا تحكم بيننا بالعدل فغضب عمر ، حتى همّ أن يوقع به .

فقال الحرّ بن قيس :يا أمير المؤمنين ، إن الله يقول : ﴿خذ العفو وأمر بالعُرفِ وأعرِضْ عـن الجاهلين﴾(٢) وإن هذا من الجاهلين ،

---

(١) سورة النور الآية ٢٢ .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٩٩ .

فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه ، وكان وقافًا عند كتاب الله عز وجل !!

* وجاء فى الإحياء : أن زين العابدين على بن الحسين رضى الله عنهما خرج مرة إلى المسجد فسبّه رجل ، فقصده غلمانه ليضربوه ويؤذوه ، فنهاهم زين العابدين ، وقال لهم : كفوا أيديكم عنه ، ثم التفت إلى ذلك الرجل وقال : ياهذا أنا أكثر مماتقول ، ومالا تعرفه عنّى أكثر مما عرفته ، فإن كان لك حاجة فى ذكره ذكرته لك !!

فخجل الرجل واستحيا .. فخلع زين العابدين قميصه وأمر له بألف درهم !!

فمضى الرجل وهو يقول : أشهد أن هذا الشاب ولد رسول الله ﷺ .

* وجاء أيضًا : أن غلامه كان يصب له الماء بإبريق مصنوع من خزف (من طين) فوقع الإبريق على رجل زين العابدين فانكسر وجرحت رجله ، فقال الغلام على الفور :

ياسيدى : يقول الله تعالى ﴿والكاظمين الغيظ﴾ .

فقال زين العابدين : (لقد كظمت غيظى) !!

ويقول :﴿والعافين عن الناس﴾ .

فقال زين العابدين : (لقد عفوت عنك) !!

ويقول : ﴿والله يحب المحسنين﴾ .

فقال زين العابدين : (أنت حر لوجه الله) !!

* وجاء فى كتاب « تربية الأولاد .. » لعبد الله علوان : قال : عبد الله بن طاهر كنت عند المأمون يومًا فنادى الخادم : يا غلام .. فلم يجبه أحد ، ثم نادى ثانيا وصاح : ياغلام .

فدخل غلام تركى وهو يقول : أما ينبغى للغلام أن يأكل ويشرب ؟

كلما خرجت من عندك تصيح :يا غلام .. يا غلام .. إلى كم يا غلام ؟ !!

فنكس المأمون رأسه طويلاً – فما شككت فى أن يأمرنى بضرب عنقه – ثم نظر إلىّ فقال :يا عبدالله ، إن الرجل إذا حسنت أخلاقه ، ساءت أخلاق خدمه ، وإنا لا نستطيع أن نسيء أخلاقنا لتحسن أخلاق خدمنا !!

* وجاء فى « المختصر » للمقدسى : أن رجلا شتم عدّى بن حاتم وهو ساكت ، فلما فرغ من مقالته قال : إن كان بقى عندك شيء فقله قبل أن يأتى شباب الحى .. فإنهم إن سمعوك تقول هذا لسيدهم لم يرضوا .. !!

* وجاء فى « المختصر .. » للمقدسى :أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله دخل المسجد مرة فى الظلمة ، فمر برجل نائم ، فعثر به (أى أصابه برجله) فرفع الرجل رأسه وقال : أمجنون أنت ؟

فقال عمر : لا .. فهمّ به الحرس ، فقال عمر : مه ، إنما سألنى أمجنون ؟ فقلت :لا .

* روى الحاكم فى المستدرك : أن معاوية بن أبى سفيان رضى اللهعنه بعث بثمانين ألف درهم إلى عائشة رضى الله عنها ، وكانت

صائمة ، وعليها ثوب خلق (أى قديم) فوزعت هذا المال من ساعتها على الفقراء والمساكين .. ولم تبق منه شيئًا ، فقالت لها خادمتها : يا أم المؤمنين : أما استطعت أن تشترى لنا لحما بدرهم تفطرين عليه ؟ فقالت أم المؤمنين : يا بنية لو ذكرتنى لفعلت !!

* قال « محمد بن إسحاق » : (كان أناس بالمدينة يعيشون ، ولا يدرون من أين يعيشون ؟ ومن يعطيهم ؟ فلما مات زين العابدين بن الحسين رضى الله عنهما فقدوا ذلك ، فعرفوا أنه هو الذى كان يأتيهم بالليل بما يأتيهم به ، ولما مات وجدوا فى ظهره أثر حمل الجراب – أى الكيس – إلى بيوت الأرامل والمساكين) .

مظهر الداعى وحسن هندامه

يجب على الداعية أن يحرص على مظهره العام ، وحسن صورته وهندامه أمام من يدعوهم ، ذلك لأنه قدوة ، والقدوة لابد أن يضرب المثل فى حسن المظهر وجمال المخبر وصدق السلوك ، وكثيرون ممن يتصدون للدعوة يهملون مراعاة هذا الجانب ظنًّا منهم أن حسن المنظر من الكماليات التى لا يحتاج إليها علماء الدين ، وهم فى هذا الظن بعيدون كل البعد عن الصواب ، ذلك لأن الدين دعوة إلى الجمال والنظافة الداخلية والخارجية ، ولعل المشتغلين بالدعوة يذكرون الآثار الكثيرة التى تحث على نظافة الجسم والثياب ، وخصوصا يوم الجمعة فقد قال النبى ﷺ : « اغتسلوا يوم الجمعـة ، وأغسلوا رؤوسكم ، وإن لم تكونوا جنبا ، وأصيبوا من الطيب »(١) .

---

(١) رواه البخارى .

وبلغ من شدة حضه على النظافة بالاستحمام أن بعض الأئمة ذهب إلى أن الاغتسال واجب لصلاة الجمعة .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « حق على كل مسلم أن يغتسل فى كل سبعة أيام يومًا ، يغسل فيه رأسه وجسده »(١) .

والداعية الواعى نظيف فى ثوبه وجوربه ، فلا يرضى أن تنتشر بقع الزيت على جبّته أو ثيابه ، أو تفوح من أدرانه أو قدميه رائحة منفرة ، ويستعين على ذلك بالطيب – أيضا – فلقد حكى عن سيدنا عمر رضى الله عنه أنه كان يقول : « من أنفق ثلث ماله فى الطيب ما كان مسرفًا » .

كذلك يتعهد فمه ، فلا يشم أحد منه رائحة مؤذية ، وذلك بتنظيف أسنانه يوميًا بالسواك والفرشاة والمطهرات والمنظفات ، ويتفقد فمه فيعرضه على طبيب الأسنان مرة كل سنة على الأقل وعلى غيره من أطباء الفم والحنجرة والبلعوم ، إن احتاج الأمر إلى ذلك بحيث يبقى فمه معطّر الأنفاس .

تروى السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها : أن رسول الله ﷺ « كان لايرقد ليلاً ولا نهارًا ، فيستيقظ إلا تسوّك قبل أن يتوضأ »(٢) .

وتبلغ عناية الرسول الكريم بنظافة الفم حدًّا يجعله يقول : « لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة »(٣) .

---

(١) متفق عليه .

(٢) رواه أحمد .

(٣) رواه الشيخان .

وسئلت السيدة عائشة عن أى شيء يبدأ به الرسول الكريم إذا دخل بيته فقالت : « السواك »[1] .

إنه لَمما يؤسف له أن نرى (بعض) الدعـاة يهملون هذه الجوانب وإنها لمن لبّ الإسلام وصميمه فلا يعتنون بنظافة أفواههم وأبدانهم وملابسهم فتراهم يغشون المساجد لوعظ الناس وتعليمهم وروائحهم تؤذى إخوانهم الحاضرين ، وتنفر الملائكـة التى تحفّ هذه الماكن الجليلة المباركة ومن عجب أنهم يرددون للنـاس فى حلقات العلم قول الرسـول ﷺ : « من أكل البصل والثوم والكراث فلا يقربن مسجدنا ، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم »[2] .

لقد حظر رسول الله ﷺ على الذين أكلوا بعض الأطعمة ذات الرائحة الخبيثة الاقتراب من المسجد ، لئلا تتأذى الملائكة والناس من أنفاسهم المشبعة بتلك الرائحة ، ولعمرى إنها لأهون شأنًا وأخف وقعًا على النفس من كثير من روائح الملابس والجوارب المتسخة والأبدان القذرة ، والأفواه البُخر ، التى تفوح من بعض الأفراد المتساهلين ، أو الغافلين عن النظافة ، فيتأذى الناس منها فى مجامعهم .

روى الإمام أحمد والنسائى عن جابر رضى الله عنه أنه قال : أتانا رسول الله ﷺ زائرًا ، فرأى رجلاً عليه ثياب وسخة ، فقال : « ما كان يجد هذا ما يغسل به ثوبه » ! ؟

---

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه مسلم .

لقد أنكر الرسول الكريم ﷺ أن يظهر الإنسان على الملأ بثياب وسخة مادام قادرًا على غسلها وتنظيفها ، إشعارًا منه - ﷺ - للمسلم بأن يكـــون دومًا نظيف الثياب ، حسن المظهر محبب المنظر .

فعلى الدعاة إلى الله أن يهتموا بنظافة أبدانهم وثيابهـــم فلا تفوح منهم إلا الروائح الطيبة الزكيـــة ، ولا يلبسون إلا الملابس الجميلة النظيفة أسوة بالنبى ﷺ الذى يروى عنه أنس بن مالك رضى الله عنهما فيقول : « ما شممت عنبرًا قط ، ولا مسكا ، ولا شيئًا أطيب من ريح رسول الله ﷺ »[1] .

ولقد كان ﷺ إذا صافحه أحد ، ظل يومه يجد ريح الطيب فى يده ، وإذا وضع يده على رأس الصبى ، عرف من بين الصبيان بالرائحة الزكية .

ومن هدى النبى ﷺ أمره برعاية الشعر وإكرامه فيقول فى ذلك : « من كان له شعر فليكرمه » .

وإكرام الشعر يكون بتنظيفه وتمشيطه وتطييبه وتحسين شكله وهيئته .

ويجدر بالداعية أيضًا أن يحسن هيئته ، ويهتم بلباسه وهندامه بحيث يكون أنيق المنظر حسن الهيئة من غير مغالاة ولا إسراف ، ترتاح لمرآه العيون ، وتأنس به النفوس ، خصوصًا إذا أراد لقاء الناس لتعليمهم العلم فعليه أن يتفقد نفسه ويتجمل لأصحابه وإخوانه .

---

(١) رواه مسلم .

قال القرطبى فى تفسير قوله تعالى : ﴿قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾ : « روى مكحول عن عائشة (رضى الله عنها) قالت : كان نفر من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه على الباب ، فخرج يريدهم ، وفى الدار ركوْة فيها ماء ، فجعل ينظر فى الماء ، ويسوى لحيته وشعره . قالت عائشة : فقلتُ له : يا رسول الله وأنت تفعل هذا ؟ قال : نعم ، إذا خرج الرجل إلى إخوانه ، فليهيىء من نفسه فإن الله جميل يحب الجمال » .

والمسلم يفعل هذا كله وفق نظرية الإسلام التى تقوم على الوسطية فى الأمور كلها دون إفراط أو تفريط : ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما﴾[1] .

إنه لمما يؤلم النفس والفؤاد أن يسف الداعية فى مظهره إلى درجة الإهمال المزرى بصاحبه ، بدعوى أن ذلك من الزهد والتواضع ، أليس رسول الله ﷺ وهو سيد الزهاد والمتواضعين كان يلبس اللباس الحسن ويتجمل لأهله وأصحابه ، ويرى فى هذا التجمل وحسن الهندام إظهارًا لنعمة الله عليه ؟

ولذلك يقول : « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده »[2] .

وفى طبقات ابن سعد[3] : عن جندب بن مكيث رضى الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ إذا قدم الوفدُ لبس أحسن ثيابه وأمر علْيَةَ

---

(١) سورة الفرقان : آية ٦٨ .
(٢) رواه الترمذى والحاكم .
(٣) ٤/ ٣٤٦ .

أصحابه بذلك ، فلقد رأيت رسول الله ﷺ يوم قدم وفد كِنْدَةَ ، وعليه حُلَّةٌ يمانية ، وعلى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما مثل ذلك » .

وأخرج ابن المبارك والطبرانى والحاكم والبيهقى وغيرهم عن عمر رضى الله عنه قال : « رأيت رسول الله ﷺ دعا بثياب جدد فلبسها فلما بلغت تراقيه قال : الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى وأتجمل به فى حياتى » .

وكان عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه يلبس البُرد والحلة تساوى خمسمائة أو أربعمائة[1] .

واشترى ابن عباس رضى الله عنه ثوبًا بألف درهم فلبسه[2] .

ومادام التجمل لا يبلغ حد التأنق المفرط ، فهو من الزينة الطيبة التى أباحها الله لعباده وحض عليها :

﴿يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ، قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون﴾[3] .

---

(١) طبقات ابن سعد ٣/ ١٣١ .
(٢) الحلية ١/ ٣٢١ .
(٣) سورة الأعراف : الآيتان ٣٢ ، ٣٣ .

وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقالُ ذرة من كبر ، فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعلُه حسنًا ؟ — يعنى : أيُعَدُّ هذا من الكبر ؟ — قال النبى ﷺ : « إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطرُ الحقّ[1] . وغَمْطُ الناس »[2] .

وهذا ما فهمه الصحابة الكرام ومن تبعهم بإحسان وساروا عليه . ومن ثَمَّ كان الإمام أبو حنيفة رضى الله عنه حسن الهيئة والثياب طيب الرائحة ، حريصًا على دوام التأنق فى الملبس ، بلغ من حرصه على تحسين الثياب والهندام أنه كان يحث الناس على ذلك ويبالغ فى حثهم على إصلاح هيئتهم ، ولقد رأى ذات يوم أحد جلسائه فى ثياب رثّة ، فانفرد به وقدّم إليه ألف درهم ليصلح بها هيئته ، فقال له الرجل : إنى موسر ، وفى نعمة ، ولا أحتاج إليها ، فقال له أبو حنيفة معاتبًا: أما بلغك الحديث : « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»؟ فينبغى لك أن تغير حالك، حتى لا يغتم بك صديقك.

وبَدَهِىٌّ أن الدعاة إلى الله ينبغى أن يكونوا فى أحسن هيئة ، وأجمل مظهر ، وأتم أناقة ، وأكثر جاذبية من غيرهم ليكونوا أقدر على التغلغل فى مسارب القلوب ، والوصول بدعوتهم إلى دخائل النفوس . على أن هذه العناية بالمظهر لا تنزلق بالمسلم الحق الصادق إلى المغالاة فى التزين ، والإفراط فى التأنق ، إلى حدّ يختل فيه التوازن الذى أقام

---

(١) أى رده وعدم قبوله .
(٢) أى احتقارهم والاستهانة بهم .

الإسلام عليه تشريعاته جميعًا . فالمسلم الواعى يقظ متنبه دومًا إلى الاعتدال فى كل شيء ، بحيث لا يطغى جانب فى حياته على جانب[1] .

(١) راجع بالتفصيل الكتاب القيم للدكتور محمد على الهاشمى : شخصية المسلم كما يصوغها الإسلام فى الكتاب والسنة . جزى الله مؤلفه خير الجزاء وأجزل له المثوبة . وراجع — أيضًا — مسار الدعوة للأستاذ الدكتور محمد إبراهيم الجيوشى مبحث (مظهر الداعى وحسن هندامه) وراجع : خلق المسلم للأستاذ محمد الغزالى مبحث (النظافة والتجمل والصحة) .

الفصل الرابع

اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر

جماعة التبليغ

جماعة التبليغ جماعة إسلامية تقوم دعوتها على تبليغ فضائل الإسلام لكل من تستطيع الوصول إليه ملزمة أتباعها بأن يقطع كل واحد منهم جزءًا من وقته لتبليغ الدعوة ونشرها بعيدًا عن التشكيلات الحزبية والقضايا السياسية . ويمكن أن توصف هذه الجماعة بأنها مناسبة إلى حد بعيد لحالة المسلمين في الهند باعتبارها أقلية في مجتمع كبير[١] .

مؤسسها :

أسس جماعة التبليغ الشيخ محمد إلياس الكاندهلوى (١٣٠٣ – ١٣٦٤هـ) ، ولد في كاندهلة ، قرية من قرى سهارنفور بالهند ، تلقى تعليمه الأول فيها ثم انتقل إلى دلهي حيث أتم تعليمه في مدرسة (ديوبند) التي هي أكبر مدرسة للأحناف في شبه القارة الهندية تأسست عام ١٢٨٣هـ – ١٨٦٧م[٢] .

---

(١) الموسوعة الميسرة للأديان والمذاهب المعاصرة ١١٥ .
(٢) السابق .

اتجه الشيخ محمد إلياس – إلى البحث عن طريقة للاتصال بطبقات الشعب المسلم .. لإثارة شعورهم الدينى ، وإحساسهم بخطر الردة المحدق بهم ، وتذكيرهم بحاجتهم إلى بارئهم وضرورة الاستعداد ليوم لقائه .. فرأى أن يبدأ مسلكه الجديد بتحريك الإيمان فى قلوبهم وتعريفهم بمبادىء الإسلام ودعوتهم إلى تطبيقها وحثهم على العلم والاشتغال بذكر الله .

ورأى الشيخ – رحمه الله – أن الدعوة لا يرجى لها الاستمرار والانتشار إلا إذا تولاّها رجال متطوعون محتسبون بعيدًا عن الاعتماد على جمع التبرعات والإعانات ، وبعيدًا عن هدر الأوقات والجهود فى الأساليب الإدارية الروتينية . فاختار لحركته أن تطالب المسلم بالفائض من وقته وجهده بدلاً من أن تطالبه بالفائض من ماله ، وأن تبتعد عن اللغو السياسى والشعارات واللافتات الحزبية والمظاهر الإدارية الحديثة[1] .

فى الهند والباكستان :

وعلى هذا المنهج بدأت « جماعة التبليغ » خطواتها الأولى للدعوة إلى الله فى منطقة « ميوات » من جنوب الهند .. داعية الناس إلى شغل أوقات فراغهم بالخروج من بيئاتهم الفاسدة المألوفة إلى مناطق أخرى يعيشون فيها حياة المسلم العادية كما سنها رسول الله ﷺ ويتعودون فيها على عمارة بيوت الله وأداء فرائضه ودعوة غيرهم إلى ذلك .

وقد أثرت هذه الحركة بفضل الله فى أهل المنطقة فأخذوا يعودون إلى الإسلام وإلى الدعوة إليه (على منهج الجماعة) ، ثم أخذت

---

(١) ندوة اتجاهات الفكر الإسلامى المعاصر ٥٧١ .

الدعوة تدريجيًا فى الانتشار فى الهند والباكستان حيث قام المسلم الداعى إلى الله يحمل زاده ومتاعه ويعيش بين المدعوين إلى الله يخالطهم ويؤاكلهم ويذكرهم بالله فى كل وقت وعلى كل حال ، ويجعل من نفسه قدوة لهم فى الالتزام بما يدعو إليه[1] .

التنظيم :

المركز الرئيسى للجماعة هو المسجد القديم فى منطقة نظام الدين بجنوب دلهى ، ويقيم فيه أميرها وبعض قدمائها ، ويعود إلى هذا الأمير العام اختيار أمراء الجماعة فى كل قطر بعد التشاور مع المجتهدين فى ذلك القطر .

وليس للجماعة نظام مكتوب أو سجل ثابت للأعضاء أو رسم عضوية . وليس لها ميزانية ولا جهاز إدارى ولا تصدر عنها تقارير إعلامية من أى نوع .. ولا تعتمد على الكلمة المكتوبة عمومًا فى نشر دعوتها أو الإعلان عن اجتماعاتها أو إنجازاتها .. إنما تستعمل الوسيلة الفطرية القديمة .. الكلمة المنطوقة من فم رجل إلى أذن آخر ويسخّر لنشرها جميع أفراد الجماعة من خلال نشاطهم العادى .

ويتحمل نفقات الدعوة (وهى زهيدة) كل مشترك فيها يدفع قبيل خروجه ما يكفى قوته ووسيلة نقله مدة ثلاثة أيام على الأكثر ، ويحمل معه متاعه وفراشه ، ويقيم مع رفقائه في المساجد ولكل بلد أمير ولكل جماعة خارجة أمير يختاره أمير المركز بالتشاور مع القدماء والمجتهدين فى مركزه .

---

(١) السابق ٥٧٢ .

وعلى كل فرد منهم تفريغ وقته للخروج فى سبيل الله للدعوة ثلاثة أيام فى الشهر وأربعين يومًا فى السنة وأربعة أشهر فى حياته على الأقل ، وأن يشترك فى حلقتى علم يوميا إحداهما فى مسجده مع أقرانه والأخرى فى بيته مع أولاده وأهله للمحافظة على ذكر الله ، ولتدارس فضل العمل الشرعى وثوابه عند الله حتى تزداد رغبتهم فيه واهتمامهم بحسن أدائه[1] .

المنهج :

ينحصر منهج جماعة التبليغ فى وعظ المسلمين ومحاولة نقلهم من بيئات الغفلة إلى المساجد .. وتعويدهم على ترك المعصية وأداء الطاعة وتسيير حياتهم اليومية وفقا لشرع الله وعلى سنة رسول الله ﷺ سواء فى علاقتهم بالله أو بخلق الله ، وسواء فى أدائهم للفرائض والنوافل أو قيامهم بعاداتهم من أكل وشرب ونوم وتعامل مع كل مخلوق .

وركيزتهم الأساسية فى هذا المنهج : الموعظة ويطلقون عليها « البيان » وتشمل فى الغالب من أيام اجتماعاتهم الوقت بين صلاة المغرب وصلاة العشاء ، وموضوعها الدائم : أصول الدعوة الستة أو الصفات الست من صفات الصحابة التى يرون من الضرورى تدريب المسلم عليها باعتبارها مفاتيح للدين إذا تحققت فى حياته سهل عليه فتح أبواب دينه ونشره فى العالم[2] .

---

(١) اتجاهات الفكر الإسلامى المعاصر ص ٥٧٣ .
(٢) السابق ٥٧٤ .

ومبادئهم الستة هى كما يلى :

١ - تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله عمليا فى حياة المسلم بطاعة الله واتباع أوامره واجتناب نواهيه والتوكل عليه وحده والاقتداء بسنة رسوله ﷺ فى العبادات والعادات .

٢ - الصلاة ذات الخشوع والخضوع .

٣ - العلم مع الذكر ، والمقصود بالعلم علم الفضائل لا علم الأحكام .

٤ - إكرام المسلمين .

٥ - تصحيح النية .

٦ - الخروج فى سبيل الله ، ويقصد بهذا الخروج ؛ الانتقال من مسجد إلى مسجد ومن حى إلى حى ومن بلد إلى بلد ومن دولة إلى دولة لإصلاح النفس وإصلاح غيرهم عن طريق الموعظة وتغيير البيئة والتعود على الطاعة .

وسياجًا على كل ذلك « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »[1] .

طريقتهم فى نشر الدعوة :

١ - تنتدب مجموعة منهم نفسها لدعوة أهل بلد ما ، حيث يأخذ كل واحد منهم فراشًا بسيطًا وما يكفيه من الزاد والمصروف على أن يكون التقشف هو السمة الغالبة عليه .

---

(١) السابق ٥٧٤ . وانظر - أيضًا - د/صادق أمين :الدعوة الإسلامية ٦٩ . والموسوعة الميسرة ١١٧ .

٢- عندما يصلون إلى البلد أو القرية التى يريدون الدعوة فيها ينظمون أنفسهم أولا بحيث يقوم بعضهم بتنظيف المكان الذى سيمكثون فيه ، وآخرون يخرجون متجولين فى أنحاء البلدة والأسواق والحوانيت ، ذاكرين الله داعين الناس لسماع الخطبة أو (البيان) كما يسمونه .

٣- إذا حان موعد البيان التقوا جميعًا لسماعه ، وبعدها يقسمون الناس الحاضرين إلى مجموعات يتولى كل داعية منهم مجموعة يعلمهم الوضوء أو الفاتحة أو الصلاة أو تلاوة القرآن .. حلقات حلقات ويكررون ذلك عددًا من الأيام .

٤- قبل أن تنتهى إقامتهم فى هذا المكان ينتدبون الناس للخروج معهم لتبليغ الدعوة حيث يتطوع الأشخاص لمرافقتهم يومًا أو ثلاثة أيام أو أسبوعًا .. أو شهرًا .. كل بحسب طاقته وإمكاناته ومدى تفرغه تحقيقًا لقوله تعالى : ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ .

٥- يرفضون إجابة الدعوة إلى الولائم التى توجه إليهم من أهل البلدة أو الحى حتى لا ينشغلوا بغير أمور الدعوة والذكر ، وليكون عملهم خالصًا لوجه الله تعالى .

٦- لا يتعرضون إلى فكرة (إزالة المنكرات) معتقدين بأنهم الآن فى مرحلة إيجاد المناخ الملائم للحياة الإسلامية ، وأن القيام بهذا العمل قد يضع العراقيل فى طريقهم وينفر الناس منهم .

٧- يعتقدون بأنهم إذا أصلحوا الأفراد فردًا فردًا فإن المنكر سيزول من المجتمع تلقائيًّا .

٨- إن الخروج والتبليغ ودعوة الناس هى أمور لتربية الداعية ولصقله عمليا إذ يحس بأنه قدوة وأن عليه أن يلتزم بما يدعو الناس إليه(١) .

هذا .. وتبدأ أعمال الخروج فور ركوبهم وسيلة السفر بقراءة القرآن والحديث ، وعند وصولهم المسجد وأداء تحيته يجتمعون للشورى حول ترتيب عملهم وتوزيعه خلال الأربع والعشرين ساعة القادمة على الوظائف التالية :

١- إعداد الطعام ويقوم به اثنان منهم أو ثلاثة .

٢- زيارة إمام المسجد ومركز الشرطة والمهمين من أهل الحى .

٣- إمارة حلقة التعليم .

ولعل من المناسب أن نذكر لك أيها القارىء الكريم عمل الجماعة خلال أربع وعشرين ساعة فنقول :

أولا : حوالى الساعة التاسعة صباحا يجتمعون على « حلقة التعليم » وتقتصر على :

١- تلاوة العشر سور الأخيرة من القرآن يشترك كل منهم فى القراءة والاستماع .

٢- قراءة بعض الأحاديث النبوية فى فضائل الأعمال من كتاب « رياض الصالحين » للنووى خاصًا بالعرب ومن كتاب « تبليغى نصاب » لمحمد زكريا الكاندهلوى خاصا بالعجم .

---

(١) الموسوعة الميسرة ١١٧ و١١٨ .

٣- التدريب على إلقاء الموعظة بتعداد الأصول الستة أو الصفات الست (التى مر ذكرها) إجمالاً أو تفصيلاً .

٤- تدارس آداب وأصول الجماعة وهى كالتالى :

- الالتزام بأربع : طاعة الأمير ، الاشتراك فى الأعمال الجماعية ، الصبر والتحمل ، نظافة المسجد .

- الاشتغال بأربع : الدعوة ، العبادات ، حلقة التعليم ، الخدمة .

- التقليل من أربع : الطعام ، المنام ، الكلام ، وقت قضاء الحاجات .

- تجنب أربع : الإسراف ، الإشراف ، السؤال ، استعمال ملك غيره إلا بإذنه .

- عدم الخوض فى أربع : المسائل الفقهية ، المسائل السياسية ، أوضاع الجماعات الأخرى ، الجدال .

- عند زيارة الحكام تبين لهم الأحوال (نشاط الجماعة) والعلماء يطلب منهم الدعاء والمثقفون يدعون دون إلحاح ، ويركز فى الدعوة على العوام .

ثانيًا : بعد صلاة الظهر يتولى أحدهم تعريف المصلين بأهداف خروجهم . وأنهم جاءوا من بلاد وقبائل ومهن شتى لا يريدون غرضًا دنيويًّا ، وإنما زاروهم لله ولدين الله راجين منهم أن ينصروهم فى هذا السبيل ، وبعد التعارف يكون الغداء والراحة .

ثالثًا : بعد صلاة العصر يلقى أحدهم موعظة قصيرة يحث فيها المصلين على الاشتراك مع الخارجين فى زيارات خاصة فى البيوت لمن يرون حاجتهم للزيارة .

رابعًا : قبل المغرب بساعة يجتمع الخارجون للاستماع إلى آداب الجولة العامة ويختار منهم أميرهم جماعة أو أكثر للتجول على الناس فى الأماكن العامة : الشارع ، المحل التجارى ، المقهى ، والنادى . ودعوة من يلقونه إلى المسجد بعد تذكيره بغاية وجوده ومستقبله الأخروى ، ويعين من بينهم أميرًا ودليلاً ومتكلمًا ، ويبقى واحد منهم منعزلاً لذكر الله فى المسجد « سببًا لنجاح الجولة » وآخر لاستقبال المستجيبين وثالثًا مع بقية الخارجين فى قراءة فضائل الأعمال .

خامسًا : بعد صلاة المغرب مباشرة يعلن أحدهم عن الموعظة الرئيسية بعد صلاة النافلة بالصيغة التالية « إن نجاحنا وفلاحنا بإتباع أوامر الله وعلى طريق رسوله ﷺ ، إن شاء الله بعد السنة الراتبة تستمعون إلى كلام الدين والإيمان بالتفصيل » .

وبعد النافلة يتكلم أحدهم فى نطاق الأصول الستة أو الصفات الست مثيرًا العاطفة والغيرة الدينية مستعينًا ببعض الآيات والأحاديث (الضّعيفة غالبا) والقصص (الإسرائيلية غالبا) .

ويختتم الدرس بالهدف الأساسى له : « التشكيل » ويعنون به دعوة الحاضرين وتسجيل المستجيبين منهم للخروج فى سبيل الله ، وبالدعاء الجماعى .

سادسًا : بعد صلاة العشاء يقرأ أحدهم قصة أو أكثر من كتاب « حياة الصحابة » لمحمد يوسف الكاندهلوى بقصد ألا يستكثر الدعاة جهدهم ونفقتهم ولحثهم على بذل المزيد .

سابعًا : يذكرهم واحد منهم أو أكثر بآداب الطعام والنوم قبل انصرافهم إليهما ، وربما ذكروا فى هذا الوقت أو غيره بآداب المساجد وآداب الغسل .

ثامنًا : قد يقتسمون ساعات الليل فى التهجد ، ويختلف جهدهم باختلاف أفرادهم ، ولكن على الجميع الاستيقاظ قبل نصف ساعة على الأقل من أذان الفجر لقيام شىء من الليل وصلاة الصبح .

تاسعًا : بعد الصلاة يحدثهم أحدهم عن عظمة الله وعن الدار الآخرة وربما تدارسوا الأصول أو الصفات أو إعادة تلاوة العشر سور القصار من القرآن حتى الشروق .

عاشرًا : بعد انتشار الشمس يصلون صلاة الضحى ويتناولون طعام الإفطار ، وينالون قسطًا من الراحة حتى الساعة التاسعة تقريبًا حيث يجتمعون لحلقة جديدة من التعليم والتشاور فى أعمال الأربع والعشرين ساعة التالية .

موقف الجماعة من القضايا الدينية والدنيوية :

(أ) **فى العقيدة** : لأن منهج الجماعة لا يتعرض بشكل مباشر لغرس العقيدة الصحيحة فى نفوس أفرادها فإنه لا يمكن الحكم عليهم بمجموعهم ، وإنما يختلفون باختلاف بيئاتهم فكما أنهم فى وسط الجزيرة العربية حنابلة وفى الهند أحناف من حيث المذهب الفقهى ،

فهم فى وسط الجزيرة العربية سلفيون غالبًا ، وفى الهند أشعريون غالبًا من حيث العقيدة .

فى القارة الهندية يغلب عليهم التصوف ، يقرر أحد الكتاب[1] أن لدى معظم أمرائهم فى الهند والباكستان ومنهم أميرهم العام إجازة البيعة على أربع طرق (الجشتية والنقشبندية والقادرية والسهر وردية) وأنهم يمارسونها دون تحفظ مع الأعاجم ويحذر مع العرب ، وأن بعض القدماء يمارسون كتابة الحجب على خليط من الآيات والأدعية والطلاسم .

ولكن هذا فيما يبدو (حتى الآن) ليس جزءا من الدعوة ولم يتأثر به إلا قليل[2] .

(ب) **فى السياسية** : جماعة التبليغ يعتبرون السياسة فيما يتعلق بنظام الحكم ، أمرًا يجب على الداعى تجنب الخوض فيه قولاً أو عملاً ، لأنها تفرق بين الأخ وأخيه ، وتثير الأحقاد بين المسلمين وقد تتسبب ممارستهم لها فى إيقاف عمل الدعوة ، وعلى هذا فهم لا يدخلون الانتخابات (مثلا) مرشحين ولا منتخبين ،ولا يؤيدون الحكم القائم ولا يعارضونه ، ولا يتعرضون لتنظيم الدولة فى دروسهم ومواعظهم مهمتهم إصلاح الفرد ومن الأفراد يتكون المجتمع رعاة ورعية .. كذلك يمنعون دروس العقيدة والأحكام الفقهية فى مساجدهم الرئيسية ويمنعون الإنكار اللفظى للبدع ، ويمنعون الإشتراك فى بعض أعمال

---

(١) الأستاذ سعد الحصين .

(٢) رأى آخر فى جماعة التبليغ ٥٧٨ .

الخير مثل توزيع الصدقات حتى لا يتهموا بأنهم يحصلون على إعانات من الدولة ، ويمنعون دعوة العالم والحاكم إلى الله مباشرة من أجل أن يكسبوا تأييدهما ، وحتى لا يثيروا سخطهما[1] .

(جـ) **فى التربية** : نجحت جماعة التبليغ فى جانب التربية نجاحًا عظيمًا ، يخرج العاصى معهم أياما معدودة فيترك معصيته ، ويتغلب على عادته السيئة (خصوصا فيما يأكل ويشرب ويلبس ويشتهى) يتدرب على إلقاء الموعظة دون جهد يذكر وباللغة العربية أو الهندية التى تلقاها بها .. وينشأ فى قلبه الاهتمام بالمستقبل الأخروى له ولأهله ولعامة البشر ، ويكتسب خُلقًا أفضل فى مختلف علاقاته ومعاملاته . كذلك التوجيه عندهم يقوم على اللين أكثر من القسوة ، وعلى البشارة أكثر من الإنذار وعلى القدوة الحسنة .. وهم – على حد تعبيرهم – لا يشيرون إلى القذى فى أعين إخوانهم ولا إلى المنكرات فى تصرفاتهم ولكنهم يعطونهم المرآة ويوفرون لهم فرصة النظر فيها ، وتفقد أحوالهم وإصلاح ما فسد منها ، هذه المرآة سنة رسول الله ﷺ خاصة فيما يتعلق بالآداب والأخلاق وهى من أهم حقول التربية[2] .

تقييم لجماعة التبليغ :

لا شك أن جماعة التبليغ كانت ولا تزال بجهودها المخلصة خيرًا وبركة على الإسلام والمسلمين ، لقد هدى الله على أيدى أتباعها الكثيرين فى الشرق والغرب خصوصًا فى أوربا وأمريكا .

---

(١) السابق ص ٥٧٩ .

(٢) السابق ٥٨٠ .

ولقد عاشرتُ بعضهم فى ميدان العمل والحياة وأشهد أنهم أمثلة حية للتواضع والأدب الجم والدعوة إلى الله – سبحانه – برفق ولين وسماحة ومودة ، ويكفى أن يكون بين صفوف تلك الجماعة الداعية الإسلاميّ « الشيخ إبراهيم عزت » الذى أحيا الله بإخلاصه وغيرته موات القلوب ، وكانت خطبه ومواعظه تنشرح لها الصدور وتطمئن بها الأفئدة ، ويهتدى بها الضال وتزيد المؤمن إيمانًا وإحسانًا ، لقد أجمعت قلوب العباد على محبته واتفقت كلمة العقلاء من الجماعات المختلفة على لطفه وأدبه وحكمته ،لقد كان صوتًا نديًّا تسعى إليه آلاف المصلين فى « جامع أنس » كل يوم جمعة ، فيعود الجميع وقد عاهدوا الله على الوفاء لدينه هذا حال واحد فكيف بالآلاف من الشباب والشيب الذين يجوبون المدن والقرى والنجوع فى أرجاء المعمورة داعين إلى الله ، مذكرين بيوم عرضه ولقاه .. ؟ !

ومهما يكن من أمر : فإن نجاح الدعوة يعود إلى الأسباب الآتية :

(أ) إخلاص مؤسسها الأول مولانا محمد إلياس وخليفته الأول ابنه محمد يوسف – رحمهما الله – وتفانيهما فى الدعوة إلى الله ، وبعدهما عن المظاهر وأساليب الدعاية والإعلان وتواضعهما مما أعطى قدوة حسنة للأتباع .

(ب) عنايتهما بالجانب الروحى للمسلم ، من الصلاة فى وقتها وقراءة القرآن وقيام الليل ، وتركيزهما على الدعاء فرادى وجماعات وهو من أنجح وسائل الدعوة ، والدعاء مخ العبادة وأقوى سلاح ضد النفس الأمارة بالسوء وضد العدو القاهر .

(جـ) وجود جماعة أتقياء صالحين على قدر كبير من التواضع والإيثار والبعد عن المشاكل ، وهى تتحرك مع المجموعات وتؤثر فى أفرادها وفى كسب المدعوين إلى صفوفها[1] .

مآخذ على جماعة التبليغ :

ذكر العلماء بعض السلبيات أو الملاحظات التى توجد فى جماعة التبليغ على الرغم من حسناتها الكثيرة – رأينا من الإنصاف وتتمة للبحث أن نوردها فيما يلى :

١ – أن هذا النجاح الكبير الذى حققته جماعة التبليغ ربما كان أحد الأسباب الرئيسية لعدم مراجعة الأخطاء فى المنهج وفى التطبيق .

٢ – أكثر من يغيرون حياتهم فى الخروج مع الجماعة سرعان ما يتسرب إليهم الوهن والضعف لعدم المتابعة بمجرد ترك الخروج لعدم وجود منهج تربوى يحمل على الاقتناع العقلى بالإسلام .

٣ – لاحظ – أحد الكاتبين – على بعض البارزين فى الجماعة من كبار الموظفين أو من التجار أنهم ضعفاء فى المعاملة مع الناس وعدم تحرى الحرام والحلال فى التعامل التجارى .

٤ – الخروج فى سبيل الله خطوة تربوية وتطبيقية رائعة وهى من أهم خصائص هذه الجماعة وعن طريق مكاسبها تضطرد زيادة عدد المؤمنين بها .

---

(١) دكتور حمد الصليفيح : بحث فى ندوة اتجاهات الفكر الإسلامى ص ٦٠٥ .

إلا أن التركيز على مجرد الخروج لتزكية النفس والمبالغة فى تضخيم هذا العمل دون إعطاء المفهوم والتكامل للدعوة إلى الله والخروج فى سبيل الله ، كما هو فى حياة النبى ﷺ وصحابته يكاد يقتل روح الجهاد والإنفاق فى سبيل الله والاهتمام بشئون المسلمين .كما أن المبالغة فى المطالبة بالخروج فى تشكيلات الجماعة قد يترتب عليه عند بعض العوام إهمال حقوق النفس والأهل والأولاد لأن إدراك الفرد فى جماعة التبليغ بسيط قد لا يمكنه من الاعتدال والتوازن فى إعطاء كل ذى حق حقه ، وكيفية ترتيب الحقوق الواجبة والمستحبة على هدى سنة المصطفى ﷺ (إن لنفسك عليك حقا وإن لأهلك عليك حقا فأعط كل ذى حق حقه) .

٥ – تحقيق شهادة لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله فى حياة المسلم – كمبدأ من مبادىء الجماعة – يكاد ينحصر فى التوكل وأداء الشعائر الظاهرة دون تصحيح العقيدة وتجريد التوحيد لله رب العالمين وتحقيق مبدأ الولاء ﴿لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم﴾ سورة المجادلة ٢٢ .

٦ – لا تجد من وسائل الجماعة وأصولها ما يدعو إلى إغاثة الملهوف وإطعام الجائع والمشاركة فى مصائب المسلمين فى الكوارث والزلازل والحرائق وغيرها ، فضلا عن تربية المنتسبين إليها على مجابهة أعداء المسلمين والحيلولة دون هتك أعراضهم ونهب أموالهم .

٧- عدم القدرة على المساهمة فى بناء المجتمع المسلم لموقفهم الرافض للحضارة عمومًا وللحضارة الإسلامية بوجه أخص ، والاختلاف بين النظرية والتطبيق والقصور فى التفكير وعدم الاعتدال وفقدان التوازن قدر مشترك فى معظم مبادئ الجماعة وأصولها .. يصعب على الباحث تجاوزها :

- فدعوى الابتعاد عن الخلاف لا يتفق مع عدائهم للحركات الإسلامية .

- ودعوى الابتعاد عن السياسة لا يتفق مع تأييدهم للحكومات المستبدة والحكام .

- ودعوى التمسك بالسنة لا يتفق مع تطرفهم عن أئمة السلف وصحيح الحديث ومظاهر السلوك السوى فى سيرته ﷺ من الجهاد ومحاورة الخصوم ومجاهدة الأعداء ، والنكير على المشركين وإقامة المجتمع المسلم بمنهج متكامل فى الاقتصاد والسياسة والاجتماع[1] .. إلخ .

٨- يكاد عملهم يقتصر على جماعة المسجد ، ثم تأثيرهم حتى فى هؤلاء تأثير وقتى ، إذ ليس لديهم اتصال منظم ومستمر مع هؤلاء الأفراد ، أو رعاية وتعهد كافيان لهذه البذور حتى تنمو وتترعرع ، وتثمر ، مع أنه اهتدى على أيديهم جماهير غفيرة فى الشرق والغرب خاصة فى أوربا وأمريكا .

---

(١) السابق ٦٠٧ .

٩ – ولأنهم يعتمدون كثيرًا جانب الترغيب والترهيب ، فإن أسلوبهم سيظل قاصرًا عن مواجهة تحديات الأفكار الإلحادية والمادية عموما ، فهذا أسلوب لايؤثر فى غير المتدينين ولابد من مرحلة سابقة لهذه المرحلة .

١٠ – ولعل نشأة هذه الجماعة فى بلد كالهند – أغلبية سكانه غير مسلمة هى التى أعطت أسلوبها هذه الطابع ، وأبعدتها فى اتخاذ الأساليب والوسائل المؤدية لإقامة حكم إسلامى ، باعتبار ذلك هدفًا بعيد المنال إن لم يكن مستحيلاً فى نظر تلك الجماعة .

١١ – إن قوة الباطل ، وطغيان الموجة الجاهلية العاتية ، لا يفيد معها موعظة يرق لها قلب السامع ثم تتركه يجرفه التيار الضخم فلابد من احتضان الفرد ، وتربيته ، وملاحقته حتى يصلب عوده ، وإلا فهو كالنبتة الصغيرة تتركها فى مهب الأعاصير ولعل من المفيد أن ننقل قول الأستاذ أبى الأعلى المودودى – مؤسس الجماعة الإسلامية فى باكستان – حيث يقول معلقا على مثل هذا الأسلوب فى العمل الإسلامى : « يصبح من العبث الدعوة إلى الإسلام على طريقة التبشير المسيحى ، ولو طبعت ملايين النشرات ، تدعو إلى التمسك بالإسلام ، وتصيح فى الناس أن اتقوا الله صباح مساء لما كانت ذات فائدة تذكر »[1] .

١٢ – إن بعدهم عن السياسة قد أوقعهم فى مزالق كثيرة ومنحنيات خطيرة منها مهاجمة الجماعة الإسلامية فى الباكستان التى تقف فى وجه الطغيان والفكر المادى الغازى[2] .

---

(١) نحو حركة إسلامية لفتحى يكن ص ١٠ .

(٢) د/ صادق أمين :الدعوة الإسلامية ٧٠ .

١٣- إنهم يتوسعون توسعًا أفقيا كميًا لا نوعيًا إذ أن تحقيق التفوق النوعى يحتاج إلى رعاية ومتابعة ،وهذا ما تفتقده هذه الدعوة ذلك لأن الشخص الذى يدعونه اليوم قد لا يلتقون به مرة أخرى ، وقد يعود إلى ما كان عليه تحت تأثير مغريات الحياة وفتنتها .

١٤- أسلوبهم يترك أثره بشكل واضح على رواد المساجد من المسلمين . أما أولئك الذين يحملون أفكارًا وأيديولوجيات معينة فإن تأثيرهم عليهم يكاد يكون معدومًا .

١٥- يقال عنهم بأنهم قد أخذوا بعضا من الإسلام وتركوا بعضًا منه ، وهذا التجزىء لحقائق الإسلام يتنافى مع طبيعته الواحدة(١) .

---

(١) الموسوعة الميسرة ١٢٠ .

دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب

١ – مولده ونشأته :

هو محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي .. ولد في بلدة (العُيَيْنَة) بنجد سنة ١١١٥هـ وتوفي عام ١٢٠٦هـ عن عمر يناهز اثنتين وتسعين سنة .

نشأ في بيت علم وفضل ، والده ، وأجداده وأعمامه .. فجده الشيخ سليمان بن علي كان من كبار علماء نجد مشهورًا بالعلم والفضل والورع والتقوى وقد تولى هذا الجد الكريم وظيفة الإفتاء في نجد ، وتتلمذ عليه أكثر علماء نجد ، وكان يأوي طلاب العلم وفقراء التلاميذ ، الذين يتلقون العلم عنه وينفق عليهم من خالص ماله .

ثم خلفه ابنه الشيخ عبد الوهاب الذي تولى القضاء في العيينة في إمرة عبد الله بن محمد بن معمر .

وفي بيت هذا القاضي الذي عرف بالعلم والفضل نشأ وتربى على الاهتمام بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، وعلى يد والده القاضي تلقى مبادىء العلوم والفقه الحنبلي .

كما يذكر المؤرخون عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب أنه كان سريع الحفظ فصيحًا فطنا حفظ القرآن الكريم قبل بلوغه العاشرة من عمره .

وبعد أن أخذ بحظ وافر من العلم على يد والده ، أخذ فى التنقل والترحال لطلب العلم والتزود من المعرفة .

وكانت رحلة الشيخ الأولى إلى المدينة المنورة ، وفيها التقى بعالمها فى ذلك الوقت الشيخ عبد الله بن إبراهيم بن سيف النجدى فنهل من علمه ، وغرف من بحر معارفه .

وكان الشيخ عبد الله ذا حظ وافر من العلم وعلى خلق ودين ، ومن أبنائه إبراهيم بن عبد الله مصنف كتاب « العذب الفائض فى علم الفرائض » .

وكذلك أخذ – فى مدينة الرسول ﷺ – عن الشيخ محمد حياة السندى[1] » المدنى صاحب الحاشية على صحيح البخارى وصاحب كتابى « تحفة الأنام فى العمل بحديث النبى عليه أفضل الصلاة والسلام » و تحفة المحبين فى شرح الأربعين » .

وبعد خروجه من المدينة إلى نجد انطلق ميمما وجهه شطر البصرة فتعمق فى درس الحديث والفقه ، وكانت البصرة فى ذلك الوقت تموج بالعلم والمعرفة ، فهى كعبة القصاد وموئل طلاب العلم والمعرفة ،

---

(١) كان له اليد الطولى فى معرفة الحديث وأهله ومحبته وصنف فيه مصنفًا سماه « تحفة الأنام فى العمل بحديث النبى عليه الصلاة والسلام » وله مصنفات غيرها . رأيت له مصنفًا عجيبًا شرحًا على الأربعين النووية سماه « تحفة المحبين فى شرح الأربعين » أ . هـ ذكر ذلك ابن بشر فى عنوان المجد ٣٤/١ . وقال الكتانى فى فهارس الفهارس ٢٤٤/١ : « له شرح على الترغيب والترهيب فى مجلدين وشرح على الأربعين النووية ومختصر الزواجر والأربعين حديثًا من جمع الملا على القارىء ، والإيقاف على سبب الاختلاف وتحفة الأنام فى العمل بحديث النبى ﷺ أ . هـ .

وفى نفس الوقت ينتشر فيها الكثير من البدع ، وترتفع فيها القباب والأضرحة وتقام فيها سوق رائجة للشعوذة والدجل .

ومع هذا فقد صادف فى العراق عالمًا جليلاً هو (الشيخ محمد المجموعى) الذى كان أشبه بومضة من النور فى وسط ليل حالك كثيب .

وفى مجلس الشيخ المجموعى ، كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب يواجه ما يرى أو يسمع من الأقوال والأفعال الشركية ، بكلمة الحق الواضحة الصريحة مما جعل ألسنتهم تتحرك بالإنكار على الشيخ ورميه بالمروق من الدين .

ثم قامت حملة عاتية على الشيخ حيث تداعى عليه السفهاء والمشعوذون ، يشوشون عليه ويرجمونه بأقبح الكلمات ، ثم ما زالوا به حتى أخرجوه من البصرة مشيعًا بالسبّ والقذف بالألسنة والأيدى .

أخذ الشيخ طريقه عائدًا إلى نجد .. وفى الطريق إلى بلدة الزبير[1] كاد يموت عطشًا ورهقًا ، لولا أن سخر الله تعالى له رجلاً[2] رآه على تلك الحال مع ما عليه من جلال ووقار ، فأخذته الشفقة به ، فأسعفه بالماء ، وحمله على حماره ، حتى أوصله إلى بلدة الزبير .

ومن بلدة الزبير سار الشيخ إلى الأحساء ، فلم يمكث بها إلا قليلاً ، ثم سار منها إلى « حريملاء » التى كان والده قد استقر بها وفى

---

(١) بلدة الزبير لواء من ألوية البصرة وفيها قبور طلحة ، والزبير بن العوام .. وابن سيرين والحسن البصرى .

(٢) هذا الرجل من بلدة الزبير ، ويقال له : أبو حمدان .

(حريملاء) – البلدة التى توفى بها والده – بدأ ينشر دعوته ، ولكنه لم يجد أذنًا صاغية لدعوته ، بل وجد من أهلها الصد والإيذاء .. فانتقل إلى بلدة العيينة فتلقاه أميرها عثمان بن معمر بقبول حسن ، وكان بها كثير من الأشجار والأحجار التى يعظمها أهل القرية ويذبحون لها ، كقبة زيد بن الخطاب وشجرة أبى دجانة ، فساءه ما يرى من هذا الخبط فى الضلال ، وأقنع أمير البلدة بأن ما يفعله أهلها منكر وبدعة لابد من وضع حد لها .

فخرج معه يصحبهما عدد من الجنود فقطعوا الأشجار التى كان الناس يلوذون بها وهدموا المشاهد والقباب ومن بينها قبة زيد بن الخطاب ، فشكوه إلى حاكم الأحساء والقطيف آنذاك ، فأرسل كتابا إلى عثمان بن معمر يأمره فيه بإخراج الشيخ من بلده فخرج منها وولى وجهه شطر الدرعية حيث نزل ضيفًا عند أحد تلاميذه وهو الشيخ أحمد بن سويلم العرينى وذلك سنة ١١٥٨هـ ، فلما علم بمقدمه أمير الدرعية محمد بن سعود زاره فى بيت مضيفه وجرى بينهما حديث حول ما يرى فى قوم أهل نجد من الشرك الخفى ، والبعد عن عقيدة التوحيد ، وتسرب البدع المنكرة كدعاء الأموات ، وتقديس لبعض الأشجار والأحجار ، وهو ما كان عليه أهل الجاهلية الأولى .

وكان أهل نجد ينتابون قبرًا يزعمون أنه قبر ضرار بن الأزور الصحابى المعروف يسألونه قضاء الحاجات وتفريج الكربات وكان النساء والرجال يأتون بُليدة الفدا حيث كثر ذكر النخيل المعروف بالفحال ويفعلون عنده أقبح الأفعال ، ويتبركون به ويعتقدون فيه ،

فكانت تأتيه المرأة إذا تأخرت عن الزواج فتضمه بيديها ترجو أن يفرج عنها كربها وتقول :

يا فحل الفحول أريد زوجًا قبل الحول .. !!

وكانت طوائف من الناس تنتاب شجرة الطرفية فيتبركون بها ويعلقون الخرق عليها إن ولدت المرأة ذكرًا لعله يسلم من الموت !

وفى أسفل الدرعية غار كبير يزعمون أن الله تعالى خلقه فى الجبل لامرأة تسمى بنت الأمير أراد بعض الفسقة أن يظلمها فصاحت ، ودعت الله فانفلق لها الغار بإذن العلى الكبير ، فأجارها من ذلك السوء ، فكانوا يرسلون إلى ذلك الغار اللحم والخبز ويبعثون بصنوف الهدايا ، لأجل هذا دعاها الناس لتفرج عنهم الكرب ، ونسوا أن يدعوا الله تعالى الذى فرج عنها وأنه هو الذى أجرى لها هذه الكرامة – إذا صح الحادث – ولكن الحادثة مختلقة اخترعها دجال تضليلاً للعقول وابتزازاً للمال عن طريق السحر والشعوذة !

ومهما يكن من أمر ، فقد استطاع الشيخ محمد بن عبد الوهاب أن يصل إلى قلب الأمير ، وأن ينال منه وعدًا بمؤازرته وتأييده فيما عزم الشيخ عليه من دعوة للإصلاح ومقاومة للبدع ، وطمس لمظاهر الشرك وتطهير الدين مما اختلط به من بدع وخرافات ..

وكان مما اشترطه عليه الأمير ابن سعود لمناصرته قائلاً : « إذا قمنا بنصرتك وجاهدنا معك فلا ترحل عنا أو تستبدل بنا غيرنا » .
وكانت نجد فى تلك الفترة مفككة الأوصال غير خاضعة لإمارة واحدة مما أدى إلى الفوضى ، وسفك الدماء ، فتعاهدا على جمع

الكلمة وإظهار دين الله ، وإصلاح العقيدة والسلوك ، وإزالة الشبهات ومقاومة المحرمات ، فدان لدعوته من دان من الهداة والمؤيدين وثار عليه من ثار من الخصوم والمناوئين ، فأهدروا دمه ودم إخوانه الموحدين ، وقد وجد من الإمام محمد بن سعود فى هذه المحنة سندًا متينًا ، ومدافعًا أمينًا ضد العوادى ، حتى استقام له الأمر ، وضمن سلامة الدعوة الإسلامية بعد عشرين سنة من النضال المتواصل ، وفى سنة تسع وسبعين ومائة وألف من الهجرة توفى الإمام محمد بن سعود فخلفه ابنه عبد العزيز رحمة الله عليهما .

خلف والده فى الحكم ، وفى مؤازرة الشيخ ومناصرته ، وملاحظة المتمردين والمنشقين ، حتى فتح الرياض وتهامة وما يليها من اليمن والحجاز ما عدا الحرمين الشريفين ودانت له نجد كلها وبعد مضى سبع وعشرين سنة من ولايته توفى الله الشيخ محمد بن عبد الوهاب عن سن تناهز التسعين وذلك سنة ألف ومائتين وست من الهجرة .

مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب :

١ — كتاب التوحيد فيما يجب من حق الله على العبيد .

٢ — كتاب الإيمان .

٣ — أصول الإيمان وفضائل الإسلام .

٤ — نصيحة المسلمين بأحاديث خاتم المرسلين .

٥ — فضائل القرآن .

٦ — السيرة المختصرة .

٧ – السيرة المطولة .

٨ – مختصر الصواعق .

٩ – مختصر العقل والنقل .

١٠– مختصر منهاج السنة .

١١– مختصر فتح البارى .

١٢– مختصر زاد المعاد لابن قيم الجوزية .

١٣– مجموع الحديث (المرتب على أبواب الفقه) .

١٤– مختصر الشرح الكبير لابن قدامة المقدسى .

١٥– كشف الشبهات .

١٦– آداب المشى إلى الصلاة .

١٧– الاستنباط .

١٨– مسائل الجاهلية .

١٩– كتاب الكبائر .

٢٠– مفيد المستفيد فى حكم تارك التوحيد .

٢١– مختصر الإنصاف فى معرفة الراجح من الخلاف للمرداوى ، الحنبلى .

جوهر دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب :

تقوم دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب على التوحيد الخالص لله رب العالمين فى العبادة .. وإخلاص العبادة لله تعنى الأمور الآتية :

– أن يكون الدعاء له تعالى كما فى قوله :

﴿ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذًا من الظالمين﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدًا﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾[3] .

– وأن تكون الصلاة والنسك والمحيا والممات لله تعالى ، قال تعالى : ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياى ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾[4] .

– وأن تكون الشفاعة لله ، وبإذنه ، ومنه تطلب قال : ﴿قل لله الشفاعة جميعًا﴾[5] .

وقال تعالى : ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون﴾[6] .

(١) سورة يونس آية ١٠٦ .
(٢) سورة الجن آية ١٨ .
(٣) سورة الأحقاف آيتى ٥/٦ .
(٤) سورة الأنعام الآيتان ١٦٢ و١٦٣ .
(٥) سورة الزمر آية ٤٤ .
(٦) سورة الأنعام آية ٩٤ .

– وأن يكون الحلف بالله تعالى لقول الرسول ﷺ : « من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك »[1] .

– وفى باب صفات الله تعالى وأسمائه « أن يوصف الله تعالى بما وصف به نفسه وبما وصفه رسوله – ﷺ من غير تحريف[2] ولا تعطيل[3] ولا تكييف[4] ولا تمثيل[5] .

وما قال به الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى باب الصفات هو مذهب السلف–رضى الله عنهم–«ومذهب السلف هذا ، ليس مذهب الحنابلة فقط ، أو الإمام ابن تيمية أو الشيخ محمدبن عبدالوهاب ، بل هو مذهب (أئمة الإسلام قاطبة : الإمساك عن التأويل مطلقا مع نفى التشبيه) .

فالأئمة : أبو حنيفة ، ومالك ، والشافعى ، وأحمد بن حنبل ، ومحمد بن الحسن ، وإبراهيم بن إسحاق الحربى ، وعبد الله بن المبارك وسفيان الثورى ، ومحمد بن إسماعيل البخارى ، والترمذى وأبو داود السجستانى وغيرهم كلهم كانوا على هذا المسلك »[6] .

– وفيما يتعلق بالرسل – عليهم السلام – يوجب الإيمان بهم ، وبما جاءوا به من عند الله ويدعو إلى تجريد المتابعة لمحمد بن عبد الله ﷺ

---

(١) رواه الترمذى فى النذور والنسائى فى الأيمان وابن ماجة فى الكفارات .

(٢) كتحريف ألفاظ الأسماء والصفات بزيادة أو نقصان ، أو تغيير الحركات الإعرابية .

(٣) التعطيل : هو نفى الصفات الإلهية ، وإنكار قيامها بذات الله سبحانه وذلك بجحد أسمائه وصفاته كمن قال بقدم المخلوقات وجحد أن الله خلقها وصنعها .

(٤) التكييف : هو تعيين كيفية الصفات ، وإثبات كنهها .

(٥) التمثيل :هو تشبيه صفات الخالق ، بصفات المخلوقين .

(٦) جلاء العينين فى محاكمة الأحمدين للشيخ/ نعمان خير الدين الألوسى ٢١٢ .

وإلى القيام بحقوقه من الحب والتوقير ، وتقديم ما جاء به على كل ما سواه ، والوقوف معه حيثما وقف ، والانتهاء إليه حيثما انتهى كما دعا الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى الإيمان بملائكة الله وكتبه على الوجه الذى يرضى الله عز وجل .

– فى أمور الآخرة دعا إلى الإيمان بما أثبتته النصوص من البعث بعد الموت ، والحساب والميزان والحوض والصراط والجنة والنار والشفاعة وغير ذلك مما ثبتت به النصوص .

– فى أصحاب رسول الله ﷺ قرر أن أفضل هذه الأمة بعد نبيها ﷺ أبو بكر الصديق ثم عمر بن الخطاب ، ثم عثمان بن عفان ، ثم على بن أبى طالب ، ثم بقية العشرة ثم أهل بدر ، ثم أهل بيعة الرضوان ثم سائر الصحابة ودعا إلى تولى جميع الصحابة والكف عما شجر بينهم ، وأوضح أنهم أحق أمة محمد ﷺ بالعفو عما صدر منهم ، وأقربها إلى المغفرة لفضائلهم وسوابقهم ، وحذر من سلوك مسلك الروافض والنواصب فيهم[1] .

– فى علماء الأمة من أهل الحديث والتفسير والفقه وسائر العلوم الشرعية أثبت لهم الفضل والإمامة ، ويأمر بقبول ما لا يتعارض مع النصوص من أقوال أئمة العلم ، ومنع الانفراد عنهم برأى مبتدع أو قول مخترع ، ويرى للأئمة الأربعة أبى حنيفة ، ومالك والشافعى ، وأحمد بن حنبل من الفضل والإمامة ما يليق بمكانتهم ، ومذهبه مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، ولكن إذا بانت له سنة رسول الله ﷺ عمل

---

(١) ١٤٧/١ – ١٤٨ (بحوث أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب) .

بها ولا يقدم عليها قول أى كائن من كان ، يقول فى الرسالة التى اختصرت لأهل مكة : « إذا صح لنا نص جلى من كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم غير منسوخ ولا مخصوص ولا معارض بأقوى منه وقال به أحد الأئمة أخذنا به وتركنا المذهب : كإرث الجد والإخوة فإنا نقدم الجد وإن خالف مذهب الحنابلة »[1] .

هذا .. وقد تحدث ابن حجر آل بوطامى عن الأصول التى دعا إليها الشيخ محمد بن عبد الوهاب فقال :

المسائل التى دعا إليها الشيخ ووقع فيها الخلاف بينه وبين الأكثرين .

١ - توحيد العبودية :

ويقال له توحيد الألوهية ،وهو الذى بعث الله من أجله الرسل ، من نوح إلى سيدنا محمد ﷺ ، كما قال تعالى : « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » .

وحيث رأى الشيخ أهل نجد وغيرها ، قد ألّهوا قبور الأنبياء والصالحين ، وبعض الأحجار والأشجار ، وصرفوا بعض العبادات إليها ، كالنذر والحلف والنحر والاستعانة والاستغاثة إلى غير ذلك ، مما لا ينبغى صرفه إلا لله ، أنكر عليهم ، وبين لهم أن العبادة هى طاعة الله ، بامتثال ما أمر ، وأنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال .

---

(١) ١٤٧/١ - ١٤٨ (بحوث أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب) .

وأفراد العبادة كثيرة : منها الصلاة والصيام ، والصدقة والنذر ، والذبح ، والطواف ، والاستعانة والاستغاثة . فمن صرف منها شيئًا لغير الله يكون مشركًا ، قال الله تعالى : ﴿ومن يدعُ مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابُه عند ربِّه إنه لا يُفلحُ الكافرون﴾ . فاتبعه بعضهم واعتنق مبدأه رغبة واختيارًا . وأبى الأكثرون متمسكين بتقليد الآباء والخضوع للعادات ، وفشو هذه الأعمال فى سائر الأمصار والقرى ، وسكوت الأكثرين من العلماء .

٢ – التوسل :

التوسل قسمان : قسم مطلوب ومرغوب فيه ، وهو توسل بالإيمان وبأسماء الله الحسنى ،وبالأعمال الصالحة ، كما توسل الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة بصالح أعمالهم ، ففرج الله عنهم .

والثانى :التوسل المبتدع : وهو التوسل بالذوات الصالحة مثل أن يقول الشخص :(اللهم إنى أسألك بجاه الرسول أو بحرمة فلان الصالح أو بحق الأنبياء والمرسلين ، أو بحق الأولياء الصالحين) .

فنهاهم الشيخ عن القسم الثانى ، إذ لم يرد عن الرسول ولا أصحابه رضى الله عنهم ، وهو دعاء ، والدعاء عبادة ، ومبناها على التوقيف ، ويعبد الله بما شرع ، لا بالأهواء والبدع .

وتمسك المجوزون بآيات ، لا تمتُّ إلى دعواهم بصلة كقوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة ﴾ . إذ التفسير الوارد عن السلف وأجلاء المفسرين : أن ابتغاء الوسيلة ، يكون بالأعمال الصالحة .

كما تمسكوا ببعض أحاديث موضوعة ، كحديث توسل آدم بالنبى ، لما اقترف الخطيئة ، وضعيفة ، كحديث الأعمى ، وحديث فاطمة بنت أسد ، ولا حجة فى موضوع ولا ضعيف .

٣ – منعه شد الرحال :

منع من شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة كما فى الحديث الصحيح « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ، المسجد الحرام ومسجدى هذا والمسجد الأقصى » .

ولم يلتفت الشيخ إلى تأويل المؤولين والمخالفين كما أن شد الرحال لطلب العلم ، أو لزيارة الأرحام ، أو للسعى وراء الكسب ، خارج عن دائرة النزاع .

لأن هذه الأشياء وردت بها أوامر شرعية .

وقد سبق الشيخ إلى منع شد الرحال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية وابن القيم ، والجوينى إمام الحرمين من الشافعية ، والقاضى عياض ، من المالكية . وليس للمجوزين أية حجة يصح الاعتماد عليها .

٤ – البناء على القبور وكسوتها وإسراجها وما إلى ذلك :

حرّم الشيخ : البناء على القبور ، وكسوتها وتعليق الستور عليها وإسراجها والكتابة عليها وإقامة السدنة حولها وزيارتها : الزيارة الشركية التى تنجم منها مفاسد عديدة كالتمسح بالقبر والطواف حوله ، والصلاة إليه ، ودعاء القبور فى جلب نفع ، أو دفع ضر .

واستند الشيخ فى منعه وتحريمه إلى أدلة صحيحة من الأحاديث الصحيحة : كحديث « لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » وحديث : « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد إلخ » .

وأمر الشيخ بهدم تلك القبب المشيدة ، اتباعًا للأحاديث الصحيحة ، كحديث أبى الهياج الأسدى ، لما قال له على بن أبى طالب رضى الله عنه : « ألا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله ، أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته ، ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته » .

وفقهاء المذاهب الأربعة وغيرها : قد سبقوا الشيخ بمنع هذه الأمور وتحريمها ، وإن عبر بعضهم بالكراهة فى بعض منها . فإنما القصد كراهة التحريم لا التنزيه ، والكراهة فى القرآن والسنة على لسان السلف تطلق على التحريم .

والكراهة بمعنى : « لا يثاب فاعلها ولا يعاقب تاركها » اصطلاح حادث لا عبرة به ، كما لا عبرة بقول بعض الفقهاء بتحريم البناء على القبر ، إن كان فى أرض مسبلة لئلا تضيق الأرض على الموتى ، وإن كان فى ملكه فلا ، بل يكره .

وإنما قلنا ، لا عبرة به ، لأن الأحاديث المانعة من البناء ، والآمرة بهدمه عامة ، وما أتى عن الرسول ﷺ ما يخصصها .

وليست علة التحريم تضييق الأرض كما زعم أولئك ، بل العلة أن البناء يفضى إلى تعظيم المقبور ودعائه من دون الله ، وهذا أمر مشاهد ملموس ، لا يقبل الجدل والنزاع .

٥ - توحيد الأسماء والصفات :

قد سبق ما جاء فى رسائل الشيخ ، أنه فى المعتقد ، على ما كان عليه السلف الصالح ، من الصحابة والتابعين وتابعيهم من الأئمة الأربعة وغيرهم ، وهو إثبات الأسماء ، والصفات من غير تمثيل ولا تكييف .

ولم يرق للمخالفين ، هذا الاعتقاد ، حيث كانوا مؤولين ومقلدين للجهم بن صفوان والجعد بن درهم ، مستمسكين بشبه فلسفية لا تتفق مع آى القرآن والأحاديث الصحيحة ، ومعتقد الصحابة والتابعين والأئمة المهتدين رضوان الله عليهم أجمعين .

٦ - إنكاره البدع :

أنكر الشيخ البدع والمحدثات فى الفروع . كالاحتفال بالمولد ، والتذكير قبل الأذان ، والصلاة على الرسول بعد الأذان جهرًا ، والتلفظ بالنية وقراءة حديث أبى هريرة ، عند صعود الخطيب على المنبر .

كما أنكر طرائق الصوفية المتبدعة ، وما إلى ذلك من المبتدعات التى لم يرد فى استحبابها عن الرسول ﷺ ولا عن أصحابه .

وقد ألف العلماء قبل الشيخ فى إنكار البدع والمحدثات ، كابن وضّاح والطرطوشى ، والشاطبى[1] .

يتضح مما سبق أن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب التى قام بها دعوة سلفية . تقوم على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ « وقد أطلق على أهل نجد خطأ فى القرن الماضى اسم الوهابيين ونسب إليهم أنهم

---

(١) أحمد بن حجر آل بوطامى :الشيخ محمد بن عبد الوهاب ٤٣ - ٤٧ .

أهل مذهب جديد فى الإسلام إلا أن الحقيقة الآن أصبحت معروفة للناس » .

« فأهل نجد سلفيون يقلدون فى المسائل الاجتهادية الإمام أحمد بن حنبل ، وقد كانت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى القرن الماضى دعوة إصلاحية خالصة لوجه الله ، سداها ولحمتها الدعوة إلى الرجوع إلى الإسلام الصحيح ، وترك البدع وهدم معالم الشرك والخرافات والأوهام .

« وأما نسبة المذهب الجديد إليهم فقد حدث بسبب اختلاط الدعاية التى بثت ضدهم بعناصر سياسية ، بقصد تنفير الناس منهم ، وعدهم خارجين على الإسلام ، إلا أنهم مسلمون ، سنيون ، موحدون ، سلفيو العقيدة ، خالصو الإيمان »[1] .

ليست إذن دعوة الشيخ – رحمه الله – دعوة جديدة فى الإسلام ، إنما هى محاولة لعودة الناس إلى مذهب السنة والجماعة وطريقة السلف الصالح بعيدًا عن البدع والخرافات والشعوذة وقد جاءت السنة المطهرة تحث على اتباع هدى النبى ﷺ فيما أمر ونهى ، وتحذر من الابتداع فى الدين بالنقص أو الزيادة فقال ﷺ « كل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار » وقال أيضًا : « كل أمر ليس عليه أمرنا فهو رد » أى مردود لا يقبل من صاحبه .. وبين القرآن الكريم أن الرسول ﷺ ترك لنا الدين كاملا لا نقص فيه فقال عز من قائل : ﴿ اليوم أكملت لكم

---

(١) قلب الجزيرة العربية – للأستاذ فؤاد حمزة ٩٧ .

دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينًا﴾[1] . ولعل من الخير أن نترك الشيخ يوضح لنا أصول دعوته فيقول فى إيجاز وتركيز : « مذهبنا فى أصول الدين مذهب أهل السنة والجماعة ، وطريقتنا طريقة السلف ، التى هى الطريق الأسلم والأعلم والأحكم ، خلافا لمن قال : طريقة الخلف أعلم « وهى أنا نقر آيات الصفات وأحاديثها على ظاهرها ونكل علمها إلى الله تعالى مع اعتقاد حقائقها ،فإن مالكا – وهو من أجل علماء السلف – لما سئل عن الاستواء فى قوله تعالى : ﴿الرحمن على العرش استوى﴾[2] .

قال الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ،والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ونعتقد أن الخير والشر كله بمشيئة الله تعالى ،ولا يكون فى ملكه إلا ما أراد ، فإن العبد لا يقدر على خلق أفعاله ، بل له كسب رتب عليه الثواب فضلاً والعقاب عدلا .

ونحن فى الفروع على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، ولا ننكر على من قلد أحد الأئمة الأربعة دون غيرهم ، لعدم ضبط مذاهب الغير كالرافضة ونحوهم ، ولا نقرهم ظاهرًا على شيء من مذاهبهم الفاسدة ، بل نجبرهم على تقليد أحد الأئمة الأربعة .

ولا نستحق مرتبة الاجتهاد المطلق ، ولا أحد يدعيه ، إلا أنا فى بعض المسائل إذا صح لنا نص جلى من كتاب أو سنة غير منسوخ ولا مخصص ولا معارض بأقوى منه ، وقال به أحد الأئمة الأربعة ،

---

(١) سورة المائدة آية ٣ .

(٢) سورة طه الآية ٥ .

أخذنا به وتركنا المذهب كإرث الجد والإخوة ، فإنا نقدم الجد بالإرث وإن خالفه مذهب الحنابلة .

ولا نفتش على أحد في مذهبه ولا نعترض عليه إلا إذا اطلعنا على نص جلي مخالف لمذهب أحد الأئمة . ولا مانع من الاجتهاد فى بعض المسائل دون بعض ، ولا مناقضة لعدم الاجتهاد المطلق وقد سبق جمع من أئمة المذاهب الأربعة الاختيارات لهم فى بعض المسائل مخالفة للمذهب الملتزمين تقليد صاحبه »[1] .

من ثمرات الدعوة المباركة :

من فضل الله على عباده المؤمنين المجاهدين فى سبيله ، أنه سبحانه يبارك عليهم في أعمالهم وأقوالهم ، فتكون أعمالهم منارات هدى يهتدى بها الناس ، ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب من تلك الدعوات الطيبة المباركة ، الداعية إلى الله تعالى وإلى صراطه المستقيم ونبذ البدع والضلالات .

ولا ريب أن انتشار المبادىء التى دعا إليها الشيخ محمد بن عبد الوهاب لم يكن سهلاً مذللاً فى أوطان غلبت عليها البدعة وفشت فيها الرذيلة والخرافة ، ولقد كان من العسير قبل دعوة ابن عبد الوهاب — مقاومة هذه الطوفان من الضلالات التى عمت كثيرًا فى أرجاء الوطن الإسلامى .

ويذكر الجبرتى حادثة تبين لنا المصاعب التى كان يواجهها من يعمل على محاربة البدع ومجاهدة أصحابها لأن أصحابها يعلمون أن

---

(١) الهدية السنية والتحفة الوهابية النجدية : جمع الشيخ سليمان بن سحمان ص٣٨ .

وجودهم المادى والأدبى مرتبط ببقاء تلك الخرافات بين العوام والجماهير .

روى الجبرتى « المؤرخ المصرى » فى تاريخه المعروف « عجائب الآثار » تلك الحادثة التى وقعت فى شهر رمضان ١١٢٣هـ وذلك قبل أن يقوم الشيخ محمد بن عبد الوهاب بدعوة التوحيد – ولد رضى الله عنه ١١١٥هـ – يقول الجبرتى عن هذه الحادثة :

« إن واعظًا تركيًا وفد من الروم إلى مصر ، فى تلك السنة (١١٢٣هـ) وجلس يعظ الناس فى جامع « المؤيد » بالقاهرة .. وقد كثر عليه الناس وازدحم بهم المسجد ، ثم انتقل من الوعظ ، فذكر ما كان يفعله أهل مصر بضرائح الأولياء ، وإيقاد الشموع على قبور الأولياء ، وتقبيل أعتابهم ، وأن ذلك كفر يجب على الناس تركه وعلى ولاة الأمور السعى إلى إبطال ذلك » .

« وقد ذكر – أى الواعظ – عن قول الشعرانى فى كتابه « الطبقات الكبرى » أن بعض الأولياء ، اطلع على اللوح المحفوظ[1] فقال الواعظ : إنه لا يجوز ذلك ، ولا يطلع عليه الأنبياء فضلاً عن الأولياء .. وكان

---

(١) ذكر ذلك الشعرانى فى ترجمته لإبراهيم الدسوقى ، صاحب الضريح المعروف بمدينة دسوق بمصر ، كما ذكر ذلك عن أحمد البدوى ، صاحب الضريح المعروف بمدينة طنطا بمصر . وكان فيما ذكره الشعرانى عن إبراهيم الدسوقى أنه كان مع رسول الله ﷺ وبعض الأولياء فى الحضرة الإلهية وأنه قيل له :يا إبراهيم اذهب إلى النيران وقل لها أن تغلق أبوابها وإلى الجنان أن تفتح أبوابها ، ففعل ذلك ، وأغلقت النيران ، وفتحت الجنان .

فيما قال الواعظ إنه لا يجوز بناء القباب على ضرائح الأولياء ، كما لا يجوز بناء التكايا[1] ، ويجب هدم ذلك جميعًا » .

ثم يقول الجبرتى معلقا على ما كان لدعوة هذا الواعظ من أثر ، وما جرى بعدها من أحداث :

« فقامت لهذا قيامة العلماء ، فدسوا عليه من يشوش ،ويخفت صوته » .

ثم يقول الجبرتى : « وهنا أسرع بعض الناس إلى علماء الأزهر ، ليفتوهم فى قول هذا الواعظ » .

فماذا قال علماء الأزهر يومئذ فى هذا الذى يدعو إليه الواعظ من القضاء على تلك البدع التى تنخر فى عقيدة المسلمين كما تنخر السوس فى حبات البر ؟

يقول الجبرتى :

« فكتب شيخان من شيوخ الأزهر ، وهما الشيخ أحمد النفراوى ، والشيخ أحمد الخليفى ، وهما من كبار شيوخ الأزهر ينتقضان قول الواعظ ، ويطلبان من الحاكم زجره .

(١) التكايا : هى دور كانت تقام للدراويش من الكبتاشية ، وتوقف عليها الأوقاف الكثيرة حيث يأكل من ريعها هؤلاء الدراويش ، لا يباشرون أى عمل ، بل يقضون حياتهم فى لهو ورقص وارتكاب للفواحش .

« وأخذ بعض الناس هذه الفتوى ، فدفعوها إلى الواعظ فى مجلس وعظه ، فلما قرأها غضب ، وقال : إن العلماء أفتوا بغير ما قلت ، وأنا أريد أن أجادلهم فى مجلس القاضى .. فهل منكم من يساعدنى على ذلك وينصر الحق . فقال له أنصاره : نحن معك لا نفارقك .. فنزل عن كرسى وعظه واجتمع عليه الناس قريب من ألف ، فسار بهم وسط القاهرة إلى أن دخل بيت القاضى .. فلما رآهم القاضى بهذه الكثرة انزعج منهم ثم سألهم عما يريدون ؟ فقالوا : نريد أن يحضر هؤلاء الذين أصدروا هذه الفتوى لنباحثهم أمامك .. فقال القاضى : اصرفوا هذه الجموع ثم نُحضرهما ونستمع إلى مجادلتكم معهما ..ولكن أحدًا لم ينصرف ،بل تكاثروا على القاضى وقالوا له :

ماذا تقول أنت في هذه الفتوى ؟ فقال : هى باطلة[1] ..فطلبوا منه أن يكتب حجة بذلك .. فلما رأى القاضى أن الأمر جد ، وأنهم لا يريدون أن يتركوه ، أراد أن يعمل فيهم الحيلة للواعظ ومن معه .

« فقال : إن الوقت قد ضاق ، والشهود[2] قد خرجوا . فلنترك ذلك إلى الغد ..

« فلما سمعوا ذلك من ترجمان القاضى – لأن القاضى تركى ولا يعرف العربية – لما سمعوا من الترجمان هذا الكلام ، ضربوه واختفى القاضي ومعه حريمه !!

---

(١) إن هذا القاضى ما قال ذلك إلا خوفا من العامة وهجومهم عليه .

(٢) هؤلاء شهود من المرتزقة ، كانوا يلزمون مجلس القاضى ويستشهدون من كل طالب شهادة لقاء أجر معلوم .

وهل انتهى الأمر عند ذلك ؟ كلا فإن الرواية لم تتم فصولاً .. ويمضى الجبرتى فى إتمام هذه الرواية حيث يستدعى الواعظ إلى مجلس الوالى وقد قيل له : إن الوالى يريد أن تجتمع عنده مع هؤلاء العلماء الذين تتهمهم فيما أفتوا به ..

وهناك فى دار الوالى كان الكيد العظيم لهذا الواعظ حيث تخطفه الجند وألقوا به إلى حيث لا يعلم إلا الله ، وبهذا اختفى الواعظ إلى يوم الناس هذا .

وعلى الرغم من النصر المؤزر الذى لقيته دعوة الشيخ وقيام دولة تدعو لمبادئها وتناصرها ، واعتناق كثير من شباب العالم الاسلامى لأفكارها وعقائدها ، إلا أن الدعوات الأخرى عملت - ولاتزال - على صرف الجماهير عنها وتنفير الناس من اتباعها .

يقول الأستاذ طـه المدور - فى كتابه «الديانات والحضارات» ص١٣٩ وهو يتحدث عن الصورة التى كان عليها الرأى العام فى دعوة الشيخ أيام مطلعها وما أثارت فى العالم الإسلامى وغير العالم الإسلامى يقول :

« وماجت الأقوال عقيب ذلك - أى عقيب الدعوة - تتضارب حول هذا المجاهد المجدد خارج القطر النجدى ، فقام من اتهمه بالمروق والإلحاد وأخذ آخرون يدعون بأنه - يحاول نشر مذهب القرامطة وانتشرت فى أوربا شتى الشائعات عن مذهب هذا الرجل اللبيب ، وعلق عليها الكثير من المستشرقين تعليقات مختلفة متباينة ،

فشبهه بعضهم بـ (لوثر)[1] البروتستنتى وآخرون رفعوه إلى مرتبة الفلاسفة[2] ، حتى وجد من جعله صاحب مذهب خامس فى الإسلام ، بعد المذاهب الأربعة » .

ثم يقول الأستاذ طه المدور :

« ولكن اتضح بعد ذلك أن هذه التقولات المتضاربة فى حق (الوهابية) كانت غير صحيحة ، لأنها - أى الدعوة - تبعد عن القرمطية ، وعما يسمونه بالمروق عن الدين بعد السماء عن الأرض .

« وعلى العكس مما يتقوله أعداء الدعوة ، فإن تعاليمها العتيدة وجدت متطابقة مع نصوص القرآن والأحاديث النبوية .. حتى إنه فى سنة ١٨١٥م سافر مندوبان عن (الوهابية) وقابلا والى مصر آنذاك (محمد على باشا الكبير) فأمر رهطًا كريمًا من العلماء ومن رجال الأزهر بفتح باب المناظرة بينهم وبين ذينك الشيخين الوهابيين .

« فعقد الطرفان عدة اجتماعات ، وطلب فيها علماء مصر من المندوبين النجديين إعطاء التفاصيل الوافية عن المذهب الوهابى .. فراحت المناظرات تجرى بين الجانبين واتسع نطاق الجدل والمدارسة ، حتى عقدت راية الفوز فى النهاية للوهابيين ، وذلك باقتناع علماء مصر بأن

---

(١) لوثر :هو مارتن لوثر ،من دعاة الإصلاح الدينى فى المسيحية انفصل عن الكنيسة بشأن ما تدعيه من سلطان لها على غفران الذنوب وحرمان من تحرم من رحمة الله وإكرام القديسين والرهبان ورفعهم إلى مرتبة الألوهية . (١٤٨٣ - ١٤٥٦م) .

(٢) الأصح أن يقال : إنهم أنزلوه إلى مرتبة الفلاسفة لأن الفلسفة يحوم حولها الشك والإلحاد غالبًا .

تعاليم المذهب الوهابى تنطبق بمجموعها على منطوق الآيات القرآنية وأحاديث الرسول ﷺ » .

ثم يقول الأستاذ المدور :

« وأغرب من هذا ، فقد أثبت الضيفان الوهابيان خلال تلك المناظرات الدينية أنهما يحفظان القرآن الكريم والمعانى العديدة من الأحاديث النبوية » .

« وقد نشر علماء الأزهر على إثر ذلك بيانا أعلنوا فيه أنهم لم يروا شذوذًا فى المبادئ الوهابية .. وفوق ذلك كان من جملة ما نقله المندوبان الوهابيان إلى مصر كتابًا خطيًّا فى العقائد . وضعه الشيخ محمد بن عبد الوهاب عن المذهب الوهابى ، فطالعه العلماء فى الأزهر ، وصرحوا بعد ذلك بلسان واحد قائلين :

« إذا كانت الوهابية كما سمعنا وطالعنا فنحن وهابيون »[1] .

---

(١) ليست الوهابية مذهبًا ، وإنما هى دعوة مجددة للدعوة الإسلامية من أساسها وهى المؤمنة بالله الأحد الواحد لا شريك له ، المطهرة من أرجاس الشرك فليس فيها جديد وإنما هى الإسلام الحنيف المبرأ من الشرك أما المذاهب الأربعة ، المعروفة فى الإسلام فهى اجتهادات فى الفروع ، التى لا تمس الأصول أبدًا حيث لا اجتهاد فى هذه الأصول ، من الإيمان بالله ورسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره .

الفصل الخامس

مشكلات الدعوة والدعاة(١)

أولاً : عجز جهاز الدعوة :

يقوم جهاز الدعوة على دعامتين : دعامة بشرية ، هى الأساس ، ودعامة مادية تتمثل فى مؤسسات الدعوة ، ومقارها ، وأدوات توصيلها ونشرها ، وكل ما يعتبر وسيلة معينة على تحقيق الاتصال الناجح المثمر بين الدعاة والمدعوين .

ومشكلة جهاز الدعوة الإسلامية اليوم يواجه عجزاً شديدًا فى الجانبين معًا : البشرى والمادى ، أو بتعبير آخر : عجز فى الكم والكيف .

فمن حيث الكم : نجد قصورًا واضحًا فى أعداد الدعاة المشتغلين بالدعوة على وجه العموم : فالمساجد – مثلاً – لا تجد من الأئمة والخطباء من يقوم بهذه الوظيفة بأعداد تكفى لتغطية حاجاتها جميعًا ، والواقع – حتى فى أحسن المجتمعات الإسلامية ظروفًا من هذه الناحية – ينطق بهذا النقص !!

ومثل ذلك يقال فى عدد الوعاظ فالمؤهلون منهم قلة محدودة جدًّا وبجانبهم أعداد هائلة ممن يمارسون الوعظ هواية ، أو من خلال

---

(١) راجع د . محمد حسين الذهبى ، مشكلات الدعوة والدعاة ص ٢٠ .

جمعيات تعد لهم مستويات من الدراسة ، تتيح لهم حدًّا أدنى من المعرفة الدينية التى قد تكفى لمواجهة حاجات البيئات المحدودة الفكـــر والثقافة ، ولكنها لا تفى بحاجة الإنســـان الذى نال قسطًا كبيرًا من ثقافة العصر ، وتعرض لمؤثراته الفكرية والحضارية !!

إن ساحة الدعوة الإسلامية داخل البلدان الإسلامية نفسها خالية - إلا نسبة محدودة منها - من دعاة حقيقيين قادرين على حمل أمانة الدعوة والوفاء بها !!

فأكثر المساجد - فعلاً - تخلو من الدعاة الحقيقيين الذى يستطيعون نقل الأمة من محيط إلى محيط ، ويواجهون مشاكلها بحلول تقنع العقل والقلب معًا ، فإذا ولينا وجهنا نحو ساحة الدعوة فى خارج بلاد المسلمين رأينا العجز أوضح وأكثر ، إن ملايين البشر فى القارات الخمس ما زالوا على فطرتهم ولو وجدوا دعاة صالحين يحسنون عرض تعاليم الإسلام السمحة ، وعقائده السهلة الواضحة لدخلوا فى دين الله أفواجًا ولكنهم - ويا أسفاه - لا يجدون من ينقل صوت الحق إليهم ، ولا زالوا يعيشون فى ظلمات من جهل العقائد المنحرفة والأديان الأخرى الباطلة .

إن الإسلام هو دين الفطرة والعقل ، وأكاد أجزم أن حكومات العالم الإسلامى لو جندت طوائف من الدعاة الواعين وبعثت بهم إلى الأمم الأخرى شرقا وغربا لاستطاع الإسلام خلال نصف قرن أن تكون له الكلمة العليا فى تلك البلاد .

يقول الشيخ محمد الغزالى : « لقد قامت حكومات إسلامية شتى في القارات الثلاث القديمة .

وكان يجب عليها أن تصدع بأمر الله ، وتؤلف الوفود من العلماء لغزو ثقافى واسع النطاق يقرب حقائق الإسلام من الشعوب المحرومة ويكذب عشرات الشبه التى روجها المفترون ضده ، غير أن هذه الفريضة الجليلة لم تلق العناية المطلوبة ولم يتوجه لها الحكام المالكون للسلطة .

ولعلهم رأوا ترك هذا العبء للأفراد يعالجونه كيف شاءوا .

وقد سمعت زميلاً يأسى لسياسة حكام الأندلس ويستغرب إهمالهم البعوث لغرب أوربا طوال ثمانية قرون .

مع أن الحاجة كانت ماسة لاختيار علماء مزودين بوسائل النجاح يجوسون خلال الديار ويقفون أهليها على حقيقة الدين الذى يعادون »[1] .

ويذكر الشيخ الغزالى فى موضع آخر بعض مظاهر تفريط المسلمين في دعوتهم فيتناول منها : « ضعف أجهزة الدعاية الخارجية للإسلام ، أو انعدامها وترك تعليم الأجانب لجهود الأفراد ونشاطهم الخاص ومعروف أن انتشار الإسلام فى أواسط إفريقيا وأغلب آسيا يرجع إلى ذلك الجهاد الفردى المسالم الدءوب .

---

(١) مع الله ١٧٥ .

وهو جهاد لم ترسمه خطط منظمة ، ولم تستفد من أرباحه عيون يقظة ، بل لم تحرس ثمراته قوى معدة والسبب فى هذا التقصير المعيب ، أن الدول الإسلامية كثيرًا ما شغلتها منافع خاصة أو سياسات قصيرة النظر ، بل كثيرًا ما قامت على أنقاض المثل الدينية الرفيعة .

وهذا الاعتلال فى أداة الحكم أضر بسير الإسلام فى أرجاء الأرض أبلغ الضرر .

والواقع ، أن كثيرًا من الحكومات الإسلامية فى التاريخ القديم كانت عقبات فى طريق انطلاق الدعاة لأداء واجبهم على نحو واضح ونهج مرسوم »[١] .

والسؤال الآن : كم من الدعاة الآن يبشرون بالإسلام على سطح هذا الكوكب الذى نعيش فيه ؟

لو تصورنا أن كل مليون من البشر يكفيه داعية واحد – وهو فرض أقرب إلى الخيال – لكان العدد المطلوب من الدعاة بضعة آلاف داعية ، فهل نستطيع أن نحصى على مستوى العالم الإسلامى كله أكثر من بضع عشرات ؟ تلك حقيقة يجب أن نذكرها وأن نذكر بها[٢] .

هذه مشكلة الدعوة وجهازها من حيث عدد الدعاة وهم العنصر الأساسى فيها .

---

(١) السابق ٤١ وما بعدها .

(٢) راجع : د . محمد حسين الذهبى : مشكلات الدعوة والدعاة .

فإذا انتقلنا إلى مشكلة الدعوة من حيث نوعية الدعاة ، صدمنا الواقع صدمة قاسية :

يقول فضيلة الأستاذ الدكتور الذهبى : « إن مستوى الداعية فى أحسن حالاته اليوم لا يفى على الإطلاق بحاجة من يدعوهم ، إن إنسان العصر الذى نعيش فيه يريد أن يجد فى الدين حلولاً لكل مشكلات الحياة التى تعترضه سواء فى سلوكه الشخصى ، أم فى علاقاته الأسرية ، أم فى معاملاته الاقتصادية ، ويريد أن يجد للدين كلمة تضىء له طريقه فى قضايا الحكم ، ومسائل السياسة ، ومشكلات الاقتصاد والشباب – بخاصة – فى حاجة إلى أن يقدم لهم من خلال الدين نظرة متكاملة للحياة تستطيع إشباع حاجاتهم للمعرفة ، وتتيح لهم ما يبحثون عنه من سكينة النفس ، واطمئنان الضمير .

هذه المطالب المعقدة المتشابكة ، يقدم الدين حلولاً جذرية وعميقة لها ، ولكن السؤال هو : ما مدى إدراك الداعية لهذه المشكلات ؟ ثم ما مدى قدرته على استنباط حلولها والإجابات الصحيحة عنها ؟

هنا يبرز لنا قصور الإعداد ونقصه ، حتى على مستوى حملة الشهادات العلمية التى تجيزهم بأهلية العمل فى مجال الدعوة وتقرر صلاحيتهم لها »[1] .

ولكن ما سبب قصور الدعاة وتقصيرهم ؟ يذكر الدكتور الذهبى – ومعه المستشار على جريشة[2] – أن العلة فى ذلك مناهج إعدادهم ، ووسائل تكوينهم .

---

(١) مشكلات الدعوة والدعاة .

(٢) الاتجاهات الفكرية المعاصرة .

وأول ما يلاحظ على هذه المناهج والأساليب :

أولاً : أنها بدلا من وصل الطالب وصلاً مباشرًا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ أحلت بديلاً منها يتمثل فى كتب ومذكرات مهما كانت قيمتها فلن تصلح بديلاً فى يد داعية لأن يكون على بصيرة بدين الله ، يستمدها من مصادر الوثيقة : كتاب الله وسنة رسوله .

ثانيًا : إن فلسفة إعداد الدعاة عنيت – ولا تزال تعنى – بالجانب التعليمى التلقينى ، بينما هى تُهمل إهمالاً شبه كامل الجانب التربوى الذى هو الوجه المكمل للوجه النظرى !!

إن العلم وحده لا يكفى لتكوين داعية .. لقد قال رسول الله ﷺ : « أخوف ما أخاف على أمتى كل منافق عليم اللسان » .

إن العلم إذا لم يستند إلى خلق يحميه من نزوات النفس وطغيان الشهوات ، ويصونه عن الدنايا وسفاسف الأمور ، يصبح كارثة حين يوجه لغايات آثمة ، أو يستغل فى مآرب خبيثة .

لذلك يجب على أقسام الدعوة وكلياتها فى جامعة الأزهر أن تهتم بتنمية الإحساس لدى طلابها بأنهم أصحاب رسالة يحملونها وأن وظيفتهم امتداد لوظيفة النبوة .

ومن ثم فإن مسئوليتهم أمام الله والناس مسئولية ضخمة .. فمن الضرورى – إن أردنا لدعوتنا نجاحًا – أن نربى الدعاة على أخلاق الإسلام ومثله العليا ، ونعمل – بكل السبل – على مرانهم على تطبيق

الإسلام فى حياتهم علميًّا ، وتزكية أنفسهم بما يجعلهم بعيدين عن الدنايا ، مستعدين للتضحية من أجل رسالتهم ودينهم .

وفى هذا المجال نذكر أهمية دراسة الكتب والبحوث التى تعنى بتربية النفس وتهذيبها ، وأمراض القلوب وعلاجها ، ومن الخير أن يعايش الدعاة هذه الأخلاقيات عمليًا فى المعسكرات والرحلات وغير ذلك يقودهم فى ذلك ويرشدهم بعض الأساتذة المشهود لهم فى مجال التربية والأخلاق .

هذا .. ويقترح فضيلة الدكتور الذهبى – لتخريج جيل من الدعاة الأكفاء – إنشاء كلية للدعوة الإسلامية – تتحول فيما بعد إلى جامعة – بتمويل إسلامى عام ، ويختار لها الدارسون من الطلاب اختيارًا دقيقًا من كل أنحاء العالم الإسلامى ، من خلال نظام محكم للقبول ، لا يمر منه إلا من تتوافر فيه مقومات خاصة ، تؤهله لأن يكون داعية بمفهوم الداعية الصحيح .

هذه الكلية يجب أن تختلف عن المألوف فى النظم الجامعية العادية ، فالدراسة والتربية فيها متكاملتان ، وتبتدئ من سن باكرة (١٢) سنة مثلاً . والمراحل فيها مترابطة ، تسلم كل منها إلى ما يليها ، والحياة فيها تصمم بحيث تتيح لأصحابها معايشة الإسلام معايشة حية .

وهيئة التدريس وجهاز التربية فيها ، يجب أن يكون كله من رجال لهم – إلى جانب علمهم وخبرتهم – اهتمام بالدعوة إلى الله ، بدرجة تجعل منهم مجاهدين محتسبين ، وليس مجرد موظفين يتقاضون أجورًا يتنافسون عليها .

أما المناهج : فيجب أن يتوافر فيها ما يغطى النقص ، وفى مقدمتها :

١- ثُغرة الضعف فى التكوين اللغوى .

٢- ثُغرة الانفصام عن المصدر الأصلى للإسلام ممثلا فى الكتاب والسنة .

٣- ثُغرة الانغلاق وعدم الاقتحام لثقافات العصر وتحديد مواقف منها[1] .

ثانيًا : تفرق الدعاة وكثرة الجماعات :

من المشكلات التى تعوق مسار الدعوة الإسلامية وتمكن لأعدائها من النيل منها ، تفرق الدعاة واختلاف مناهجهم وآرائهم حول العمل للإسلام .

والخلاف فى ذاته ليس عيبًا لأنه من طبيعة البشر ولكن المشكلة الحقيقية تكمن فى الإصرار على الفرقة والخلاف دون ما داع من الدين ودون مبرر شرعى معقول يدعو إلى ذلك . اللهم إلا حبّ المناصب والألقاب والزعامات ، لقد رأينا كل من هب ودب يتخذ لنفسه جماعة ليصبح أميرًا للمؤمنين وقائدا للغر المجاهدين ، وما دام قد أباح لنفسه صنع جماعة فإنه لا يرعوى من وضع أسس ومبادئ يختلف بها عن الآخرين حتى يوجد مبررًا لقيام جماعته ، وهكذا ترى على الساحة الإسلامية كمًّا لا بأس به من الجماعات والفرق مثل : جماعة التبليغ ، والسلفيين والإخوان المسلمين ، وأتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب

(١) مشكلات الدعوة والدعاة (بتصرف وتلخيص) .

(الوهابيين) ، والقطبيين وأنصار السنة والجمعية الشرعية ، وجماعة الجهاد وحزب التحرير والفرق الصوفية .

وغير ذلك من الجماعات التى يجمعها قول الله تعالى : ﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا لست منهم فى شىء إنما أمرهم إلى الله . ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون﴾[1] .

ويجمعهم كذلك قوله تعالى : ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البيّنات وأولئك لهم عذاب عظيم﴾[2] .

والعجيب أن الجماعة الواحدة قد تنقسم على نفسها فتنشأ منها طوائف متعددة قد تتفق وكثيرًا ما تختلف كالطرق الصوفية مثلاً التى ترى لكل جماعة منهم شيخًا وأورادًا وطريقة تختلف عن الطرق الأخرى .

ولا ريب أن فرقة الدعوة وتفرق الدعاة أضعف الدعوة الإسلامية ومكن منها أعداءها ، ولو اتحد القائمون على الدعوة ، وعملوا على إزالة الخلافات المصطنعة فيما بينهم لكان فى ذلك خير كثير للإسلام والمسلمين .

إن الإسلام لا يمنع أن تكون هناك جماعات تنسق العمل فيما بينها وتتعاون على البر والتقوى فيمكن أن يكون للبر والإحسان جماعة ولكفالة اليتيم ورعاية شئونه جماعة ، وأن يكون لمكارم الأخلاق جماعة ، وللعقيدة وتنقيتها جماعة ، وللسياسة وللرقى بها أحزاب وجماعة ،

---

(١) الأنعام آية ١٥٩ .
(٢) آل عمران آية ١٠٥ .

لا بأس من ذلك كله بشرط أن نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه ، ولكن الذى لا يقبله عقل ولا دين ولا خلق أن تتخاصم الجماعات فيما بينها وتتناحر ، ويتهم بعضها بعضًا ، ويسخر بعضها من بعض ، بل أحيانا تصف جماعة نفسها بأنها فقط على الحق والصواب وأنها – فحسب – جماعة المسلمين ، وأن غيرها على الباطل والضلال ويقف الناس حيارى .

أتلك هى الدعوة إلى الله ؟

أهؤلاء هم الداعون إلى الله ؟

وقد يزلزل الناس فى إيمانهم إن لم يتبينوا الغث من السمين وإن لم يميز الخبيث من الطيب وإن لم يعرفوا الزبد مما ينفع الناس .

هذا هو واقعنا المعاصر بكل ما يحمل من أسى وخزى وبكل ما يثير فى النفس من ألم ومرارة .. مما جعل أعداء الدعوة يرصدون تلك الفرقة ويسخرون من الدين كله ويقولون لنا : أى إسلام هذا الذى تريدون أن يحكم ؟ أهو إسلام السلفيين أم إسلام المتصوفة أم إسلام الخمينى أم إسلام الجماعات الإسلامية ؟ !!

وإننى لأرجو من إخوانى فى الله ممن يعملون فى مجال الدعوة الإسلامية أن يتناسوا الخلافات فيما بينهم ، وأن يكونوا على قلب رجل واحد خصوصا وأن أعداء الدعوة لا يفرقون بين جماعة وجماعة .. فليتقوا الله دعاة الفرقة والفتن وليعلموا أن جوهر الدعوة واحد ، وأصول الإسلام وركائزه واحدة بفضل الله ، وأن الخلاف

لا يتجاوز الفرعيات التى لا يجوز شرعًا أن نختلف بسببها ﴿ وأن هذا صراطى مستقيمًا فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾[1] .

• يا دعاة الإسلام كفاكم فرقة واختلافًا ، وانظروا فى مستقبل أمتكم وتأملوا ما يحيط بها من أخطار وأهوال تكاد تعصف بها وتدع الحليم حيران؟!

إننى أكتب هذه السطور وألمح فى الأفق تحالفا آثما بين الصليبية العالمية ، والصهيونية الفاجرة على حرب الإسلام وإذلال أهله .

لقد فعل اليهود الأعاجيب فى بيت المقدس ولا أدل على ذلك ممّا نسمعه ونراه من فعل الصهاينة بالمسلمين فى المسجد الأقصى من ذبح العشرات منهم وجرح المئات كل ذلك داخل حرم المسجد الأقصى ، ثم إغلاقه فى وجه المسلمين وعدم تمكينهم من دخوله وإقامة العبادة فيه مما هيج مشاعر المسلمين وغيرهم ، وهم عازمون على هدمه وإقامة هيكل سليمان مكانه ، وأغلب الظن أن ذلك سيحدث قريبًا من كتابة هذه السطور ، ويومئذ لن نسمع من قادة المسلمين إلا الشجب والاستنكار ، وتتوالى البيانات تستنكر هذا العمل اللاإنسانى الذى يتنافى مع سماحة الأديان !! وستكتمل المهزلة عندما يلجأ المسلمون إلى عصبة الأمم المتحدة ليستصدروا قرارًا بإدانة إسرائيل على هدم المسجد الأقصى !! وأغلب الظن أن أمريكا ستستخدم حقها فى

---

(١) الأنعام آية ١٥٣ .

الاعتراض على الإدانة وتوصى الجميع بالحكمة وضبط النفس !! وإنها لفتن كقطع الليل المظلم تدع الحليم حيران كما أخبر نبينا محمد ﷺ ، فهل يفيق دعاة الفرقة والانقسام ويعودوا إلى الوحدة والوئام ؟

« اللهم هل بلغت ؟ اللهم فأشهد !! »

ثالثًا : عدم استقلال مؤسسات الدعوة :

لا تستطيع مؤسسات الدعوة أن تؤدى رسالتها نحو الإسلام والمسلمين إلا فى جو من الحرية والاستقلال بعيدًا عن الحكومات القائمة والأنظمة السياسية لأن السياسة متقلبة والإسلام ثابت ، والسياسة تقوم على النفعية والمصالح الدنيا ، والإسلام مثل ومبادئ ، ولذلك ما دخلت السياسة فى شيء من أمور الدين إلا أفسدته وما اشتغل عالم من علماء الإسلام بالتنظيمات السياسية إلا انطفأ بعد إشراق وفسد بعد صلاح وباع دينه بعرض قليل من الدنيا .

وقد كان من فضل الله على الأزهر – وهو المؤسسة الأم للدعوة فى العالم الإسلامى كله – أن عاش مستقلا استقلالا كاملاً فى القرن السابق والقرون التى قبله .

لقد حبست عليه عندما تم بناؤه فى سنة ٣٦١ هـ = ٩٧٢ م بعض مصادر الثروة من المتبرعين الخيريين للإنفاق على شئون التعليم فيه – سواء ما يتعلق بالمدرسين أو بالطلاب – ليظل بعيدًا على الانفاق الحكومى ، وبالتالى بعيدًا عن سياسة الحكومة القائمة ، وبذلك يكون مستقلاً ، ويكون علماؤه مستقلين فيما يعلنونه من رأى ينسبونه إلى

الإسلام ، أو فيما يعلنونه من موقف يتخذونه إزاء حدث من الأحداث في أي مجتمع من المجتمعات الإسلامية .

ومن وسائل الاحتياط في التعبير عن الرأي لعلمائه وضمان استقلال رأيهم وعدم خضوعه لميل سياسي معين تمليه جهة لها نفوذ عليه ، كان هنا تمويل الحركة التعليمية فيه من مصادر « الخير » وهي الأوقاف التي تحبس على الخير العام ، يتنازل عنها أصحابها بغية رضاء الله وتقربًا إليه .

وفي مقدمة مفهوم « الخير » في نظر الواقفين : العناية بالدعوة الإسلامية ، تعليمًا ونشرًا ، وكان كل وقف يخصص مصرفه للتعليم الإسلامي ينظر عليه « شيخ الأزهر » من قبل صاحب الوقف ضمانًا لمصرف الريع فيما خصص له وهو « التعليم » ورعاية الدعوة الإسلامية .

وكان « شيخ الأزهر » هو الراعي لشئون تعليم الدين فيه ، وشئون الدعوة الإسلامية، كما كان هو الناظر على أوقاف المسلمين الخيرية على الدين.

وكان علماء الأزهر، وطلابه، يعيشون في ظل هذا الاستقلال ويرعون فقط شيئًا واحدًا فحسب وهو دين الله وتعاليمه: درسًا وبحثًا ، وتعليما ونشرًا، محافظين في أقوالهم باسم الإسلام على أن يجنبوا أنفسهم–بقدر ما يمكن–الخضوع تحت تأثير أي مؤثر داخلي أوخارجي.

ومن باب الاحتياط وإبعادًا لكل شبهة تأثير كانوا يختمون ما يتحدثون عنه ، أو يفتون به بقولهم : « والله أعلم »[1] .

---

(١) دكتور محمد البهي : غيوم تحجب الإسلام ٩٥ – ٩٦ (بتصرف وتلخيص) .

ومهما يكن من أمر ، فإن علماء الأزهر – فى أمسه – لم يقعوا عن طريق استقلالهم فى تمويل التعليم والنشاط الدينى داخله وخارجه – تحت تأثير اتجاه سياسى محلى أو عالمى .

وكانوا أحرارًا فيما يقولونه باسم الإسلام فى تكييف الأحداث ، وفى الحكم عليها – وفى تصرفات المسلمين : حكامًا ، ومحكومين على السواء .

وبذلك كانت لهم مواقف ضد الظلم فى الداخل ، كما كانت لهم مواقف أخرى ضد الاستعمار الأجنبى من الخارج ، كما كانت لبعض الشخصيات الأزهرية فى أمسه على عهد استقلاله آراء حفظت كيان الأمة المصرية من أن تعصف بها عواصف الظلم والاستبداد ، مما كان يمارسه حكام مصر على عهد المماليك وعلى عهد العثمانيين سواء .

ثم كان للأزهر ولرجاله تلك المواقف المشهورة فى وجه الغزاة الفرنسيين على عهد نابليون وضد الاحتلال البريطانى فى فتراته المختلفة ، وبالأخص فى ثورة ١٩١٩م مما يجعل كل مسلم فى الداخل والخارج يتذكر استقلال الأزهر وفاعليته باسم الإسلام ، وعلى أسس من مبادئه ، ثم يستخلص قيمته فى دعم كيان الأمة ، والحفاظ على روح العدل فيها ، فى الوقت الذى صان فيه تراث الأمة فى ثقافتها وروحيتها ، ولغتها العربية .

وهنا بعض النماذج التى تصور مدى استقلال الأزهر واستقلال علمائه فيما أبدوه من آراء تمس حياة الأمة فى عصورها المختلفة ، وعلى أساس منها وقت الأمة نفسها من الضياع ، أو من الذوبان ، أومن المذلة والضيم ، كما أراد لها بعض حكامها ممن وفدوا عليها من : هنا .. وهناك .

(أ) ذكر الجبرتى فى تاريخه : أن الشيخ محمد بن سالم الحفنى الشافعى[1] كان قطب رحى الديار المصرية ، لا يتم أمر من أمور الدولة إلا باطلاعه ومشورته ، وكان فوق هذا عضوا فى ديوان الحكومة يمثل الشعب المصرى ، مع جماعة من إخوانه تمثيلاً رائعًا ، حتى كان على بك الكبير[2] – كان على شدته وقوة ملكه لا يستطيع مقاومته ولا معاداته ، وكان فى مناقشاته فى الديوان لا يتردد أحيانًا أن يهدد الحكام باسم الشعب إذا عمدوا إلى ما يسىء إليه أو يضر بمصلحته : فقد وقف مرة يناقش فى إرسال حملة حربية لإخضاع بعض الأمراء الخارجين فى الصعيد ، وكان رأى الشيخ أن تلك الحملات الحربية تضر بالناس وتعطل مصلحتهم ولم يتردد فى آخر خطبته القوية أن يصيح قائلاً : « والله لن نسمح أن يسافر أحد ، وإن سافرت الحملة فلن يحدث خير أبدًا » .

(ب) وتشتد وطأة أحد الأمراء على أهل بلبيس سنة ١٧٩٥م فى تحصيل الأموال وتلفت الفلاحون إلى ملاذهم ، والتجئوا إلى

---

(١) تولى مشيخة الأزهر سنة ١٧٥٧م .
(٢) استقل بأمر مصر ١٧٦٦م .

الشيخ عبد الله الشرقاوى[1] . ورجوا الشيخ فى أن ينقذهم من هذا الظلم ، فبعث الشيخ بمطالبة مراد بك[2] ليكف الأمير الظالم عن ظلمه ، ولما لم يجد الشيخ لمسعاه أثرًا فى إصلاح الحال بالسعى السلمى دعا الناس إلى الثورة ، وكانت النفوس مستعدة لدعوته فاجتمع له كثيرون من أهل القاهرة ومن أهل الأطراف ، وأوشك الأمر أن يؤدى إلى ثورة دموية مدمرة وقضت القاهرة ثلاثة أيام فى اضطراب وخوف والناس مصرون على أن يوقفوا الحكام عند حد العدل والحق أو يواصلوا الجهاد ، وإن أدى ذلك إلى إراقة الدماء وبذل الأموال والأنفس فرأى كبار الأمراء أن الأمر يوشك أن ينتهى إلى اضطراب لا قبل لهم به فذهبوا إلى بيت إبراهيم بك واجتمعوا به هناك وأرسلوا إلى المشايخ فحضر الشيخ السادات ، والشيخ النقيب ، والشيخ الشرقاوى والشيخ البكرى والشيخ الأمير[3] .. ودار الكلام بينهم وطال الحديث وانتهى الأمر بأن أعلن الأمراء أنهم تابوا والتزموا بما شرطه العلماء عليهم .

وانعقد الصلح على شروط كتبها العلماء فى وثيقة يمكن أن نسميها بالوثيقة الاجتماعية أو الوثيقة السياسية ، وقد تضمنت أن الأمراء يتعهدون بالعدل ، ويتوبون عن المظالم ويعدون بالقيام بالواجبات التى يفرضها عليهم القانون والعرف من صرف الأموال على مستحقيها ، وإرسال غلال الحرمين إليها ، ورفع الضرائب المستحدثة ، ويكفون

---

(١) ولى مشيخة الأزهر (١٢٠٨/١٢٢٧هـ) .
(٢) من زعماء المماليك فى أواخر القرن الثامن عشر .
(٣) وكلهم من كبار رجال الأزهر .

أتباعهم عن امتداد أيديهم إلى أموال الناس ، وأن يسيروا في الحكم سيرة حسنة ، وكان القاضي حاضرًا بالمجلس فوثق ذلك ، وانحلت الفتنة ورجع المشايخ وحولهم وأمامهم وخلفهم جملة من العامة فرحين بالنصر الكبير[1] .

فلم يكتف العلماء بالنقد والنصح حينما انحرف الأمير وإنما انتهجوا منهجًا عمليًّا يقومون به المعوج ويرجعون به الحق إلى نصابه .

(جـ) ويروى الجبرتي أيضًا[2] أن ثورة أخرى قامت من الأزهر بقيادة الشيخ الدردير[3] وتتلخص وقائعها في أنه سنة ١٢٠٠هـ نهب (حسين بك شفت)[4] وجنده .. دارًا بحي الحسينية لشخص يدعى أحمد سالم الجزار وقد أثار هذا الحادث ثائرة الأهالي . فاتفقوا على الالتجاء إلى الشيخ الدردير ، وكان من أقوى العلماء شخصية ، وأوسعهم نفوذًا ، وفي اليوم التالي لهذا الحادث اجتمع فريق من الأهالي وقصدوا شطر الأزهر ، وأخبروا الشيخ الدردير بما حدث فأثار النبأ الشيخ الذي عبر عن استيائه لاستهتار الأمراء بمصالح الشعب وتعسفهم في معاملته ، وأعلن في الجماهير انضمامه إليهم وأمر بدق الطبول على منارات المساجد إيذانا بالاستعداد للقتال ، وأسرع الأهالي نحو الأزهر وعولوا على النضال ، ولما اتصلت أنباء تجميع الجماهير الثائرة بمسامع إبراهيم بك وبلغه

---

(١) راجع تاريخ الجبرتي ٢/٢٥٨ .
(٢) ٢/١٠٣ .
(٣) هو أحمد بن محمد بن أحمد العدوي الشهير بالدردير (١١٢٧/١٢٠١هـ)
(٤) أحد الأمراء العثمانيين .

تصميم الشيخ الدردير على قيادة الشعب ضد الأمراء خشى أن يستفحل هذا الخطر ، ويفقد ما يتمتع به من نفوذ فى مصر ، فأوفد نائبه فى صحبة أحد الأمراء إلى الشيخ الدردير يعبرون له عن أسف الأمير لما حدث ، ووعده بأن يكف أيدى الأمراء عن أذى الناس كما قرر الأمير لوم حسين بك شفت ، وأمره برد ما نهبه إلى صاحبه .

(د) وعندما أشيع مجىء الحملة التركية لإصلاح الحكم فى مدة حكم الطاغيتين مراد بك وإبراهيم بك بقيادة القبودان حسن باشا ، ذعر مراد بك وإبراهيم بك خوفًا من أن ينتهز الشعب هذه الفرصة ليثور على حكمهما ، فحاول المماليك التقرب إلى العلماء زعماء الشعب والتذلل لهم ، يقول الجبرتى[1] :

« فذهب إبراهيم بك إلى الشيخ البكرى ثم الشيخ العروسى ثم الشيخ الدردير ، وصار يبكى لهم ، وتصاغر فى نفسه جدا ، وأوصاهم على المحافظة وكف الرعية عن أمر يحدثونه ، أو قومة أو حركة فى مثل هذا الوقت ، فإنه كان يخاف ذلك جدًّا » .

(هـ) ويتطلع الشعب إلى العلماء لإنقاذهم من ظلم الوالى التركى خورشيد باشا[2] وظلم جنده ويقود الحملة السيد عمر مكرم[3] واتفقت الكلمة على عزل خورشيد باشا وتولية محمد على عليهم بشروطهم وبأن ينزل على مشورة العلماء ، وولاه السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى

---

(١) تاريخه ١١٨/٢ .

(٢) فى نهاية القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر .

(٣) (١٧٥٥/١٨٢٢) .

سنة ١٨٠٥م وحاصر عمر مكرم القلعة على خورشيد باشا ، وأعلنه بالعزل ، فقال له خورشيد باشا : كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم ، وقد قال الله تعالى : ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، وأولى الأمر منكم﴾ ؟ فأجابه عمر مكرم بقوله : « أولوا الأمر هم العلماء ، وحملة الشريعة ، والسلطان العادل ، فقال خورشيد : وليت بأمر الخليفة فلا أعزل بأمر الفلاحين . فقال عمر مكرم : للناس أن يعزلوا الحاكم الظالم وأن يخلعوا حتى الخليفة إذا سار فيهم بالجور . وحسم السلطان الأمر بإصدار فرمان فى سنة ١٨٠٥ يتضمن تثبيت محمد على فى الولاية على مصر « حيث رضى العلماء والرعية وأن خورشيد باشا معزول عن ولاية مصر » .

(و) ويقود الأزهر الشعب لمقاومة الغزو الفرنسى حينما جاء نابليون إلى مصر ويغتال طالب أزهرى هو سليمان الحلبى[1] « كليبر » فيعدم الحلبى مع أربعة من شيوخ الأزهر وطلابه ، وكان نابليون قد أعدم من قبل ثلاثة عشر عالمًا من علماء الأزهر سنة ١٧٩٨ ، حرضوا الناس على الثورة وقادوا المظاهرات احتجاجًا على الغزو الفرنسى كما قاد السيد عمر مكرم الشعب عند حملة « فريزر » لصد الغزو الإنجليزى سنة ١٨٠٧م وحشد السيد عمر مكرم المقاومين ، وأقام الاستحكامات الدفاعية وحفر الخنادق حول القاهرة وكان يذهب صباح كل يوم مع الجماهير المحتشدة حيث يقوم العمال بعمل الاستحكامات الحربية ، ويظل سحابة نهاره بينهم ، وكان أحيانًا يشاركهم إقامة هذه

---

(١) طالب سورى كان يدرس بالأزهر ، واغتال القائد سنة ١٨٠٠م .

الاستحكامات فيثير فيهم الحماس والوطنية وحب الاستشهاد فى سبيل الله والدفاع عن الوطن ، حتى باءت حملة « فريزر » بالفشل ورجعت بالخسران .

يقول الأستاذ الدكتور محمد البهى تعليقًا على المواقف السابقة لعلماء الأزهر : « ولم تكن المواقف السابقة منبعثة من غلظة فى الطبع ، أوطبيعة عصبية مشددة ، وإنما كان انبعاثها من مجموعة من الأخلاق والمثل التزم بها هؤلاء العلماء كجزء من إيمانهم بالإسلام وتعاليمه ، ووفاء لما أملته العامة فيهم فكانوا عند حسن ظنهم »(١) .

ويحكى التاريخ أن السلطان العثمانى عندما نزل على حكم العلماء بزعامة السيد عمر مكرم وعزله والى مصر الظالم خورشيد باشا هنا تجلت سماحة السيد عمر مكرم حيث أرسل مائتين من الإبل حملت متاع الوالى والمحاصرين معه من رجال ونساء وأنزله فى ضيافته بضعة أيام ليحميه من غضب الشعب وييسر له سبيل النجاة .

ويعتذر شيخ الإسلام زكريا الأنصارى عن منصب قاضى القضاة حينما عرض عليه الحاكم قايتباى فأبى الأنصارى وألح قايتباى ، وقال للشيخ : إن أردت نزلتُ ماشيًا بين يديك أقود بغلتك إلى أن أوصلك إلى بيتك ، مسترضيًا الشيخ ، وهنا قبل من الشيخ من اللوم والتأنيب والتعنيف الشديد مع أنه هو الذى ولاه .

وقال له : « أيها الملك ، تب لنفسك ، فقد كنت عدمًا فصرت وجودًا وكنت رقيقًا فصرت حرا ، وكنت أسيرًا فصرت أميرًا ،

---

(١) غيوم تحجب الإسلام ١٠٢ .

وكنت أميرًا فصرت ملكًا ، فلما صرت ملكًا تجبرت ونسيت مبدأك ومنتهاك »[1] .

الأزهر منذ بداية القرن العشرين :

لم ينس الاحتلال البريطانى الذى احتل مصر سنة ١٨٨٢م دور الأزهر فى مقاومة الغزو الفرنسى فى عهد « نابليون بونابرت » (١٧٦٩/١٨٢١م) ولذا ركزت السياسة البريطانية فى مصر على أمرين :

أولاً : على ازدواج التعليم فى مصر ، بعد فصل التعليم فى الأزهر عن التعليم فى الدولة وقد كان نمط التعليم فى الأزهر إلى عهد محمد على هو النمط الوحيد أو الأصيل ، كما كان التعليم فى قرى مصر جميعها مؤهلاً فقط للالتحاق بالأزهر والتخرج فيه .

وعلى أساس من ازدواج التعليم يصبح هناك دينى فى الأزهر ، وآخر غير دينى أو علمانى فى غير الأزهر من المدارس فى مراحلها المختلفة التى تنشئها وزارة المعارف العمومية إذ ذاك .

وثانيا : على إلغاء استقلال الأزهر فى تمويله وإلحاقه بجهة حكومية حتى تكون للإدارة القائمة فى مصر فى عهد من العهود الإشراف على التعليم فيه ، وكذلك على توجيه رجاله – بقدر ما يمكن – فيما يعلنونه من آراء وفتاوى باسم الإسلام ، ضمانًا للوجود البريطانى ، أو للوجود

---

(١) وردت القصة فى الكواكب السائرة ص ١٩٦ .

الأوروبي على الأقل ، وهو وجود رأسمالي في اقتصاده ، وعلماني في سياسته ومسيحي في إيمانه .

أما الأمر الأول : فقد سارت فيه حكومة الاحتلال البريطاني في مصر خطوات واسعة ، حتى إنها عمدت إلى نمط التعليم الأزهري وأنشأت بعض المؤسسات التعليمية التي تنافس الأزهر فيه فأنشأت مدرسة القضاء الشرعي ، ومدرسة دار العلوم الأولى لتخريج قضاة في المحاكم الشرعية ، والثانية لتخريج معلم اللغة العربية في مدارس وزارة المعارف الابتدائية والثانوية .

ثم قصدت كذلك إلى التعليم في القرى فأنشأت « المكاتب الراقية » تتبع وزارة المعارف بجانب « الكتاتيب » التي كانت تؤهل لحفظ القرآن الكريم ، وتعد الحافظين فيها إلى الالتحاق بالأزهر ، ولكي تعد الإدارة البريطانية معلمًا غير أزهري لهذه المكاتب الراقية أنشأت مدارس المعلمين الأولية ، وهي تنافس مرحلة التعليم الابتدائي في الأزهر[1] .

وقد نتج عن ذلك انقسام المجتمع إلى طوائف في الفكر والثقافة ، وهذا الانقسام أدى إلى الخصومة والتنابذ بالألقاب .

فبينما الأزهريون ينظرون إلى من عداهم نظرة تقوم على عدم الرضا إذ بأصحاب الثقافة غير الدينية ينظرون إلى رجال الأزهر على أنهم غير صالحين للحياة المعاصرة وأنهم يعيشون بتفكيرهم في الماضي ، وهم لذلك « رجعيون » وهكذا وصل الاحتلال البريطاني إلى نقل بعض النشاط الفكري للمصريين من معارضته هو إلى معارضة كل

---

(١) دكتور محمد البهي : غيوم تحجب الإسلام ١٠٤ .

طائفة للأخرى ومخاصمتها وتحققت بذلك حكمته القائلة : « فرق تسد » . والتفرقة فى الثقافة والتوجيه هى أخطر ضروب التفرقة[1] .

أما الأمر الثانى : وهو إلغاء استقلال الأزهر فى تمويله وإخضاعه إلى جهة حكومية فى الإدارة المصرية فإن الاحتلال البريطانى – وهو صورة من صور السياسة الأوربية الغربية – له خبرة بموقف « الكنيسة » من « الدولة » فى الغرب ، وهو موقف لا تملك فيه الدولة هناك أن تملى رأيها السياسى على الكنيسة ، لا بسبب منزلة الكنيسة فى نفوس التابعين لها وسيطرتها عليهم سيطرة تمكنها من « الانتقام » ممن يخرجون عليها من هؤلاء الأتباع ، ولكن بسبب رئيسى آخر ، وهو : استقلالها فى التمويل والإنفاق على رسالتها من أموال تملكها وتشرف عليها إشرافًا مباشرًا أو غير مباشر .

وهذه التجربة للاحتلال البريطانى أراد أن يفيد منها فى إضعاف مقاومة الأزهر لسياسة الحكومة المصرية التى تخضع لتوجيهه إن لم يستطع القضاء عليها تمامًا .

وهنا فى سنة ١٩١٥ – بعد إعلان الحماية على مصر فى سنة ١٨١٤ ، وبعد قيام الحرب العالمية الأولى – رأى المستشار المالى للحكومة المصرية ، وهو من رجال سلطة الاحتلال ؛ أن يقوم بتجربة مثيرة فى مجال الأوقاف الخيرية المرصودة على التعليم فى الأزهر ، أو التى يتنظر عليها شيخ الأزهر ، فأرسل إلى شيخ الأزهر كتابًا يعرض عليه مساعدة الحكومة المصرية المالية بدعوى تحسين « الوضع المالى

---

(١) انظر : المرجع السابق ١٠٦ .

لعلماء الأزهر » واقترح أن تقدم وزارة المالية المصرية كل عام ما يحتاجه الأزهر من مال ، على أن تقوم الوزارة منذ هذا العام وهو عام ١٩١٥ بتقديم مبلغ خمسة آلاف جنيه بدلاً من الثلاثة آلاف التى أتت بها حصيلة أوقاف الأزهر ، على أن تزيد الوزارة كل عام بمقدار الحاجة التى يراها شيخ الأزهر ، وفى مقابل ذلك تشرف الحكومة المصرية على أوقاف الأزهر ، ضماناً لحصولها على الريع الذى تأتى به .

ومنذ ذلك الوقت ابتدأ يضمحل استقلال الأزهر وتقوى التبعية للإدارة الحكومية والتوجيه السياسى للحكومة ، كما ابتدأ الأزهر يصفى أصحاب الرأى فيه ، ويخرج جيلاً جديدًا تتبعه أجيال أخرى فى الإمعان فى التبعية السياسية ويصغى للسياسة وتوجيهها فيما يبديه علماؤه من فتاوى وآراء باسم الإسلام واستنادًا إلى مبادئه .

وكانت ثورة ١٩١٩ الوطنية تكاد تكون آخر المواقف الأزهرية التى تميز بها عهد استقلال الأزهر ، والتى وقف فيها مواقفه المشهورة ضد الاحتلال البريطانى والحماية البريطانية وضد الغزو الأجنبى أو الظلم على العموم .

ويكاد كذلك يكون المغفور له الشيخ عبد المجيد سليم هو — آخر شيوخ الأزهر الذى أثر فيهم وفى آرائهم عهد استقلال الأزهر إلى درجة كبيرة ، وما ينسب إليه من تصريح : « تقتير هنا وإسراف هناك » فى مواجهة سياسة الملك فاروق فى الداخل بين الطوائف المختلفة وفى الخارج فى العبث والمجون وقد كان بجزيرة كابرى فى ذلك الوقت بإيطاليا — أمر معروف . وكذلك فتواه المشهورة بتحريم مراقصة

الأجنبية ، وقد قصد بها أيضًا الملك فى تردده على « أوبرج الأهـرام » بالجيزة[1] .

ومهما يكن من أمر : فإن تبعية أجهزة الدعوة الإسلامية فى كثير من البلدان الإسلامية للحكومات والسلطات أمر خطير أفقد الدعوة استقلالها فيما تصدره من فتاوى وآراء ، وكما أدى إلى ضعف رسالتها وتأثيرها فى المجتمع ، لأن التبعية – كما يقرر – بحق – الدكتور محمد حسين الذهبى – عليه سحائب الرحمة – تعنى :

أولاً : أن ينسحب منطق الوظيفة على جهاز الدعوة ، فالعاملون فيه موظفون تحدد عليهم واجبات وتقرر لهم حقوق ، ويخضعون لنظام التوجيه والرقابة ، كما يتعرضون لنظام العقاب والثواب ، أسوة بغيرهم من موظفى الدولة هنا أو هناك .

هذا الإطار الوظيفى إن صلح لأى مجال آخر فى الحياة فهو فى مجال الدعوة غير صالح على الإطلاق ، فالدعوة إنما تقوم – أساسًا – على الالتزام أمام الله ، وليس على الالتزام من جانب السلطات كائنة ما كانت .

ونظام الرقابة فى هذا المجال لا يمكن أن يأتى من خارج الإنسان ، وإنما يجب أن يتولد من داخله خلال عملية الإعداد ، والتربية ، والتكوين .

إن ضمير الداعية يجب أن يكون الفيصل فى مسألة الرقابة وما يتصل بها ، وحاجة الدعاة إلى رقابة خارجية معناه فشل إعدادهم وتربيتهم من

---

(١) المرجع السابق ١٠٧ .

ناحية ، وعدم صلاحيتهم لمهمتهم من ناحية أخرى ، وخيرٌ للدعوة – ألف مرة – أن ينحى عن مجالها كل من يحتاج لرقابة خارجية من بقائه في ساحتها .

وتعنى ثانيا : إحساس جهاز الدعوة التابع للسلطة بأن مصيره وقدره مرتبط بطاعة أولى الأمر ، وأن مخالفته إياهم – ولو كان فيها إرضاء لله – يعرض حياته وحياة من يعولهم لخطر يتصل بمصدر رزقهم .

وهذا الإحساس يُهَدْهدُ من شجاعة الدعاة في الجهر بكلمة الحق ، وينمى – بالتدريج – روح الهوينى ويبرر الخمول والكسل ، حتى ينتهى الأمر إلى أداء شكلى هزيل .

وتعنى ثالثًا : أن يدخل الدعاة في معركة المطالبة بتحسين الأوضاع ، فهم جزء من جهاز الدولة يتأثر بمن حوله ، ودخول الدعاة في هذا الجو مشغلة من جهة ، تصرفهم عن وجهتهم ، وتبدد الكثير من طاقاتهم ومن جهة أخرى ، ينال من صورتهم – كمثل وقدوة – في أنظار الناس ، وعلى هذه الصورة يتوقف الكثير من استجابة الناس لهم ، ورفضهم إياهم .

وتعنى رابعًا : أن على جهاز الدعوة أن يختار أحد طريقين : إما أن يساير مايجرى في مجتمعه مادامت السلطات القائمة تقره ، وإما أن يقول كلمة الحق ، معلنا أن السلطات خالفت حكم الله في هذا الذى أقرته !!

هذا الصراع النفسى داخل نفس الداعية موجود ومستمر طالما ظل هناك انفصال بين مواقف الحكام فى التشريع وتنظيم الحياة وبين توجيه الإسلام »[1] .

والحق أن هذه المشكلة – مشكلة تبعية الأزهر وغيره من أجهزة الدعوة للسلطات والحكومات – من أعقد مشاكل الدعوة ، التى كان لها أثرها السلبى على تاريخ الأزهر ومواقف علمائه وكم مرت بالعالم الإسلامى أحداث وقضايا لو كان الأزهر يعيش حياة الحرية والاستقلال المادى لكان له موقف يذكر ، مؤازرة للحق وتأييدًا لأهله ، كما كان شأن الأزهر فى قرون كثيرة خلت ، ولكن أزهر النصف الثانى من القرن العشرين – كما يقول أستاذنا الدكتور محمد البهى – يختلف عن أزهر : « النصف الأول » من هذا القرن فالأزهر المعاصر ، أزهر يدور برأيه ، وبموقفه فى مجال السياسة التى ترسم له ، ويحاول أن يجذب إلى رأيه وموقفه : الإسلام جذبًا ، وقد يشده إليه شدًّا عنيفًا ، إرضاء للحاكم السياسى ، وإبقاء على الوظيفة التى يتقلدها صاحب الرأى أو الموقف حتى أصبحت الاشتراكية العلمية – وهى اشتراكية ماركس ، وبلشفية لينين – تجد لها تقديرًا فى بحوث علماء الأزهر يتقربون بها إلى الحاكم الاشتراكى ، ويضفون عليها سمة من الإسلام ، والإسلام فى جوهره بعيد عنها كل البعد ، وحتى أصبحت موسكو يحج إليها الإمام الأكبر شيخ الأزهر كما – يحج إلى مكة مهبط الوحى والرسالة ، وربما قبل أن يحج إلى هذا البلد الأمين .

---

(١) مشكلات الدعوة والدعاة ٣٣ – ٤٤ .

وأخطر مرحلة يمر بها الإسلام الآن هى تلك المرحلة الحاضرة التى يشترى فيها علماء الإسلام بآيات الله ثمنًا قليلاً .. هى تلك المرحلة التى يجرؤ فيها من ينتسب إلى دين الله على تطويع كتاب الله لهوى الحاكم بينما يضعف ويستخزى فلا يقول كلمة الحق فى وجهه .

ولا يقل خطر العلماء فى هذه المرحلة فى الحيلولة بين الشباب المسلم المعاصر والرؤية الواضحة للإسلام عن أولئكم الأعداء الذين يثيرون الاتهامات والشبه لدين الله ولرسوله ﷺ[1] .

وقد يتساءل أحد الغيورين على الإسلام من أهل الخير : ما الحل لهذه المشكلة المعقدة مشكلة تبعية مؤسسات الدعوة للأنظمة والحكومات ؟

والجواب على ذلك أنه يمكن تحقيق الحل بالأمور الآتية :

١ – توفير ضمانات كافية تؤمن الدعاة تأمينًا كاملاً فيما يتصل بأنفسهم وأرزاقهم مهما كانت المآخذ .

٢ – أن تتولى محاسبة من يرى أنه ارتكب ما يوجب المحاسبة هيئة علمية ، تحاكمه على أساس واضح من مقررات الإسلام التى لا يجوز للداعية أن يذعن لغيرها ، ولا يجوز لغيره أن يحاكمه إلا على أساسها .

٣ – التفكير فى نظام يكفل تمويل الدعوة على مستوى العالم الإسلامى، وبحيث لا يكون هناك سلطان مباشر للحكومات على الدعاة[2].

---

(١) غيوم تحجب الإسلام ١١٣ .

(٢) انظر : مشكلات الدعوة والدعاة ٤٠ .

٤ - وهنا نقترح : أن تخصص نسبة مئوية من ميزانية كل دولة إسلامية لتمويل الدعوة في الداخل والخارج نسبة مئوية يتحقق بها العدل والتضامن في تحمل أعباء هذا الواجب الخطير ، وتفي بمتطلبات المهمة الخطيرة التي تنتظر المسلمين اليوم ، وفاء بحق دينهم ، وبحق الإنسانية التي ضلت طريقها ، ولا سبيل لهدايتها إلا عن طريق تعريفها بالدين الذي جاء لهداية الناس جميعًا[١] .

---

(١) المصدر السابق ١٧ - ١٨ .

مثل عليا
فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

- ضبة وأبو موسى :

روى عن ضبة بن محصن العنبرى قال :

كان علينا أبو موسى الأشعرى أميرًا بالبصرة ، فكان إذا خطبنا ، حمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبى ﷺ وأنشأ يدعو لعمر رضى الله عنه .

قال : فغاظنى ذلك منه ، فقمت إليه فقلت له :

أين أنت من صاحبه تفضله عليه ؟

فصنع ذلك جُمعًا ، ثم كتب إلى عمر يشكونى ، يقول :

إن ضبّة بن محصن العنبرى يتعرض لى فى خطبتى .

فكتب إليه عمر ، أن أشخصه - أى أرسله - إلىّ .

قال : فأشخصنى إليه ، فقدمت فضربت عليه الباب ، فخرج إلىّ فقال : من أنت ؟

فقلت : أنا ضبة .

فقال لى : لا مرحبًا ولا أهلاً .

فقلت : فأما المرحب فمن الله ، وأما الأهل . فلا أهل لى ولا مال ، فبماذا استحللت ياعمر إشخاصى من مصرى بلا ذنب أذنبته ، ولا شيء أتيته ؟

فقال : ما الذى شجر بينك وبين عاملى ؟

قلت : الآن أخبرك به : إنه كان إذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبى ﷺ ، ثم أنشأ يدعو لك ، فغاظنى ذلك منه ، فقمت إليه وقلت له :

أين أنت من صاحبه تفضله عليه ؟

فصنع ذلك جمعا ثم كتب إليك يشكونى .

قال : فاندفع عمر رضى الله عنه باكيا ، وهو يقول :

أنت والله أوفق منه وأرشد فهل أنت غافر لى ذنبى يغفر الله لك .

قلت : غفر الله لك يا أمير المؤمنين .

قال : ثم اندفع باكيا وهو يقول :

والله لليلة من أبى بكر ويوم خير من عمر وآل عمر .

فهل لك أن أحدثك بليلته ويومه ؟

قلت : نعم .

قال : أما الليلة : فإن رسول الله ﷺ ، لما أراد الخروج من مكة هاربا من المشركين ، خرج ليلاً فتبعه أبو بكر ، فجعل يمشى مرة أمامه ، ومرة خلفه ، ومرة عن يمينه ، ومرة عن يساره .

فقال رسول الله ﷺ : ما هذا يا أبا بكر ؟

ما أعرف هذا من أفعالك !

فقال : يارسول الله ؛ أذكر الرصد فأكون أمامك ، وأذكر الطلب فأكون خلفك ، ومرة عن يمينك ، ومرة عن يسارك لا آمن عليك .

قال : فمشى رسول الله ﷺ ليلته على أطراف أصابعه حتى حفيت ، فلما رأى أبو بكر أنها قد حفيت حمله على عاتقه ، وجعل يشتد به ، حتى أتى فم الغار فأنزله ثم قال :

والذى بعثك بالحق لا تدخله حتى أدخله ، فإن كان فيه شىء ، نزل بى قبلك .

فدخله فلم ير فيه شيئًا فحمله وأدخله .

وكان فى الغار خرق ، فيه حيات وأفاع ، فألقمه أبو بكر قدمه مخافة أن يخرج منه شىء إلى رسول الله ﷺ ، فيؤذيه ، وجعلن يضربن أبا بكر فى قدمه وجعلت دموعه تنحدر على خديه من ألم ما يجد ، ورسول الله ﷺ يقول : يا أبا بكر : لا تحزن إن الله معنا .

فأنزل الله سكينته عليه والطمأنينة لأبى بكر .

فهذه ليلته وأما يومه :

فلما توفى رسول الله ﷺ ارتدت العرب فقال بعضهم : نصلى ولا نزكى .

فأتيته لا آلوه نصحًا ، فقلت :

يا خليفة رسول الله تألف الناس ، وارفق بهم .

فقال لى : أجبار فى الجاهلية خوار فى الإسلام ؟ فبماذا أتألفهم ؟

قُبض رسول الله ﷺ ، وارتفع الوحي ، فوالله لو منعوني عقالاً كانوا يعطونه رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه .

قال : فقاتلنا عليه ، فكان والله رشيد الأمر .

فهذا يومه ، ثم كتب إلى أبي موسى يلومه .

عطاء وعبد الملك :

عن الأصمعي قال : دخل عطاء بن أبي رباح رضي الله عنه ، على عبد الملك بن مروان ، وهو جالس على سريره وحواليه الأشراف من كل بطن – أي قبيلة – وذلك بمكة في وقت حجه في خلافته ، فلما بصر به قام إليه ، وأجلسه معه على السرير ، وقعد بين يديه وقال له : يا أبا محمد ؟ ما حاجتك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين :

اتق الله في حرم الله وحرم رسول الله ، فتعاهده بالعمارة .

واتق الله في أولاد المهاجرين والأنصار ، فإنك بهم جلست هذا المجلس .

واتق الله في أهل الثغور ، فإنهم حصن المسلمين ، وتفقد أمور المسلمين ، فإنك وحدك المسئول عنهم .

واتق الله فيمن على بابك ، فلا تغفل عنهم ، ولا تغلق بابك دونهم .

فقال له : أجل ، أفعل .

ثم نهض عطاء وقام فقبض عليه عبد الملك ، وقال :

يا أبا محمد ! إنما سألتنا حاجة لغيرك ، وقد قضيناها، فماحاجتك أنت ؟

فقال : مالى إلى مخلوق حاجة ؟

ثم خرج فقال عبد الملك : هذا وأبيك الشرف .

رجل فى الطواف والمنصور :

بينما المنصور فى الطواف ليلا إذ سمع قائلا يقول اللهم إنى أشكو إليك ظهور البغى والفساد فى الأرض ، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع ، فخرج المنصور ، فجلس ناحية من المسجد ، وأرسل إلى الرجل يدعوه فصلى الرجل ركعتين ، واستلم الركن ، وأقبل مع الرسول فسلم عليه بالخلافة .

فقال المنصور : ما الذى سمعتك تذكر من ظهور الفساد والبغى فى الأرض ، وما الذى يحول بين الحق وأهله من الطمع ؟ فوالله لقد حشوت مسامعى ما أرمضنى .

فقال إن أمنتنى يا أمير المؤمنين أعلمتك بالأمور من أصولها ، وإلا احتجزت منك واقتصرت على نفسى فلى فيها شاغل .

قال : فأنت آمن على نفسك فقل . فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الذى دخله الطمع حتى حال بينه وبين ما ظهر في الأرض من الفساد والبغى لأنت فقال : فكيف ذلك ويحك ! يدخلنى الطمع والصفراء والبيضاء فى قبضتى والحلو والحامض عندى ؟ قال : وهل دخل أحد من الطمع ما دخلك ؟ إن الله استرعاك أمر عباده وأموالهم فأغفلت أمورهم وأتممت بجمع أموالهم ، وجعلتَ بينك وبينهم حجابًا من الجصِّ والآجُرّ ، وأبوابًا من الحديد وحراسًا معهم السلاح ثم سجنت نفسك عنهم فيها وبعثت عمالك فى جباية الأموال وجمعها ، وقويتهم

بالرجال والسلاح والكراع[1] ، وأمرت ألا يدخل عليك أحدٌ من الرجال إلا فلان وفلان ، نفرًا سميتهم ولم تأمر بإيصال المظلوم ، ولا الملهوف ، ولا الجائع العارى ولا الضعيف الفقير ولا أحد إلا وله فى هذا المال حق ، فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك وأمرت أن لا يُحْجبوا دونك ، تجبى الأموال وتجمعها . قالوا : هذا قد خان الله فما لنا لا نخونه . فائتمروا ألاّ يصل إليك من علم أخبار الناس شىء إلا ما أرادوا ، ولا يخرج لك عامل فيخالف أمرهم إلا خوّنوه عندك ونفوه ، حتى تسقط منزلته ، فلما انتشر ذلك عنك وعنهم ، أعظمهم الناس وهابوهم وصانعوهم ، فكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال ليقووا بها على ظلم رعيتك، ثم فعل ذلك ذووا المقدرة والثروة من رعيتك، لينالوا ظلم من دونهم ، فامتلأت بلاد الله بالطمع ظلمًا وبغيًا وفسادًا ، وصار هؤلاء القوم شركاءك فى سلطانك وأنت غافل ، فإن جاء متظلم حيل بينك وبينه ، فإن أراد رَفْع قصته إليك عند ظهورك وجدك قد نهيت عن ذلك ، وأوقفت للناس رجلاً ينظر فى مظالمهم ، فإن جاء ذلك المتظلم فبلغ بطانتك[2] خبره سألوا صاحب المظالم أن لا يرفع مظلمته إليك ، فلا يزال المظلوم يختلف إليه ويلوذ به[3] ، ويشكو ويستغيث ، وهو يدفعه ، فإذا أجْهِدَ وأحْرِج ثم ظهرت صرخ بين يديك ، فيضرب ضربًا مبرحًا يكون نكالاً لغيره ، وأنت تنظر فما تُنكر !

---

(١) الكراع : الخيل .
(٢) بطانتك : المقربين إليك .
(٣) يلوذ : يحتمى .

فما بقاء الإسلام بعد هذا ؟ وقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر إلى الصين فقدمتُها مرة وقد أصيب ملكهم بسمعه ، فبكى بكاء شديدًا .

فحثه جلساؤه على الصبر فقال : أما إنى لست أبكى للبلية النازلة ، ولكننى أبكى لمظلوم يصرخ بالباب فلا أسمع صوته ، ثم قال : أما إذ قد ذهب سمعى فإن بصرى لم يذهب ، نادوا فى الناس أن لا يلبس ثوبًا أحمر إلا متظلم ، ثم كان يركب الفيل طرفى النهار وينظر هل يرى مظلومًا فهذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله ، بلغت رأفته بالمشركين هذا المبلغ ، وأنت مؤمن بالله من أهل بيت نبيه لا تغلبك رأفتك بالمسلمين على شح نفسك ! فإن كنت إنما تجمع المال لولدك ، فقد أراك الله عبرًا فى الطفل يسقط من بطن أمه ماله على الأرض مالٌ ، وما من مال إلا ودونه يدٌ شحيحة تحويه ، فما يزال الله يلطف بذلك الطفل ، حتى تعظم رغبةُ الناس إليه ، ولست الذى تعطى ، بل الله يعطى من يشاء . فإن قلت إنما تجمع المال لتشديد السلطان فقد أراك الله عبرًا فى بنى أمية ما أغنى عنهم جمعهم من الذهب وما أعدوا من الرجال والسلاح والكراع حين أراد الله بهم ما أراد . وإن قلت إنما تجمع المال لطلب غاية هى أجسم من الغاية التى أنت فيها فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منزلة ما تدرك إلا بخلاف ما أنت عليه يا أمير المؤمنين .

هل تُعاقبُ من عصاك بأشد من القتل . فقال المنصور : لا . فقال : فكيف تصنع بالملك الذى خولك مُلك الدنيا وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل ولكن بالخلود فى العذاب الأليم ، قد رأى ما عقد عليه قلبك ، وعملته جوارحك ونظر إليه بصرك واجترحته يداك ومشت إليه رجلاك

هل يغنى عنك ما شححت عليه من ملك الدنيا إذا انتزعه من يدك ودعاك إلى الحساب ؟ قال : فبكى المنصور ، ثم قال : ليتنى لم أخلق ! ويحك كيف أحتال لنفسى ؟ فقال يا أمير المؤمنين ، إن للناس أعلاما يفزعون[1] إليهم فى دينهم ، ويرضون بهم فى دنياهم ، فاجعلهم بطانتك يرشدوك وشاورهم فى أمرك يسددوك ، قال : قد بعثت إليهم فهربوا منى قال : خافوك أن تحملهم على طريقتك ، ولكن افتح بابك ، وسهل حجاجك ، وانصر المظلوم واقمع الظالم وخذ الفىء والصدقات على حلها ، واقسمها بالحق والعدل على أهلها ، وأنا ضامن عنهم أن يأتوك ويساعدوك على صلاح الأمة .

وجاء المؤذنون فآذنوه بالصلاة ، فصلى وعاد إلى مجلسه ، وطلب الرجل فلم يوجد[2] .

كلام أبى حازم .. لسليمان بن عبد الملك :

حج سليمان بن عبد الملك ، فلما قدم المدينة للزيارة بعث إلى أبى حازم الأعرج وعنده ابن شهاب . فلما دخل قال : تكلم يا أبا حازم . قال : فيم أتكلم يا أمير المؤمنين؟ قال : فى المخرج من هذا الأمر . قال : يسير إن أنت فعلته . قال : وما ذاك ؟ قال : لا تأخذ الأشياء إلا من حلها ولا تضعها إلا فى أهلها . قال :

ومن يَقْوى على ذلك ؟ قال : من قلده الله من أمر الرعية ما قلدك . قال : عظنى أبا حازم ! قال : اعلم أن هذا الأمر لم يصِرْ إليك إلا بموت

(١) يفزعون : يلجئون .
(٢) العقد الفريد ٣/١٠٣ - ١٠٦ .

من كان قبلك ، وهو خارج من يديك بمثل ما صار إليك ، قال يا أبا حازم أشرْ عليّ ، قال : إنما أنت سوق ، فما نفق عندك حمل إليك من خير أو شر فاختر أيهما شئت . قال : مالك لا تأتينا ؟ قال : وما أصنع بإتيانك يا أمير المؤمنين ؟ إن أدنيتني فتنتني وإن أقصيتني أخزيتني ، وليس عندك ما أرجوك له ، ولا عندي ما أخافك عليه ! قال : فارفع إلينا حاجتك . قال : قد رفعتها إلى من هو أقدر منك عليها ، فما أعطاني منها قبلت ، وما منعني منها رضيت[1] .

مقام ابن السماك عند الرشيد :

دخل عليه فلما وقف بين يديه قال له ، عظني يابن السماك وأوجز .

قال : كفى بالقرآن واعظًا يا أمير المؤمنين ، قال الله تعالى : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخسرون ألا يَظُن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾[2] .

هذا يا أمير المؤمنين وعيد لمن طفف في الكيل ، فما ظنك بمن أخذه كله ! وقال له مرة : عظني . وأتى بماء ليشربه . فقال : يا أمير المؤمنين ، لو حبست عنك هذه الشربة أكنت تفديها بملكك ؟ قال نعم . قال : فلو حبس عنك خروجها أكنت تفديها بملكك ؟ قال : نعم ! قال : فما خير في ملك لا يساوي شربة ولا بَوْلة ! قال : يا ابن السماك ، ما أحسن ما بلغني عنك ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إن لى

---

(١) السابق ٣/١٠٧ – ١٠٨ .

(٢) سورة المطففين الآية ١ – ٦ .

عيوبا لو اطلع الناس منها على عيب واحد ما ثبت لى فى قلب أحد مودة وإنى خائف فى الكلام الفتنة وفى السر الغرة وإنى لخائف على نفسى من قلة خوفى عليها[1] .

كلام عمرو بن عبيد عند المنصور :

دخل عمرو بن عبيد على المنصور وعنده ابنه المهدى ، فقال له أبو جعفر : هذا ابن أمير المؤمنين ، وولى عهد المسلمين ، ورجائى أن تدعو له . فقال : يا أمير المؤمنين ، أراك قد رضيت له أمورًا يصير إليها وأنت عنه مشغول فاستعبر أبو جعفر وقال له عظنى أبا عثمان ! قال يا أمير المؤمنين ! إن الله أعطاك الدنيا بأسرها ، فاشتر نفسك منه ببعضها ، هذا الذى أصبح فى يديك لو بقى فى يد من كان قبلك لم يصل إليك ! قال : أبا عثمان أعنى بأصحابك . قال : ارفع علم الحق يتبعك أهله ، ثم خرج فاتبعه أبو جعفر بصرة ، فلم يقبلها ، وجعل المنصور يقول :

كلكم يمشى رُوَيْدْ كلكم خاتل صيد[2]
غير عمرو بن عُبَيْدْ[3] .

---

(١) العقد الفريد ١٠٨/٣ .
(٢) خاتل : ختل الصيد أى تخفى ، فهو خاتل .
(٣) العقد الفريد ١٠٩/٣ .

الفهرس

الفصل الأول
الدعوة لغة الصيحة والنـداء

الفصل الثانى
وسائل الدعوة الإسلامية

الفصل الثالث
أخلاق وصفات الداعية

الفصل الرابع
اتجاهات الفكر الإسلامى المعاصر

الفصل الخامس
مشكلات الدعوة والدعاة

خاتمة
مثل عليا فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

رقم الإيداع		١٩٩٣ / ٩٣٨٨
الترقيم الدولى	977-02-4270-5	ISBN

١ / ٩١ / ٣٧٢
طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

[illegible]

[illegible]

دار المعارف